الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

الشعبة: الدراسات الأدبية.

التخصص: أدب عربي قديم

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه –ل م د– المعنونة بـ:

أدب الرسائل في العصر الموحدي– مقاربة تاريخية تحليلية فنّية–

إعداد الطالبة:
دريسي عائشة

إشـــراف:
أ.د فارسي عبد الرحمن

أعضاء لجنة المناقشة :

1-	محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
2-	فارسي عبد الرحمن	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
3-	محصر وردة	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة تلمسان	عضوا
4-	شميسة غربي	أستاذة التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
5-	شميسة بن مداح	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة تلمسان	عضوا
6-	نورية بن عدي	أستاذة محاضرة "أ"	المركز الجامعي مغنية	عضوا

العام الجامعي: 1443-1444هـ /2022-2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا العمل إلى الوالديّن الكريمين.

إلى زوجي العزيز.

إلى كلّ من قدّم لي يد العون والمساعدة.

شكر و عرفان

الشكر الأوّل والحمد الكبير لله عزّ وجلّ الذي أعانني و قدّرني على إتمام هذا العمل،

راجية إيّاه أن يجزيني على جهدي هذا بأجر الاجتهاد.

أمّا الشكر و العرفان الثاني فأوجّهه إلى ساندي بإرشاداته وتوجيهاته الحكيمة،أستاذي

المشرف "فارسي عبد الرحمن" فله جزيل الشكر والعرفان على كلّ مجهوداته الجبارة في سبيل

إتمام هذا البحث، كما لا أنسى أن أشكر الأستاذ الدكتور"محمد مرتاض" الذي هو الآخر

ساندني ودعمني في بداية مشواري مع الدكتوراه.

والشكر الجزيل للجنة المناقشة لقبولها مناقشة هذه الأطروحة، وإلى كلّ من علّمني

ولقّنني ولو حرفا.

مقدّمة

أسّس الموحدون دولتهم وبسطوا نفوذهم في كلّ من بلاد المغرب العربي والأندلس، إذ بدأت الدعوة الموحدية في أواخر القرن السادس الهجري بداية القرن السابع الهجري، فأقاموا دولتهم على أُسس دينية محضة، هذا ما جعل لهذه الدولة الأثر البالغ في التاريخ الأدبي لبلاد المغرب والأندلس، فقد صيّروا حواضر تلمسان وبجاية وقرطبة ومراكش وغيرها من أزهى الحواضر وأرقاها على الإطلاق، كما جعلوا الأندلس تحتل مكانا مرموقا بين الدول العربية المعاصرة لها، فقد أصبح المغرب العربي ينعم حينها بالرخاء والاستقرار السياسي لمدة من الزمن، هذا الرخاء والسلم السياسي كان سببا من أسباب تطور الحياة الموحّدية في جميع نواحيها، وإلى جانب ما لمحناه من رقي وتطوير في نظام الحكم والإدارة، نلحظ عناية الموحدين بالعلوم والفنون والآداب.

إنّ عصرهم كان عصر ازدهار أدبي، هذا راجع بالأساس إلى مجموعة من العوامل نذكر منها اهتمامهم بالعلماء والأدباء والشعراء وتقريبهم من بلاط الحكم، إضافة إلى عنايتهم الفائقة بإنشاء دور العلم، والمكتبات والزوايا في كل حدب وصوب، هذا كلّه كان له الأثر الكبير في خلق نهضة فكرية في بلادي المغرب والأندلس.

إنّ الحياة الفكرية المتطورة هي أساس تطوّر الأمم، بل هي روحها التي تجعل للدول هدفا ورسالة واضحة وجلية المعالم، من هنا كان من الضروري على الباحثين العناية بآداب الأمم والدول، هذا حتى يتسنى لهم تكوين صورة واضحة المعالم عن الدول، إلّا أنهم –أقصد الباحثين– قد عكفوا على دراسة الشعر كونه الدليل الكبير والمثل الأرفع للفنون الأدبية، عبر

الأزمنة والعصور المختلفة بدءا من العصر الجاهلي، وكان حظّ النثر مقارنة بالشعر قليلا من حيث الدّرس والتحليل، ومن هنا انبرى فكرنا صوب عنوان "أدب الرسائل في العصر الموحّدي مقاربة تاريخية تحليلية فنّية" موضوع لهذه الأطروحة.

ولم يكن اختيارنا لهذا الموضوع وليد الصدفة، بل كان بعد توجيه من الأستاذ القدير محمد مرتاض، الذي حفزني على البحث فيه، فولّد في نفسي رغبة ذاتية، تمثلت في إعجابنا بأسلوب كتّاب الدولة الموحّدية، فقد كان أسلوبهم دينيا محضا، هذا إضافة إلى رغبتنا في المساهمة ولو بالشيء القليل في إحياء التراث المغربي، ومحاولة نفض الغبار عن بعض ما غمر منه، هذا حتى يستمر لأجيال وأجيال ولا يندثر.

ولقد سبقنا إلى البحث في هذا الموضوع محمود محمد عبد الرحمن خياري في كتابه: أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي في كتابه: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري؛ الطاهر توات بمصنّفه: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين؛ ... وغيرها الكثير من المصنّفات الأدبية والنقدية القديمة والحديثة التي اهتمت كلّ الاهتمام برسائل الموحدين جمعا أو تحليلا، والتي يضيق المجال هنا لذكرها كاملة.

إنّ هذا البحث يسعى إلى الإجابة عن مجموعة من الإشكالات، أذكر منها:

1. ما السمات الفنّية الجمالية للرسالة الموحّدية؟ وهل كان كتّاب الدولة الموحّدية مجدّدين أم مقلدين؟

2. وهل استطاعت الرسالة أن تواكب الأحداث السياسية والاجتماعية التي شهدتها الدولة الموحّدية؟

وقصد الإجابة عن هذه الأسئلة ، وللإلمام بجوانب الموضوع، قسّمنا بحثنا إلى مدخل و ثلاث فصول مذيلة بخاتمة وملحق لأهم أعلام الكتاب في العهد الموحدي.

قدمنا في المدخل لمحة عن الفنون النثرية في العهد الموحدي، ودرسنا في الفصل الأوّل نشأة الرسالة الموحدية و تطورها، فقمنا بتعريفها لغة واصطلاحا، وذكرنا شروط الكاتب التي وجب توافرها في كتّاب الديوان، كما أشرنا إلى نشأتها وتطورها عبر العصور، بدءا بالعصر الجاهلي، فالإسلامي، فالأموي، ثم العباسي، والعصر الحديث، وكذا عند المغاربة والأندليسيون.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن العوامل التي ساعدت على تطورها في العصر الموحدي و التي تمثلت في العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، حيث تحدّثنا عن الظروف التي سادت بالمغرب والأندلس خلال هذه الفترة، وقد أشرنا إلى خلفائها وحكّامها الذين تداولوا على حكمها، كما ألقينا الضوء على الفئات المكوّنة للمجتمع الموحّدي، ونظرنا في خصائص عمرانها وحواضرها، وبعدها أشرنا إلى الحياة الفكرية في المغرب خلال فترة الموحدين، هذه الحركة التي نشطت وازدهرت بفعل مجموعة من العوامل والأحداث التاريخية والسياسية.

و الفصل الثاني عرضنا فيه أنواع الرسائل، فعرّفنا الرسالة الديوانية، وانتقلنا إلى ذكر أهم أغراضها مستدلين على كلّ غرض بمجموعة من الرسائل التي خلّفها كتاب هذه الدولة، كما فصّلنا في مفهوم الرسالة الإخوانية، وذكرنا أغراضها ومضامينها معتمدين على البراهين والحجج والأدلة التي تبرز لنا كلّ غرض وسماته، ثم ختمنا هذا الفصل بالرسالة الوصفية، فعرّفناها وذكرنا أغراضها ومواضيعها.

أمّا الفصل الثالث فقد خصّصناه للمقاربة الفنّية للرسائل على اختلاف أغراضها، فدرسنا بنية الرسالة ولغتها، ومن ثم تطرقنا إلى مظاهر التقليد والتجديد فيها، بعدها تطرّقناإلى حضور علم المعاني في الرسائل الموحّدية كحديثنا عن مظاهر الاتّساق والانسجام في الرسالة الموحّدية، بعدها تناولنا أسلوب الاستقصاء والإفاضة، فالأساليب البلاغية وظاهرة التكرار في الرسالة.

بعد كلّ هذا تناولنا إلى علمي البيان والبديع وحضورهما في صلب الرسالة الموحّدية، من تشبيه واستعارة وتضمين واقتباس وسجع وجناس وطباق. وفي الأخير رصدنا أعلام الكتابة في العهد الموحدي في ملحق يجمعها، وختمنا البحث بما توصلنا إليه من نتائج.

ثمّ إنّ هذا البحث مثل غيره من البحوث يقوم على منهج، يوضّح معالمه، ويبرز جوانبه ويجليها، فقد استعنا بالمنهج الوصفي في محاولتنا تبسيط بعض المفاهيم، أمّا إجراء التحليل فظهر في الجزء الأخير من البحث، أي في مقاربتنا الفنّية للرسائل الموحّدية.

وبما أنّه لا إبداع ينتج من فراغ، فقد اعتمدنا في بحثنا على مجموعة من المصنّفات تنوعت بين المصادر والمراجع والأطاريح الجامعية، فمن المصادر نذكر؛ المقدمة لابن خلدون، وكتاب الاستقصا لأخبار دولة الأقصى للناصري، وكتاب الذيل والتكملة للمراكشي. ومن بين ما اعتمدنا عليه من مراجع؛ رسائل موحّدية بجزئيه لأحمد عزاوي، وكتاب النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية لمحمد رجب النّجار، ومصنّف الدعوة الموحدية بالمغرب لعبد الله علام.

أمّا الأطاريح فنذكر منها: ابراهمي صليحةالرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، أطروحة ماجستير في الأدب العربي، وأطروحة فهد مفتاح يعيش الفهمي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتّى نهاية القرن السادس الهجري، ماجستير في الأدب والبلاغة وغيرها من الكتب والمصنّفات الثّرية التي أنارت دربنا وكانت لنا كالسراج المنير.

و إنّ كلّ باحث إلّا ويواجه صعوبات وعوائق أثناء بحثه وعمله، من أهمّها:

طبيعة الموضوع الواسعة، فالرسالة متعدّدة الأنواع وكلّ نوع إلّا وله عدداكبير من الأغراض والمقاصد، وربّما الرسالة الواحدة يكون لها أكثر من غرض، فضلا عن تشتّت الرسائل الإخوانية والوصفية في ثنايا العديد من المصادر ممّا صعّب علينا مهمّة الكشف عنها كلّها، حتى وأنّ بعض من هذه الكتب لم نتحصّل عليها لأنّها لم تصلنا بل كانت مخطوطا في المغرب وإسبانيا ومن هنا وجدنا صعوبة في الحصول على هذا الجزء من الرسائل الإخوانية.

وفي الأخير نتقدّم بأسمى عبارات الشكر والثناء إلى الأستاذ المشرف –فارسي عبد الرحمن– الذي حرص كلّ الحرص على متابعة بحثي، وتصويبه، والذي بقي دائم النّصح والإرشاد لي إلى أن خرج في صورته النهائيّة هذه.

دريسي عائشة

4ربيع الثاني1444هـ الموافق ل31أكتوبر 2022

مدخل

لمحة عن الفنون النثرية في العهد الموحد

المدخل: لمحة عن الحياة النثرية في العهد الموحدي

تمهيد:

الموحدون مصطلح مشتق من كلمة التوحيد، و هو علم قائم بذاته، شاع في بلاد المغرب العربي "و عرف به أتباع الشيخ الشريف المهدي بن تومرت، فهو الذي سماه بذلك تعريضا بالمرابطين."[1]

و هم كذلك الراغبون "في التوحيد بالاقتصار في أمور الدين على ما جاء في القرآن الكريم و الحديث الشريف"[2]

نستنتج من هذا النص أن الموحدين يعود اسمهم إلى المذهب الذي اتخذه ابن تومرت كأساس تبنى و تقوم عليه دولته "مذهب المعتزلة في الأسماء و الصفات حيث نفى ما عساه أن يوهم بالشبه و التمثل لله سبحانه و تعالى، و كل ما من شأنه أن يشبهه بأفعاله و أقواله حتى و لو كان ذلك في صفاته الموجودة في الكتاب و السنة"[3]

---

[1] – سمير نور الدين دَردور، ملحمة الجزائر شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا، دار هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، دط، دت، ص74.

[2] – عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص362.

[3] – حكيمة إيملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم "العهد الموحدي أنموذجا"، أطروحة ماجستير في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2008-2009، ص7.

و يقوم هذا المذهب "أساسا على الإيمان بالوحدانية الإلهية أو التوحيدفي مفهومه الدقيق كمركز عقائدي جوهر حاضر بصفة تطبيقية في الحياة اليومية.

و هذه الأهمية المركزية و الأولوية التي حظي بها التوحيد هي التي كانت وراء تسميتهم بالموحدين أي أولئك الذين ينادون بالوحدانية المطلقة"[1]، و لهذا السبب سمى أصحابه الموحدين لأنهم —و في رأيه الخاص–عباد وجب عليهم طاعة الخالق و توحيده و عدم الشرك به، و سمى كذلك دولته بهذا الاسم حتى ميزها عن سابقتها المرابطية أو كما اصطلح عليهم بالمجسمين، و حتى يثبت للناس أنه على حق و أنه يحارب كل كافر مشرك بالله.

النثر في عصر الموحّدين:

الأدب مصطلح دقيق، يحمل بين ثناياه العديد من الفنون والأجناس، فالأدب عند ابن خلدون علم "لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنّما المقصود منه عند أهل اللّسان ثمرته، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم"[2] فالأدب في نظره لا يصبح أدبا إلّا إذا ارتبط بفكرة ما وهدف دقيق، يصاغ بأسلوب جيّد بليغ فصيح حتى يضمن تأثيره في النفوس.

[1] – عن معرض مثلث الأندلس، نشرته وزارة الثقافة المغربية المغربية، الرباط، المغرب، أكتوبر 2002، ص85.

[2]– ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط1، 2004، ج1، ص357.

فالأدب بهذا المفهوم يعتبر الرّكن الأوّل للحصول على العلوم والمعارف الإنسانية، فهو تعبير "عن حاجيات النّفس وعن انفعالاتها واندهاشها المقمع بالسؤال"[1].ينقسم الأدب إلى قسمين أساسيين هما الشعر والنثر، فأمّا النثر وإذا ما حاولنا التأصيل لهذا المصطلح من الجانبين اللغوي والاصطلاحي، والتّعرّف عليه بدقة، فإنّه من الواجب علينا أن نثير الإشكال التالي: ما معنى النثر؟ وما هي مميزاته؟ وهل النثر والشعر شيء واحد؟

لا ليس النثر والشعر شيئا واحدا، بل هما فنّين مستقلّين عن بعضهما البعض، ولكل منهما خصائصه وسماته، وكلّ منهما يحمل فكرة وهدفا يريد بلوغه، فالشعر كلام موزون مقفّى، بينما النّثر فهو كلّ كلام مرسل لا قافية ولا وزن عروضي يحدّه، وهو محور دراستنا في هذا الجزء من البحث، والنثر عند صاحب اللّسان من "مادّة نثر، النّثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا، مثل نثر الجوز واللّوز والسّكر، وكذلك نثر الحبّ إذا بذر وهو النّثارُ...والنُّثار فتات ما يتناثر حوالي الخوان، من الخبر ونحو ذلك من كلّ شيء"[2].

أمّا عند الزمخشري فوجدنا النثر عنده من مادّة " النّثار: أي الخيشوم أو الفرجة بين الشاربين، ومنه قيل نثرت المرأة بطنها، ونثر الحمار الشاة نثيرا، وهو الفتات المتناثر حول

[1]– ابراهمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، أطروحة ماجستير في الأدب العربي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2016-2017، ص3.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، ط2، 1997،ج5، ص191.

الخوان، والنّثر مصدر من نثر بمعنى المنثور، يقال: ما أصبتُ من نثر فلان شيئا وهو اسم المنثور من السّكر ونحوه، كالنّثر بمعنى المنشور"[1].

ويرى الفيروزآبادي بأنّ النثر من "نَثَر الشيء ينثره، وينثره نثرا، رماه متفرّقا كنثره وتنثّر وتناثر، والنُّثارة، بالضم والنَّثر بالتحريك ما تناثر منه"[2]والنثر بهذه المعاني اللغويّة نجده يعني التجزئة والتفرقة والاسترسال في الأمر، وبسط القول.

أمّا معناه في الاصطلاح؛ فيضرب للكلام المكتوب المسترسل، الذي يتشكّل وفقا لفقرات معيّنة، تقوم على منهجية معيّنة وهي: المقدمة، والعرض، والخاتمة، وهو كلام لا وزون عروضي يحدّه فهو نقيض الشعر.

وقف النّقاد اتجاه هذين المصطلحين –أقصد الشعر والنثر– مواقف متباينة، فمنهم من قال بأسبقية النثر على الشعر وأفضليته على الآخر، ومنهم من رأى أن الشعر هو الأسبق والأفضل عن النثر، ومنهم من وقف موقفا محايد، فرأى أنّ النثر والشعر متلازمين لبعضهما وكلاهما الأفضل.

[1] – الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، مادة نثر، ص244.

[2]– الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005، ج2، ص229.

أمّا الفريق الأوّل، هم فئة فاضلت بين الشّعر والنثر، فرأت بأنّ الشعر هو الأحقّ بالأسبقية وكانت أدلتهم أنّ العرب كانت تطرب لإلى ما يحقّق لها المتعة واللّذة، وكانت تنشد إلى ما يروقها ويطربها ويسحرها، وكان الشعر هو المخوّل بهذا الأمر.

والجاحظ كان من زعماء هذا الفريق، فهو من النّقاد الذين رجحوا كفّة الشعر على النثر، كون الشعر قول معجز في نظره، وسرُّ إعجازه هو لغته الجزلة وأسلوبه الرائع، وصوغه القائم على الوزن والقافية[1]، يوفقه الرأي كلّ من ابن قتيبة، أبو هلال العسكري، وعبد الكريم النهشلي، وابن الرشيق وغيرهم الكثير، الذين لم نذكرهم مخافة الإطناب.

غير أنّ الفريق الثاني والذي فضّل أصحابه النثر وجعلوه الأسبق، من منظور أنّ القرآن الكريم نزل نثرا، وما هذا إلا وجها من أوجه تكريمه وإعلاء شأنه، كما راحوا ليستشهدوا على أسبقيته على الشعر من دليل أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستخدم الشعر بتاتا، بل اعتمد في دعوته على النثر في خطبه ومواعظه.

وممّن رجّح كفة النثر أبو حيان التوحيدي، كاتب من كتّاب القرن الرابع، هذا القرن الذي عرف فيه النثر تطوّرا ورقيا، إضافة إلى ابن الأثير، فهو يرى أنّ المنثور أفضل وأقوى

[1] – الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1965، ج1، ص75.

منالمنظوم، والسبب وراء حكمه هذا يعود إلى أنّ القرآن نزل نثرا ولم ينزل شعرا،[1] ومن هنا كان حقا علينا أن نجيده ونعلي من شأنه ونرجع له الاعتبار.

ولنعود إلى النثر كونه صلب وجوهر موضوعنا ونقول أنّ النثر نوعين هما نثر عادي وآخر فنّي ، فأمّا النثر العادي؛ فهو الكلام العادي المستعمل في الحياة اليومية، وهذا الفنّ لا قواعد تحكمه، وهو متغيّر من منطقة للأخرى، وهو إذن "لغة استهلاكية متداولة فقدت حرارتها الإبداعية، وقدرتها على الإدهاش والتأثير ومن ثم وصفها، القدماء أنّها لغة سوقية أي مألوفة ومستهلكة"[2].

أمّا النثر الفني، فهو ذلك الأدب الذي فيه روح الإبداع والابتكار حاضرة، ذو لغة راقية، تطرب الأذن لسامعها فيرتاح القلب لذكرها، وهو يحمل في كنهه فنّ الرسالة، والخطابة والمقامة والقصة وغيرها من الفنون الهامّة. وكلّ هذه الفنون سنحاول التلميح عنها لنتمكّن من أخذ صورة شاملة للنثر في عصر الموحدين.

[1] – ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، دت، القسم الثاني، ص20.

[2] – محمد رجب النّجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ص9.

1. فنّ الخطابة:

اهتم الموحدون بالنثر كغيره من الفنون الأدبية، يعود هذا الاهتمام كونه الوسيلة الأسهل والأيسر للتواصل بين الحكام، فقد تنوعت أضربه وفنونه منها الخطابة والرسالة والقِصص والمقامة وغيرها من الفنون الراقية أسلوبا وفكرا.

الخطابة فن نثري نشأ منذ الأزل حيث جاء ليعبر عن مقاصد الفرد ومكنوناته الداخلية، ازدهر هذا الفن وتطور من عصر للآخر، ومن دولة للأخرى، حتى أنّه أصبح ينافس الفنون الأدبيّة الأخرى كالشعر والقصص وغيرها، حيث لا نكاد نعثر على عصر يخلو أدبه ونثره من هذا الفن.

ازدهرت الخطابة في العصر الموحدي وتطورت، هذا راجع إلى الضرورة الملحة للخلفاء والحكام لها، فهي كانت الوسيلة الكبرى لهم من أجل بسط نفوذهم وتوجيه رعيتهم توجيهاصحيحا. ومن خطباء الدولة الموحدية بل وأولهم على الإطلاق خليفتهم والمؤسس الأول لدولتهم الفصيح الورع البليغ المهدي بن تومرت الذي راح ومنذ تأسيس دولته يلبس لباس الرجل الناصح الزاجر الذي يهتم بتطبيق شرع الله تطبيقا صائبا لا يكدره شيء، فكان يستعين بالخطابة في حروبه على المرابطين وفي صلاة الجمعة، حتى أنه نجح في هذا الفن نجاحا باهرا وهذا يعود إلى فصاحته حتّى أنّنا "لا نجد كثيرا من الخطباء المغاربة ممن يفوق بن تومرت في مجال الفصاحة، وحتى ألذ أعدائه، الذين كانوا يصفونه بالحمق، فإنهم كانوا يضيفون أنّه كان يجيد اللغة العربية بشكل خارق للعادة، لقد كان بليغا، وكان كلامه مهذّبا، بعيد المدى،

لا يتكوّن من جمل متفننة التركيب فحسب، بل يحمل أيضا في طياته إلى المستمعين المعجبين ما يقتضيه الحال من إقناع، وتهديد ووعيد بعقاب جهنّم ووعد بنعيم الجنة"[1].

سعى المهدي بخطبه الممزوجة بآيات وأحاديث نبوية شريفة إلى إحلال روح الزهد في النفوس، وجعلهم دائمي الخوف من الله محتسبين عابدين له، ولعل من أهم خطبه وأشهرها خطابه البربري للمصامدة في بداية تأسيس دولته، حيث حثّهم على ضرورة سلوك الطريق الصائب والالتزام بكتاب الله وسنة نبيه الكريم وأن يبتعدو عن الموبقات التي جاء بها المجسمون[2].

وقد جاء فيها ما نصه "واعلموا –ويعلم الله– أنّ الدين الذي جاهدوا عليه هو هذا الدين لا تبديل، ولا تحويل، حتى ينفخ في الصور. والصبر على إحياء هذا الدين فرض علينا كما صبروا، والاجتهاد في المسارعة إلى عمل الخيرات فرضٌ علينا كما اجتهدوا... واعلموا – وفّقكم الله– أنّ العدو لا يغلبُ بالعددَ والعُدد، وإنّما يغلبُ بحسن النية والتقوى والأعمال الصالحة، والتوكل على الله، إنّما تقاتلون بأعمالكم... فاجتهدوا في تعليم ما يلزمكم من فرائض، واشتغلوا بعلم التوحيد فإنّه أساس دينكم... وإيّاكم والغلول، فإنّ الغلول عارٌ وشنارٌ على أهله يوم القيامة، واقسموا على موافقة الكتاب والسّنة..."[3] والملاحظ على هذا الجزء من الخطبة، اللغة المسترسلة السلسة، التي كلّها فصاحة وبلاغة، وحسن تصوير، ودقة في

[1]– رشيد بورويبة، ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص122.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص123.

[3] – عبد الله علام، الدعوة الموحدية في عهد عبد المومن بن علي، دار المعارف، مصر، 1978، ص349-356.

التعبير، هي خطبة تنمّ عن روح صاحبها الزاهد التَّقي المطيع لأوامر الله المطَّلع الحافظ للكتاب والسنة، فقد حرص صاحبها أن يتخير الألفاظ الخادمة للمعنى فجاءت منسجمة متّسقة مع بعضها البعض.

ومما زاد هذه الخطبة جمالا ورونقا فنون البديع المستخدمة كالجناس (العددَ/ العُدد)، والطباق (يغلب/ لا يغلب)، كما غلب عليها الأسلوب الإنشائي الطلبي (وإيّاكم والغلول، فاجتهدوا، واعلموا...) لأن الكاتب كان في مقام النّصح والإرشاد والتوجيه.

ومما زادها بهاء لغتها الموضوعية المدعمة بالدليل المنطقي المقبس من الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف .لذا وجدنا لغة الخطبة هذه كلها ذات صبغة دينية البعيدة كل البعد عن الخيال والعواطف وقد حققت هذه اللغة هدفها الذي كان يصبوا إليه المهدي من خلال إلقاء هذا الكلام، حيث كان يسعى إلى التفاف المصامدة عليه ومبايعته وبالفعل حدث له ما كان يروقه، فقد (بايعته هذه القبيلة سنة 515هـ)[1].

إن الدافع الأكبر وراء انتشار وازدهار فن الخطابة كان رغبة ملوك الدولة الموحّدية وخلفائها في الوعظ والإرشاد، لتخليص المجتمع من الآفات الاجتماعية معتمدين في ذلك على التعاليم الإسلامية السمحة.

[1] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، تح: جعفر النصري– محمّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1997، ج3، ص21.

2. المقامة:

المقامة من الفنون القديمة في تراثنا الأدبي العربي، وهي من الفنون التي أسالت الأقلام والأحبار منذ مدة، فالمقامة لغة تعني "موضع القدمين والمقام والمقامة بالضم: الإقامة والمقام بالفتح: المجلس والجماعة من الناس"[1] والمقام عند ابن سيدة يعني "المجلس، والمقامة السادة: وكل من وجعك من جسمك فقد قام بك"[2].

هي قطعة نثرية تتشكل على شكل قصة تحكي لنا موضوعا ما سواء أكان خياليا أو حقيقيا، يغلب عليها الطرفة، تروى على لسان شخص يسمى القاص أو الحاكي، وهي "قطعة من النثر الفني وضعت على صورة حكاية قصيرة تنتهي في مغزاها إلى عظة أو عبرة أو طرفة تروى من قبل شخصية خيالية لا تتغير، وتتميز تلك الشخصية بصفات من أبرزها البلاغة والفصاحة، وحلاوة نادرة وسعة العلم والأدب، وسرعة الخاطر والكُدية وسعة الحيلة، والسجع والازدواج"[3] من أوائل العرب الذين اشتهروا بكتابتها الحريري وبديع الزمان الهمذاني.

[1] – ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص335.

[2] – ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2000، ص16.

[3] – عبد الغني كساسبة، النثر الفني عند الموحدين، ص186.

ومن أعلام الدولة الموحّدية الذين اهتموا بهذا الفنّ، ابن محرز الوهراني، هو الشيخ "ركن الدين أبو جمال الدين أبو عبد الله محمّد بن محرز بم محمد الوهرانيُّ"[1]علم من أعلام الأدب ببلاد المغرب العربي، جزائري الأصل والنشأة، ولد هذا الرجل بولاية وهران، عاش هذا العلم في القرن السادس الهجري، حيث شهدت حياته تداول دولتين على حكم بلاد المغرب العربي، هما؛ الدولة المرابطية والموّحّدية.

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ مواده لكن اتفقوا على ربط هذا التاريخ بالقرن الثاني عشر ميلادي، السادس الهجري، أي التريخ الذي يتزامن مع سقوط الدولة المرابطية وحلول الدولة الموحّدية مكانها.

شبّ ابن محرز في وهران وتعلّم فيها العلوم الإسلامية والأدبية، لكن وبعد سقوط الدولة المرابطية وسيطرت الدولة المؤمنية على الحكم سنة 515هـ، فضّل ابن محرز الهجرة والانتقال إلى بلاد المشرق، فذهب إلى دمشق أيام صلاح الدين الأيوبي أي في سنة 564هـ [2]، ومن ثم إلى القاهرة في عهد الدولة الفاطمية أي سنة 597هـ.

[1]- عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص445.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 445.

طمح ابن محرز من خلال تنقلاته هذه إلى تولي منصب الإنشاء والكتابة لكنه لم يحقق هذا الحلم فاتّجه نحو الكتابة الهزلية في مقاماته فهو "أديب متعدّدُ نواحي الشخصية، له مشاركة في الأدب والفقه والعلم والفلسفة، وله معرفة بألفاظ الفرق الإسلامية الظاهرية والباطنية، ويبدو أنّ له اطلاعا على علم الفلك، وهو يُصرّفُ كلّ ذلك في آثاره الكتابية"[1].

توفي ابن محرز بدمشق سنة 575هـ ودفن بها.

خلّف الوهراني منامات ومقامات ورسائل غاية في البلاغة، حقّقت وجمعت تحت اسم "منامات الوهراني ومقاماته ورسائله" على يد كلّ من محمد نغش وابراهيم شعلان".

والمتتبع لهذا المصنف القيّم يتراءى له من الوهلة الأولى أنّ صاحبه رجلا بليغا، واسع الخيال، طويل التأمّل والتفكير، فقد تشكّل هذا الكتاب من ثلاث مقامات، يتغلب عليها الخيال والتصوير الفني، تختلف في طولها وموضوعها ولعلّ أكثرها طولا هي المنام الكبير، الذي تخيّل فيه وكأنّه قد بعث يوم الحضر للحساب والعقاب، فالتقى مجموعة من الخلفاء والأدباء والشعراء، فراح يتحاور معهم واصفا حالتهم، وهو بهذا يرمز إلى خيبة الأمل والظلم من قبل هؤلاء الخلفاء لما لم يعرفوا قيمته ولم يمكّنوه من الاشتغال في ديوان الإنشاء، فقد زاوج الكاتب هنا في مناماته بين فنّي المنظوم والمنور إلّا أنّ هذا الأخير كان الغالب في ذلك.

[1] – عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص446.

والمقامات كذلك كانت ثلاث الأولى تدعى المقامة البغدادية تكلّم فيها عن بعض الحكام المشهورين أمثال عبد المؤمن بن علي، والثانية كتبها في صقلية حيث راح يمدح فيها أحد الرجال الذين التقى بهم في أحد المجالس الأدبية، والأخرى سمّاها شمس الخلافة وقد تحدّث فيها عن المجتمع العربي المسلم وما شابه من إنحلال وترف ولهو ومجون.

ومن أعمدة هذا الفن المغمورين والذين لم يعطي لهم التّأريخ حقّهم من الدرس والبحث، السرقسطي* ، والشريشي** الذي قام بشرح مقامات الحريري، في ثلاثة كتب كبرى، أولاها عرض فيها ثقافة الحريري الأدبية واللغوية، وفي الشرح الثاني اهتم بوضع مسميات لمقاماته[1]، وفي المصنف الثالث اهتم بالجانب الفني الذي وردت عليه المقامة الحريرية.

* محمد بن يوسف أبو الطاهر المازني المعروف بابن الأشتركوبي المتوفى سنة 538هـ، يقول صاحب الصلة أنّ له له ما يفوق خمسون مقامة لكنها لم تجمع في مصنّف واحد وظلّت متناثرة هنا وهناك في الكتب، وفي المكتبات الأجنبية على شكل مخطوطات، ينظر: ابن بشكوال، الصّلة، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ج2، ص556.

** هو أحمد بن عبد المؤمن أبو العباس توفي سنة 319هـ، له هو الآخر مقامات ضائعة منسية، ينظر: المراكشي، الذيل والتكملة، ج1، ص268-270.

[1] – ينظر: عبد الغني كساسبة، النثر الفني عند الموحدين، ص187.

3. الرسالة:

لقد كان النثر قبل عصر الموحّدين، أي قبيل القرن الخامس وأواخر القرن السادس والسابع، يسير بوتيرة غير سريعة نحو التطوّر والرقي، فقد كان "محدود المجالات، ضيّق الأنحاء محصور الأغراض"[1] لكنّه سرعان ما راح يتوسّع توسعا ملحوظا في بحر القرن السادس والسابع، أي مع حلول دولة الموحدين، فقد ازدهر لدواعي تنظيم الدولة وتسيير حكمها مع ملوكها في مختلف الأنحاء، وهذا التطوّر يعود إلى الدّور الذي لعبه خلفاء الدّولة الموحّدية، فقد كانوا يحفّزون الكُتّاب والعلماء ويقربوهم منهم لا لشيء إلّا لجعلهم ينتجون ويبدعون في مختلف العلوم والفنون.

نستشف ممّا سبق النقاط الوالية الذكر:

1. يعود سبب تسميتهم بالموحدين إلى المذهب الذي اتخذه ابن تومرت كأساس ديني لدولته.
2. بنيت الدولة الموحدية على أساس ديني ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

[1]- علي بن محمّد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج1، ص207.

الفصل الأوّل

نشأة الرسالة الموحدية و تطورها

المبحث الأوّل: مفهوم الرسالة.

المبحث الثاني: نشأة أدب الرسائل.

المبحث الثالث: شروط الكاتب.

المبحث الرابع:دور التّرسّل ومكانته في المجتمعات.

المبحث الخامس: العوامل المساعدة على تطور أدب الرسائل

الفصل الأول: نشأة الرسالة الموحدية و تطورها:

من الفنون الأدبية التي لاقت رواجا وازدهارا في عهد دولة الموحّدين أدب الرسالة، هذا الأدب الذي استعان به النّاس على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم في التّواصل مع بعضهم البعض، فهي أدب مهمّ، تعود أهمّيتها إلى الاحتفاظ بأسرار الدول وتاريخها وماضيها، ونظر لهذا ارتئينا أن نبحث عن معناها اللغوي والاصطلاحي، ونشأتها وتطوّرها عبر العصور، لنكتشف الدور الذي لعبته في في هذا العهد.

ومن هنا نطرح التساؤلات التالية: ما معنى الرّسالة؟ وما أهمّيتها في المجتمعات؟ وما هي سماتها وخصائصها؟ وكيف كان تطوّرها عبر العصور؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما نودّ البحث عنها في هذا الجزء من البحث، إذ سنعرّف الرسالة، ثم نقف على نشأتها في المبحث الثاني، فشروطها ودورها في المجتمعات، بعدها نذكر أنواعها وغرض كلّ نوع.

المبحث الأوّل: مفهوم الرّسالة:

لغة:

لفظ الرسالة باشتقاقاته المختلفة ألفيناه قد ورد في الكتاب الحكيم في أكثر من آية، من ذلك قوله تعالى:ٍ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنهُم وَقَالَ يَاقَومِ لَقَد أَبلَغتُكُم رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحتُ لَكُمولَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.[1]وقوله سبحانه:﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰ إِنِّي اصطَفَيتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي

[1]- سورة الأعراف، الآية رقم 79.

وَبِكَلٰمِي فَخُذ مَا آتَيتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1]. وإذا ما تتبعنى معناها في هذين الاقتباسين نجدها قد دلّت على الإبلاغ والإخبار، وهي نفس الدلالة التي دلّت عليها في قوله جل شأنه:﴿ ياأيّها ٱلرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إليك مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّم تفعل فَمَا بلّغت رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يعصمك مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لا يهدي القوم الكَٰفِرِينَ﴾[2]. وبهذا يمكننا أن نستشفّ بأنّ مصطلح الرسالة في الكتاب الحكيم جاء بمعنى التواصل والإبلاغ والبعث، وهي بهذا تعتبر آلية من آليات التواصل، ووسيلة من وسائل التعبير عن أمور الناس وشؤونهم الخاصّة والعامة.

والرسالة عند أبي نصر الجوهري (ت728هـ) من: "راسَله ماسَلة فهو مُرَاسِل ورَسِيل، وأرسَله في رِسالة فهو مُرسَل ورَسولُ، والجمع رُسْلٌ، بتسكين السّين وضمّها والرَّسُول أيضا والرِّسالة"[3]وهي إذن مشتقّة من لفظة "الرسول" ذاك الشخص الذي يعنى بتوزيع الأخبار والمعلومات بين أفراد المجتمع.

وفي لسان العرب اشتقتمن "استرسل الشيءُ: سَلس. وناقة رَسْلة: سهلة السير...واسترسل الشعر أي صار سَبْطًا...والتَّرسُّل من الرِّسْل في الأمور والمنطق كالتّمهُّل والتوقُّر...وجمع الرِّسالة الرَّسائل. قال ابن جنْبة: التَّرسُّل في الكلام التَّوقُّر والتفهمُ والترفق من غيرأن يرفع صوته شديدًا...والإرْسال: التوجيه، وقد أَرْسَل إليه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة

[1]- سورة الأعراف، الآية رقم 144.

[2]- سورة المائدة، الآية رقم 67.

[3] - أحمد عبد العزيز الجوهري، معجم الصّحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مطبعة بولاق، مصر، ط2، 1957، حرف الرّاء، ص101.

والرَّسُول والرَّسِيل"[1]والرسالة بهذا التعريف الدقيقتطلق على السلاسة في القول والانبعاث في الحديث دون توقفمما يعني طلاقة اللسان وفصاحته.

أمّا في مقاييس اللغة فنجدها تحمل نفس المعنى الذي جاء في لسان العرب، فيقول: "رَسَلَ: الراء والسين واللام أصلٌ واحدٌ مطّردٌ مُنْقاس، يدلّ على الانبعاث والامتداد. فالرَّسل: السّير السهل"[2]نستشفّ من خلال هذا النّص المقتبس بأنّ معنى الرسالة في المقاييس، يتطابق ومعناها عند صاحب اللّسان، ذلك أنّ لسان العرب يعتبر من أوّل المعاجم التي اهتمت بضبط التعاريف اللغوية للمصطلحات، فاطّلع عليه جلّ العلماء الذين جاؤوا بعده، من هنا لم يبتعد ابن فارس عن معنى أستاذه.

وإذا ذهبنا إلى قدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد النثر نجدهيعرّف الرسالة لغة بقوله: "والتّرسّل من ترسّلت أترسّلُ ترسُّلاً وأنا مترسّلٌ،... ولا يقال ذلك إلّا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرّر،... وراسل يُراسل مراسلة فهو مُراسلٌ، وذلك إذا كان هم ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة. وأصل الاشتقاق في ذلك أنّه كلامٌ يُراسَلُ به من بَعُدَ أو غاب"[3] وبهذا

[1] – ابن منظور ، لسان العرب، تح: عَامر أحمد حَيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009، محتوى "ل"، ج11، ص338.

[2] – أبو الحسين أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تح: ابراهيم شمس الدّن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص463.

[3] – قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: طه حسين وعبد الحميد العبادي، مطبعة الكتب المصريّة، القاهرة، مصر، ط15، ص84.

فإنّه يضع للرسالة شروطا ضرورية ليصطلح عليها بهذا اللفظ ألا وهما المرسل والمرسل إليه، فغياب أحدهما يستلزم غياب الآخر، وهذا ما يجعلها تفقد خصائصها التواصليّة والإبلاغية الحواريّة.

وجملة ما نخرج به من هذا الجزء من البحث أنّ الرسالة:

-مصطلح مشتقّ من الجذر الصرفي رسل، وما يترتّب عنها من مصادر منها الرّسول والاسترسال، والمرسل وغيرها من الألفاظ التي تجتمع معا لتدلّ علىالاتّصال ونقل الأخبار بين كلّ من المرسل والمرسل إليه.

ب. اصطلاحا:

إذا ما ذهبنا للبحث في المعنى الاصطلاحي للرسالة، نجده مصطلحا قديما عرفه العرب واشتغلوا عليه فمعنى التراسل "قديم في آداب الأمم، وقد عُني به العرب عناية خاصّة، منذ أقدم العصور حتى اليوم. فنوّعوا أغراضه، وحدّدوا مناهجه، وميّزوا أنواعه، واستخلصوا قواعده وأصوله"[1] يرتبط مصطلح الرسالة بمجموعة من الوظائف والدلالات من مثيل أنّها "كلام يراسل به من بعيد، فاشتقّ له اسم التَّرسّل والرّسالة من ذلك"[2]فالدلالة المرتبطة بالرسالة من خلال عبارة" كلام يراسل به من بعيد" هي أنّها: أدب يفرض على مستعمله أن يحوز على أمرين هامّين هما: المضمون أي الفكرة أو الموضوع أو الغرض، والأطراف المتحاورة من مرسل ومرسل إليه، أمّا الوظيفة المرتبطة بها من خلال هذا الجزء من الحديث وظيفة الإرسال والتواصل.

والرسالة بعبارة أخرى تعني "ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبّرا فيه عن شؤون خاصة أو عامّة، وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدّى سطورا محدودة، وينطلق فيها الكاتب على سجيته، بلا تصنّع أو تأنّق. وقد يتوخى هنا البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع"[3].

[1] – إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصّل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987، مج1، ص381.

[2] – ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مكتبة العاني، بغداد، العراق، د ط، 1967، ص193.

[3] – جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص122.

إن أدب الرسائل من أهمّ الفنون الأدبية والخطابات النثرية التي عرفها العرب منذ عصر التدوين، كونها كانت كثيرا ما تتبادل بين الأدباء والأحبة في مناسبات معيّنة، أو بغير مناسبة "يتخذون منها وسيلة لإبداء البراعة التي تنخل المفردات وتخيّر العبارات، و إبداء ما لديهم من مهارة بيانية واطلاع على أسرار اللغة العربية وغريبها"[1].

وهي وريقات قليلة تترجم الواقع وأحداثه، كونها قطعة نثرية محدودة الطول والموضوع، تتعدّد أساليبها وتختلف أغراضها من كاتب لآخر، تبعا لتنوّع الأحداث و اختلافها، فنجد منها؛ الديوانية، والإخوانية، والأدبية الوصفية.

أدب الرسالة أدب مهمّ، ترجع أهمّيته إلى ما يحمله في طيّاته، من أساليب وأدوات حجاجيّة هامّة، زاوجت بين البلاغة الشّيّقة، والأسلوب اللغوي الراقي، فهي وثيقة هامّة وجب على صاحبها أن يُعمل فيها عقله وفكره، حتّى يصل بها إلى غاياته المنشودة منها، من مثيل تحقيق الإمتاع والإقناع للمتلقين، فهي بلسان محمّد نبية حجاب كلّ "ما ينشئه الكاتب إلى غيره، لغرض من الأغراض، فتشتمل الخطاب كما تشتمل الجواب ومنه التوقيع،وتشمل أيضا المقالات الإنشائية كوصف الصديق لابن المقفّع والكتاب للجاحظ، كما تشمل المناظرات الأدبية."[2]

[1] – ريم صالح الغامدي، توظيف الشعر الجاهلي في الرسائل الديوانية والإخوانية الأندلسية في القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير، تخصص أدب عربي قديم، جامعة أم القرى، السعودية، 2008، ص51.

[2] – حجاب محمّد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، دراسة تحليلية نقدية لتطوّر الأساليب، مكتبة الطالب الجامعي، الكويت، ط2، 1986، ص95.

نستشفّ من خلال هذا النّص، أنّ الرسالة فنّ يقتضي توافر طرفين أساسيين هما المرسل والمرسل إليه، على أن يربط بينهما ذلك السرد الحواري الذي ينتج من نصّ الرسالة.

والرسالة بعبارة أخرى"القطعة النثرية التي يدبجها الكاتب في نسق فنّي جميل في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر"[1]، وإذا انتقلنا إلى الأدب الأندلسي نجد الأدباء يطلقون لفظ الكتاب عليها، والذي يطلق بدوره على "الصحيفة والدّواةُ،...فالكتاب ما يُكتَبُ فيه"[2] نفهم من خلال هذا أنّ مصطلح الرسالة يرتبط بالخطاب المنطوق أو المكتوب على سواء، في حين أنّ الكتاب يطلق على الخطاب المكتوب فقط.

والكتاب و الرسالة شيء واحد فكلاهما من ألوان النثر الفني الجميل، وضرب من أضربه التي تنهال على قريحة صاحبها انهيالا، فهي في الأدب القديم قصيدة محلولة متحرّرة من قيود الوزن والقافية، يسترسل فيها صاحبها استرسالا محترما قواعد البلاغة وشروطها[3]، متصرفا فيما يقول أحسن تصرّف.

أمّا صاحب كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب، نجده قد رجع في تعريفه للكتابة إلى أصل المصطلح وطريقة الرجوع إلى الأصل في التعريف بالمصطلحات وذكر مفاهيمها، طريقة

[1] – فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1989، ص83.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص506.

[3] –ينظر: ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص12.

اتّبعها أصحاب المنهج التاريخي، والنويري قد اعتمد على هذا المنهج، وفي هذا يقول أصل الكتابة مشتق من الكُتب وهو الجمع، ومنه سمّي الكتاب كتابًا، لأنّه يجمع الحروف، وسمّيت الكتيبة كتيبةً، لأنّها تجمع الجيش"[1]، ويضيف قائلا "ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام: وهي كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان والتّصرّف، وكتابة الحكم والشروط، وكتابة النّسخ، وكتابة التعليم"[2] وبهذا فالكتابة تعني كلّ حرفة يتقنها الأديب، فهي علم يقوم على شروط وأدوات مهنّة أوّلها الألفاظ والمفردات، ثم الصورة التي تجمع لنا هذه الألفاظ وهو ما يسمّى بالأسلوب، والجمال الفنّي، وهذا العنصر من أهمّ العناصر الواجب توافرها في الكتابة بفروعها المتنوّعة.

المبحث الثاني: نشأة أدب الرسائل:

يعدّ فنّ الرسالة من الفنون القديمة العريقة، بدأت في النّمو والتّطوّر شيئا فشيئا، ولنكتشف هذا الأمر وجب علينا أن نتعرّف على حالتها عبر مختلف الأزمنة والعصور، حتّى نستطيع تكوين رؤية وفكرة بيّنة عن هذا الفن.

- **في العصر الجاهلي:**

لم يعرف فنّ الرسالة في العصر الجاهلي تطوّرا وبروزا، مثل ما عرفه الشعر، وهذا راجع إلى عدم انشغالهم به لتنافسهم في قول الشعر، أو لانشغالهم بالحروب والفتن التي كانت

[1] – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج7، ص3.

[2] – المصدر نفسه ص5.

سرعان ما تنتشر لأتفه الأسباب، إضافة إلى حرصهم على تجارتهم وأعمالهم وأرباحهم، أو لقلّة استعمال الكتابة أو انعدام وسائلها، وهذا كلّه جعلهم يغفلون هذا الفنّ الجميل.

وهذا لا يعني أنّهم لم يتداولوا على الإطلاق الرسالة فيما بينهم "وإنّما هناك رسائل كانت تُرسل إلى الملوك لتبادل الهدايا، وكانت هذه الرسائل تتمحور حول طلب العون والنصرة ضد عدو يتهدّدهم ككتاب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصي بامرئ القيس الشاعر ليساعده في الوصول إلى قيصر الروم وكتاب قصي بن كلاب إلى أخيه وراح بن ربيعة بن حرام العذري يدعوه إلى نصرته"[1]، لكنّنا لا نعثر على وثائق "جاهلية صحيحة تدلّ على أنّ الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنّهم لم يعرفوا الكتابة فقد عرفوها، غير أنّ صعوبة وسائلهم جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية"[2] أو بالأحرى فإنّ العصر الجاهلي لم يُدوّن نثره ولم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوّه من الوزن[3]، فالمشكلة الكبرى كانت تكمن في عدم الاحتفاظ بما قيل في تلك الفترة، لأنّ هذا العصر كانت تغلب عليه المشافهة لا التدوين، وهذا الكلام لا يعني عدم وجود فنون النثر جملة وتفصيلا في هذا العصر بل وجد فنّ الخطابة وسجع الكهّان والأمثال والحكم.

[1] – فاطمة دخية، فنّ الرسائل في الأدب الجزائري القديم، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، الجزائر، ع10، 2017، ص165.

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي–، دار المعارف،القاهرة، مصر، ط11، ص398.

[3] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1953، ص26.

- **في العصر الإسلامي:**

حاول المسلمون في عصر صدر الإسلام بناء دولتهم على أسس متينة ليضمنوا لها الاستقرار وعدم الاهتزاز والاضمحلال أمام الدول الأخرى، وكان لزامًا عليهم أن يتواصلوا مع بعضهم ويأثروا في نفوس الأجناس الأخرى، باستعمال فنون النثر المختلفة، وعلى رأس هذه الفنون أدب الرسالة.

إنّ أدب الرسالة في هذا العصر قد تطوّر وعرف نشاطا كبيرا، إذ غلب عليها الطابع الديني لاعتماد الكتاب والخلفاء عليها في الفتوحات الإسلامية، فقد تميّز أسلوبها بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، لتدعيم آرائهم وحججهم "فقد كتب النبي رسائل، وكتب الخلفاء من بعده ولكن هذه الرسائل التي كانت تكتب كانت مختصرة لا يقصد منها إلّا مجرد الأداء، في غير تفنن أو إثارة لجمال فنّي خاص. ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة، جملها صغيرة توشك أن تكون رموزا، ليس فيها هذا التفصيل أو المحاولات الفنّية التي نجدها عند الشعرا، من حيث الألفاظ"[1].

ولعلّ من أسباب انتشار الكتابة في هذا العصر "جعل النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يكون فداء من يعرف الكتابة أن يعلم عشرة من صبيان المدينة، وكان هذا سبب انتشار الكتابة في صفوف المسلمين ومن بين الصحابة الذين كانوا يعرفون الكتابة،...زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام"[2]، وقد اختلف

[1] – طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ص26.

[2] – ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، أطروحة ماجستير في الأدب العربي، ص36.

المؤرّخون والنّقاد في عدّ كتبة الرسول صلى الله عليه وسلّم، فمنهم "من قال، أنّهم خمسة وعشرون، ومنهم من قال أنّهم ثلاثة وأربعون، ومنهم من جعلهم خمسة وأربعين كاتبا"[1] ومع وجود هذا الكمّ الهائل للكتاب في هذا العهد، تطوّر فنّ الرسالة وأصبح له من السّمات ما يميّزه عن غيره.

لقد كانت الرسالة الإسلامية تدور حول المعاني الدينية كحثّ الناس على الصلاة والصيام والإيمان بوحدانية الله عزّ وجل، فكان يستعينون بها بغية الإقناع والتأثير في النّاس من خلال نصحهم وإرشادهم، وتقديم لهم الأدلّة الدامغة المستنبطة من الكتاب والسّنة، وهي بهذا كانت من الفنون النثريّة التي ساعدت المسلمين في نشر دعوتهم الإسلاميّة، فقد "نافس الكاتب الشّاعر والخطيب وأصبح له منزلة خاصّة"[2]، ومن الأدلّة على ما نقول تلك الرسالة الوعظيّة التي بعث بها الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى ملك الحبشة النجاشي، جاء فيها: "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنتَ، فإنّي أحمد إليك الله الذي لاإله إلّا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن...وإنّي أدعوك إلى الله وحْده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإنّي أنا رسول

[1] – حسين نصار، نشأة الكتابة الفنّية في الأدب العربي، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1954، ص43.

[2] – حسين نصار، نشأة الكتابة الفنّية في الأدب العربي، ص74

الله، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي، والسّلام على من اتّبع الهدى."[1]

والملاحظ على هذا الكتاب، لغته السّهلة المفهومة، ذات المعاني الدّينيّة فيها معاملة حسنة "راقية للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، والتي عامل بها الصّغير والكبير، الرّاعي والمرعيّ، النساء والرّجال، العبيد والأحْرار، فالدين المعاملة قبل كلّ شيء"[2] لقد كانت الرسالة الإسلامية تمتاز بخصائص تميّزها عن غيرها من الرسائل، فقد كانت ذات هدف تربوي وعظي، قبل أن يكون همّ صاحبها التزويق، كما أنّ لغتها كانت لغة مفهومة واضحة المعاني، بينما بناءها فقد كان يلتزم فيه ذكر المرسل والمرسل إليه، مع ضرورة حمد الله ودعائه، وهذا رغبة منهم في بسط البركة في أعمالهم وأقوالهم.

ومن الرسائل الإخوانيّة* المكتوبة في هذا العصر تلك الرسالة التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى معاذ بن جبل** يعزيه لموت ابنه يقول فيها: "بسم الله الرحمن

[1] – ابن قيّم الجوزية، زاد المعاذ في هدى خير العباد، تح: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 1998، ج3، ص601-602.

[2] – ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، ص74.

* لنا قولٌ في معناها في الصفحات القليلة القادمة من هذا البحث.

** "معاذ بن جبل صحابي، وفقيه، وقارئ القرآن الكريم، وراوي للحديث النبوي الشريف، من الأنصار من بني أدّى من بني جشم بن الخزرج، أسلم وهو ابن 18 سنة، وشهد بيعة العقبة الثانية، ثم شهد مع النبي محمد المشاهد كلها، واستبقاه في مكة بعد فتحها ليُعلّم الناس القرآن ويفقههم، ثم بعثه عاملاً له في اليمن بعد غزوة تبوك" أبو حفص عمر

الرحيم. من محمّد رسول الله إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلّا هو، أمّا بعدُ: فعظّم الله لكَ الأجر، وألهمك الصّبر، ورزقنا وإيّاك الشُّكر، إنّ أنفسنا وأهلينا وأموالنا وأولادنا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، يمتّعُ بها إلى أجل معلوم، ويقبضُ لوقتٍ محدودٍ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصّبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودَعةِ، متَّعكَ به غِبطةٍ وسرور..."[1]

لقد جاءت هذه الرسالة في أحلى صورها، دقيقة موجزة، فهي ذات أسلوب سلس بعيد عن التكلّف والتعقيد، راق، مشوّق، غلب عليها الحجاج والإقناع، وهذا من خلال ما استعمال الرسول –صلّى الله عليه وسلّم –كلّ ما أوتي له من معان دينية وحكم قيّمة.

- **في العصر الأموي:**

وفي العصر الأموي نما فن الرسالة نموا مسرعا وأصبح يفيض الإبداع فيها كالبحر، وهذا لحاجة الملوك والخلفاء بها،لأنّ أمصار هذه الدولة قد اتّسعت، فكانت الحاجة إلى التواصل ملحّة، وقد سعى ثلة من رجال الفكر إلى تطويرها.

الفاسي ومحمد التاودي بن سودة، إحكام أحكام الزّكاة للحكام وما ينتظم منه بيت المال، تح: نور الدين بن محمد لرجى، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص128.

[1] – أبو نعيم أحمد بن محمّد الأصفهانيُّ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص212.

ومن مظاهر تطوّر هذا الفن في العصر الأموي نذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان[1] "أنشأ ديوانين هما ديوان الرسائل التي كانت تصدر عنه رسائل تفيض بيانا، وينضرها جمال الأسلوب وسحر البلاغة، وديوان الخاتم: ومهمّته أن يرسل إليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوما لا يدري حامله ما فيه ولا يستطيع أن يغيّره"[2]، فالرسائل في هذا العصر كانت بسيطة تتناول مواضيع سياسية وفلسفية ودينية تصدر عن خلفاء وأمراء هذه الدولة.

ومن الشواهد النثرية التي نستشهد بها في هذا العصر تلك الرسالة التي كتبها الحسن البصري[3] لعمر بن عبد العزيز[4]، حينما طلب منه هذا الأخير أن يبسط له القول في وصف

[1] –أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي،سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها(ينظر: أبو الفضل بن الطاهر المقدسي، مُسند الخُجَّة على تارك المحجّة، تح: محمد العزازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص171).

[2]– سعد أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص295-296.

[3] – الحسن بن يسار البصري إمام وقاضي ومحدّث من علماء التابعين ومن أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام. سكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ولا يخاف في الحق لومة لائم (ينظر: أبو الفرج بن الجوزي، آداب الحسن البصري، تح: أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص2-3-4).

[4] –أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، هو ثامن الخلفاء الأمويين، عمر الثاني. ولد سنة 61 هـ في المدينة المنورة، ونشأ فيها عند أخواله من آل عمر بن الخطاب، فتأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة، وكان شديد الإقبال على طلب العلم (ينظر: القزويني، سراج العقول في منهاج الأصول، تح: عبد المولى هاجل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 190).

أمر الآخرة[1]، فقال له ما نصّه: "إنّما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط ونحن في أضغاث أحلام، من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضلّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك، واعلم أنّ أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه."[2]

الملاحظ على هذه الرسالة، قصر العبارة، ودقّة التعبير، وسهولة اللغة، فهي رسالة يغلب عليها التوجيه والنّصح والإرشاد، استعان فيها صاحبها بما أوتي من فنون البديع المختلفة، وما عَلِمه من حكمة في هذه الحياة.

كما يمكننا أن نستنتج من خلال هذه الكتاب أنّ الرسالة الأمويّة قد امتازت بميزات منها: "إثارة خيال للسامع باستخدام المجازات اللغوية، مع الإكثار من الألفاظ القوية البالغة التأثير ودقة التعبير، وصفائه وخلوصه من شوب اللكنة والعجمة واللحن إلّا قليلا، ونراه أيضا يترك الالتزام بالسجع، ويأخذ بأساليب القرآن الكريم والحديث الشريف لما فيهما من قوة وبلاغة وبيان"[3].

[1] -ينظر: ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، ص43.

[2] – ابن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، د ت، ج3، ص 96.

[3]- فيصل حسين العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، أطروحة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2001، ص40.

وظهر في الرسالة الأمويّة الطابع الشخصي الذاتي، فأصبح كاتبها يحاول إبراز ذاته من خلال ما يكتب، وهذا نوع من التحرّر من عملية إملاء الخليفة على الكاتب، التي كانت شائعة من قبل، حيث يروى أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم كان يملي على كتّابه ما يريد قوله، فكانت أساليبهم تكاد تتشابه يغيب فيها الطابع الفردي الذاتي[1] ويعدّ هذا الأمر وسيلة من الوسائل الهامّة التي ساعدت في تثوير الرسالة في هذا العصر، حيث كان كلّ كاتب يحاول الإبداع والتميّز عن غيره، وكلّها محاولات صبّت في نهر التطوّر والتجديد.

ومن الأسباب المهمّة الأخرى التي ساهمت في تطوير أدب الرسالة في العصر الأموي تعريب "الدواوين الموجودة في فارس والشام، وفي عهد الوليد بن عبد الملك عربت دواوين مصر، فامتلأت بالعرب وبمن أجادوا العربية"[2].

- **في العصر العباسي الأوّل والثاني:**

سقط لواء الدولة الأمويّة وسيطر بنو العبّاس على زمام الخلافة العربية، فأصبحت الدولة ترتقي نحو الأحسن، فشهد الناس الحضارة وترف الحياة وبذخها، من هنا كانت الحاجة إلى الكتابة ملحة، فشهد فن الرسائل تطوّرا ملحوظا عكس العصرين السابقين فاتسعت موضوعاته، وهذا راجع إلى مجموعة من العوامل؛ على رأسها احتكاك الحضارة العربية بغيرها من الحضارات الأجنبية الفارسية واليونانية، إضافة إلى كثرة المصنفات واهتمام

[1] – ينظر: فيصل حسين العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، ص22.

[2]- المرجع نفسه ، ص40.

الخلفاء بالكتاب وإنشاء الدواوين، فنهض الأدباء بهذا الفنّ وحملوا مشعل التغيير والارتقاء به، وأبرزوا معالمه، من ذلك نذكر "ابن المقفّع في سهولته و ترسّله، والجاحظ في رصف جماله وكثرة ترادفه وبديع استطراده، وعمق غوصه، وإفاضته في التقصي"[1].

وراح جرجي زيدان يصف تطوّر هذا الأدب في العصر العباسي بقوله: إنّ الحضارة "قد تمكّنت من أسلوب الترّسّل في هذا العصر"[2] فكان "عبد الحميد* وابن المقفع في العصر العباسي الأول والجاحظ** في العصر العباسي الثاني.

[1] – بن عبد الحفيظ رونق ومحدوب هالة، بنية الرسائل في العصر العباسي الدرة اليتيمة لابن المقفع أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، 2017/2016، ص23، نقلا عن: ابراهيم علي أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص 193.

[2] – جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، مصر، ط3، دت، ج2، ص265.

* - عبد الحميد بن يحي مولى العلاء بن وهب القرشي، من أعلام الكتاب في القرن الثاني للهجرة، فارسي الأصل عربي الولاء، قامة من قامات أدب الرسائل العربي، موسوعي الفكر، فصيح اللسان بليغ القلم، حسن الخط (ينظر: وفاء تقي الدين، كتاب النصوص المختارة مع تطبيقات وتحليلات لغوية نقدية متنوعة، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، دط، 2004، ص202).

** أبو عُثْمان عُمَرُو بن بَحر بن مَحْبُوبٌ بن فَزارَة اللَّيْثِيّ الْكِنَانِيّ الْبَصَرِيّ المعروف بالْجَاحِظ أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها (للمزيد ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، تح: حسن السندوبي، دار هنداوي، ط2، 2004، ص05).

وأمّا إمَام الإنشاء في هذا العصر فهو ابن العميد***"[1] وبهذا النّص نفهم أنّ أدب الرسائل في هذا العصر تطوّر على أيدي العديد من الكُتاب من أمثال؛ ابن العميد، وأحمد بن يوسف الكاتب، والجاحظ وغيرهم الكثير، ممّن عمل على تطويره وازدهاره من خلال كتاباتهم المتعدّدة.

نضج أدب الرسالة على أيدي هؤلاء فصارت له سمات ومميّزات تميّزه عن غيره من الفنون الأدبيّة في مختلف العصور، كاعتمادهم الصّنعة اللفظية من سجع وجناس وغيرهما من المحسّنات البديعية المعروفة، إضافة إلى تضمينهم المثل والحكمة والأشعار في كتاباتهم، حتى صارت رسائلهم مثالا يتّبع للإنشاء في العصور المتأخّرة.

ومن نماذج الرسائل العباسيّة، الكتاب الذي بعثه أبو الفضل بن العميد إلى عبد الله الطبري: "كتابي هذا وأنا بحال، لو لم ينفضّ منها الشّوق إليك، ولم يُرنِّقْ صفوها النزوع نحوَكَ، تعدّتها الأحوال الجميلة، وأعددت حظّي منها في النّعم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامّة ونعمة تامّة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعي بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك، وبخلوّ ذرعي مع خلوّي منك، ولم يسوّغ لي مطعم ولا مشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم شمل أنسي،

*** ابن العميد هو الكاتب محمد بن الحسين بن محمد أبو الفضل بن أبي عبد الله المعروف بابن العميد، نشأ على الأدب ودربه على الكتابة فبرع في الإنشاء والترسل (ينظر: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج2، ص282).

[1]- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج2، ص 266.

وقد حرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس مشبّعة ذات انقسام..."[1]نستشفّ من هذا النّص بعض من مميّزات الرسالة على العهد العباسي، فقد جاءت منمّقة موشّاة بفنون البديع المختلفة، منها السجعات القصيرة،كما جاءت رسائلهم بلغة دقيقة معبّرة عن المعاني المرغوب التعبير عنها "فهذه بعض من نماذج النّثر العبّاسي التي تطوّرت في البداية مع تدفّق الثّقافات الأجنبيّة، كثقافة اليونان والهند والفرس، فكان على العربية وأدبائها أن يستوعبوا هذا، فتمكّنوا من حمل الفلسفة والعلوم في يسر وسلاسة وبلاغة، فأدّى كلّ ذلك إلى تطوّر النّثر وأساليبه في المرحلة الأولى، ثمّ سرى هذا التطوّر إلى الضّعف والانحلال وذلك لشغف الكُتّاب بتزيين اللفظ وتجميله بالسّجع، وتحلّيه بالبديع"[2].

- **نشأته عند الأندلسيين:**

اهتمّ علماء الدولة الأندلسية كغيرهم من العلماء بفنون النثر المعروفة، وعلى رأسها أدب الرسالة، يعود هذا الاهتمام بهذا الفنّ إلى ضرورته القصوى[3] في التواصل وبفعل هذا "تدفّق النّثر الأدبي معبّرا عن كافّة المآسي التي لحقت ببلاد الأندلس، وعالجت الرسائل الوصفيّة موضوعات مختلفة في الطبيعة وركوب الخيل ووصفه، كذلك مثّلت الرسائل النقديّة

[1] – مناع هاشم صالح، النثر في العصر العباسي وأشهر أعلامه، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دط، 1999، ص125.

[2] – ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، ص48.

[3] – فهد مفتاح يعيش الفهمي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتّى نهاية القرن السادس الهجري، ماجستير في الأدب والبلاغة، السعوديّة، 2015، ص5.

جزءا هامّا من النثر الأدبي في الأندلس، وكان لخصائصه اختلافٌ في وضعه بحكم الزّمان والمكان طيلة العصر الأندلسي"[1] حتى عصر الموحّدين ، والذي تلوّنت فيه الرسائل وتزيّنت بأشكال وأساليب ومناهج خاصّة، كغلبة التّيار الدينيّ عليها.

إنّ الذي دفع الأندلسيون إلى الاعتناء بهذا الأدب، كونهم كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة، وكانوا متمكّنين من فني المنظوم والمنثور كلّ التمكّن[2].

فلا غرو إن قلنا بأنّ ذلك التوسّع الجغرافي والإداري والسياسي والاجتماعي للأندلس كان من أكثر الدوافع لارتقاء هذا الأدب، كونه وسيلة تواصل بالدرجة الأولى، فقد عزم ولاة الأندلس وخلفاؤها منذ القرن الثاني على اتخاذ كتّابا يكتبون لهم رسائلهم[3]، هذا حتى تخرج نصوصهم في ثوب فني جميل.

لقد بدأ الأندلسيّون الاهتمام بهذا الفنّ منذ القرن الثاني، لكن زاد اهتمامهم به في القرن الخامس والسادس وحتى السابع، فقد تفرّعت فنون وأغراض هذا الأدب في هذه العصور المذكورة، هذا عائد إلى تطوّر الحياة في الأندلس، فقد شهدت العديد من الأحداث السياسية منها " تجزؤ البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة، وما نجم عن ذلك من مشاحنات وخصومات بين ملوكها، وما كان من نشوب الحروب الداخلية، واشتعال الفتن، وسياسة

[1]- فهد مفتاح يعيش الفهمي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتّى نهاية القرن السادس الهجري، ص 5.

[2] - ينظر: ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص14.

[3]- ينظر: المقري، نفح الطيب، ج2، ص40-41.

البطش والإرهاب التي انتهجها بعض ملوك الطوائف مع رعاياهم، إضافة إلى انقسام الأمة واختلاف كلماتها"[1].

ومن العلماء الأندلسيون الذين كتبوا في الرسالة على اختلاف أقسامها وفي مختلف العصور الأندلسيّة؛ ابن زيدون*، ابن أبي الخصال**، ابن الخطيب***، ابن عميرة المخزومي أبو الحسن بن العياش****، وابن شهيد***** وغيرهم الكثير.

فقد كان الأندلسيّون يتسابقون نحو الكتابة رغبة منهم وطمعا في المنزلة السّنّية والمكانة العلّية عند الخليفة، أو الحاكم، وقد كانوا يعتمدون في نسجهم على نماذج مشرقيّة فتارة

[1] – فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص143.

* أبو الوليد أحمد بن الله بن زيدون المخزومي، كاتب وشاعر أندلسي، ولد بقرطبة سنة 394هـ، توفى سنة 463هـ، كان يتقن علوما عديدة منها: اللغة والأدب والتفسير والفقه والحديث والتاريخ والمنطق (ينظر: عبد المجيد الحُر، ابن زيدون شاعر العشق والحنين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1992، ج6، 58).

** ابن أبي الخصال محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن أبي الخصال خلصة الغافقي (ينظر: شهاب الدين أحمد بن يحي، مسالك الأبصار في مَمالكِ الأمصارِ، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، د ت، ج18، ص13).

*** لسان الدين بن الخطيب، ولد سنة 713هـ، وتوفى سنة 776هـ، أديب أندلسي عالم، محدث فقيه (ينظر: بوفلاقة محمد سيف إسلام، جهود علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم ابن الخطيب وكتاب الإحاطة أنموذجا، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2014، ص128).

**** لنا في حضرتهما تفصيل في القول في الملحق.

***** – هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي القرطبي، أديب أندلسي وشاعر فقيه، ولد سنة 382هـ وتوفى سنة 426هـ (ينظر: محمّد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، 2000، ص244).

يبدعون أفضل منها، وتارة يحاكونها وتكون كتاباتهم مشابهة في الأسلوب للمشارقة فقد "كان النثر في الأندلس يقتفي أثر قرينه المشرق وينسج على منواله ويسير على نهجه ويجري في مضماره، وكان في الأندلس كما كان في المشرق عدد كبير من الكتاب المجيدين الذين رق أسلوبهم وراق نهجهم وأمسكوا من الكتابة بخير زمام وملكوا منها ناحية الإتقان وضروب البيان، غير أنّ الذي يدعو إلى الدّهشة هو أن كبار كتّاب الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين من أمثال ابن زيدون وابن شهيد وابن حزم وأبي حفص بن برد وابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم"[1].

ومن أشهر الرسائل الأندلسيّة التي يمكننا أن نستشهد بهذا والت لاقت رواجا وشهرة واسعة رسالة "شجرة الفكاهة" أو كما سمّيت ب رسالة "التوابع والزوابع" لابن شهيد الأندلسي، وهي رسالة خاطب بها صديقه ابن حزم[2]، رسالة تسرد رحلة خياليّة إلى عالم الجنّ، وفي جزء منها يقول: "قال لي زُهير بن نمير: ومن تُريد بعد؟ قلت له: خاتمة القوم صاحبَ أبي الطّيب! فقال: اشدد له حَيازيمك، وعطّر له نسيمك، وانثر عليه مجومك. وأمال عنان الأدهم إلى طريقٍ، فجعل يركضُ بنا، وزهير يتأمّل آثارَ فرسٍ لَمحناها هناك، فقلت له:

[1] – مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1979، ص569.

[2] – هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي، ولد بقرطبة سنة 384هـ.(ينظر: ياسر محمد ياسين البَدري الحسَيْني، أقمارُ في سماء الأندلسيين ابن حزم الظاهري الأندلسي سيرته مذهبُهُ شُيوخه وتلاميذُهُ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، دط، د ت، ص50).

ما تتبُعُكَ لهذه الآثار؟ فقال: هي آثارُ فرسِ حارِثةَ بن المغَلَس صاحب أبي الطّيب، وهو صاحبُ قَنْص..."[1] هي رسالة تعبّر عن شخصيّة صاحبها الأديب الكموح الذكي الفطن، أسلوبه راق يضاهي أساليب أكبر الكتّاب في عصره وحتى قبله.

- **في العصر الحديث:**

إذا ما أمعن الدّارس النظر في هذا العصر، نجده عصر التجديد والتغيير في مختلف الميادين والمجالات، وهذا الأمر ينطبق على فنون النثر العربي المعروفة منها فنّ الرسالة، فقد تغيرت تغييرا كلّيا وظهر في تأليفها مدارس ثلاث، مدرسة المحافظين الذين ينظرون في الحفاظ على أساليب القدامى ضرورة وجب على كلّ كاتب أن يعتني بها فـ "رفع لوائها الشيخ ناصيف اليازجي الذي كان همّه بعث اللغة والمحافظة على الأسلوب القديم واتّباع الأساليب التي ظهرت بالعهد العباسي من جودة اللغة وحسن الصياغة والصنعة"[2]، أمّا المدرسة الثانية هي مدرسة التجديد والإبداع، مدرسة بدأت مع "أحمد فارس الشدياق كما يقول حنّا الفاخوري، والذي تبنّى المعاني والأساليب الجديدة في الأدب من تحوّله في الآفاق العامّة وفي البلاد الأوروبية...وراح يعالج الكتابة الصحفية بأسلوب جديد وحديث ثمّ تَبِعه...خليل

[1]- ابن بسّام الشَنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: سالم مصطفى الردري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص163.

[2]- محمد نذير الأشهب، فنّ التّرسل الأسبقية الغربية والإبداع العربي، مجلّة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة حمّة لخضر الوادي، مج13، ع1، 2021، ص564.

خوري صاحب حديقة الأخبار وسليم البستاني صاحب الجنان، وأصحاب المقتطف والهلال والمترجمون الذين نقلوا آثار الغربيين أو اقتبسوا منهم الأساليب."[1]

كما نجم بين هتين المدرستين مدرسة معتدلة، وقفة موقفا وسطا فلم تضيّع آثار القدماء وحافظت عليها، كما حاول أعلامه "الشيخ محمد عبده والشيخ ابراهيم اليازجي"[2]التجديد في كتاباتهم، دون إغفال أساليب شيوخهم وشروطهم التي وضعوها وسنّوها من قبلُ.

إنّ النثر في العصر الحديث بفنونه المختلفة، نزع "نزعات مختلفة منها النزعة الأدبيّة في التّرسُّل والقصص والأبحاث مع الشيخين ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم، ومع أحمد فارس الشدياق وجرجي زيدان وسليمان البستاني وأضرابهم، ومنها النزعة الاجتماعية في إصلاح مفاسد المجتمع، وتحرير المرأة، وتعليم الأحداث، مع قاسم أمين وجبران خليل جبران، ومصطفى المنفلوطي، ووليّ الدّين يكن وغيرهم، ومنها النزعة السياسيّة في تحرير البلاد ومعالجة القضايا الوطنيّة مع امثال مصطفى كامل وسعد زغلول، ومنها النّزعة العلميّة مع يعقوب صرّوف ومن حذا حذوه."[3]

[1] – محمد نذير الأشهب، فنّ التّرسل الأسبقية الغربية والإبداع العربي، ص564.

[2] – المرجع نفسه، ص ن.

[3] – حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص23.

نفهم من خلال هذا النّص بأنّ الأدب نهض في هذا العصر لتوافر مجموعة من الأسباب والدوافع، منها: الاختلاط العربي بالأجانب وكثرت الأسفار بين البلدان العربية والأوروبية، وتعدّد المصنّفات باختلاف لغاتها، وبروز دور العلم بشكل لافت للنظر في كلّ الأقطار والنواحي.

كان هذا عن نشأة أدب الرسالة في العصور الأدبية المعروفة، فما هي شروط كاتبها؟ وما هو دورها؟

المبحث الثالث: شروط الكاتب:

عملية الكتابة عمليّة جدّ مهمّة، فهي لا تتأتّى لأي شخص كان، ولا يتولّاها من هو خاوي الوفاض.

فالقدماء قد فصّلوا القول في دستور الكتابة وشروطها الخاصّة، ولعلّ أبرزهم عبد الحميد الكاتب في رسالته التي وجّهها إلى الكتّاب جمع فيها كلّ شاردة وواردة تخصّ هذا الفنّ، ورأى في التزامها ضرورة لكلّ من يرغب في المرتبة العلّية في هذه المهنة.

إذا ما تتبّعنا رسالة عبد الحميد الكاتب، يمكننا أن نصّف النصائح الموجّهة إلى الكاتب إلى قسمين، منها ما له علاقة بالأخلاق فالكاتب "يحتاج من نفسه، ويحتاج من صاحبه الذي يثق به في مهمّات أموره أن يكون حليما في موضع الحِلم، فهيما في موضع الحُكم، ومقدامًا في موضع الإقدام، ومُحْجِما في موضع الإحجام، مُؤثرا للعفاف، والعدل والإنصاف،

كتوما للأسرار، وفيًّا عند الشدائد"[1] وفي هذا يأمر عبد الحميد الكُتّاب بالحلم والصبر والعدل والوفاء، وهذه الأخلاق هي التي تقرّب الكاتب من الخليفة، وتجعل النّاس يتقبلون ما يقول يثقون فيما يكتبه.

ومنها ما يتعلّق بالعلم والمعرفة، فطلب من الكاتب أن يعرف الأشعار صحيحها من غريبها[2]، وأن يحيط بتاريخ العرب والعجم[3]، ويعلم بالحديث[4]، والسّير[5]، وقبل كلّ هذا وجب على الكاتب أن يجيد الخطّ فهو حلية الكتابة[6].

أمّا القلقشندي قد جعل العقل والفطنة والذكاء أوّل الشروط الواجب توفّرها في الكاتب فالعقل "أسُس الفضائل، وأصل المناقب؛ ومن لا عقل له لا انتفاع به، وكلام المرء ورأيُهُ على قدر عقله، فإذا كان تامَّ العقل كامل الرأي، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها"[7]، يضيف القلقشندي إلى هذا الشرط شروط أخرى منها:

---

[1]- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1915، ج1، ص 85.

[2]- ينظر: أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص86.

[3] - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ن.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص86.

[5] - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ن.

[6]- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص ن.

[7]- المصدر نفسه، ج1، ص66.

1. الإسلام؛ فكاتب "الإنشاء من أحوج النّاس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته، والتمثُّل بنواهيه وأوامره ...وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي يَسُدُّ قُوى الكلام، ويُثبت صحّته في الأفهام"[1].

2. البلاغة والفصاحة اللغويّة، فبها يكون الكاتب في أعلى "رُتبة وأسنى منزلة؛ فإنّه لسان السلطان الذي ينطق به، ويده التي بها يكتُب. وربَّ كاتبٍ بليغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتائب، وأعمل القلم فكفاه إعمالَ البِيض القَواضب، وإذا كان جيّد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ، تتأتّى له المعاني الجَزلةُ فيجلوها في الألفاظ السهلة"[2].

3. أن يكون قويّ العزم عالي الهمّة وشريف النفس حسن المظهر، خلوقا أديبا، ذكيّا ورعا معتدلا صحيح الجسم[3].

4. أن يكون عالما بالأحكام الشرعية والفنون الأدبيّة[4].

---

[1]- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص63.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص66.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص67.

[4] - المصدر نفسه، ج1، ص66.

إنّ هذه الشروط ضرورية وجب توافرها في الأديب المترسّل حتّى يصبح إبداعه متقونا فيه جدّة مؤدي للهدف المراد المنشود، وقد اتّفق أغلب النّقاد والدارسين الذين جاؤوا بعد القلقشندي وعبد الحميد على نفس الشروط السالفة الذكر.

المبحث الرابع: دور الترسّل ومكانته في المجتمعات:

من أهمّ الشروط الواجب توفّرها في أي فنّ أدبي هو تحقيقه للأهداف المنشودة، بل ويجب على كلّ فن أدبي أن يحمل رسالة خفيّة أو ظاهرة، يعني يجب أن يكون وراء كلّ فن نثري فكرة تبلّغ إلى المتلقي.

وأدب الرسائل باعتباره فنّا من الفنون النثرية، وجدناه يقوم على مجموعة من الشروط أو كما سمّاها القلقشندي الصنائع الأربعة، وهذه الصنائع هي: المادّة، الآلة، والغرض، والغاية.[1]

أمّا المادّة فهي الألفاظ واليراع، غير أنّ الغرض فيقصد به كيفية رصّ وجمع هذه الكلمات بعضها ببعض وهي "تقييد الألفاظ بالرسوم أوالأشكال الحرفية أو الخطّية المكمّلة لقوّة النطق، والحاصلة فائدته للابعد والأقرب، بالإضافة إلى حفظ صوره"[2].

[1] – ينظر:أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص36.

[2] – طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص70.

أمّا الغاية فهي الهدف المنشود وراء كلّ مكتوب، أي الخلاصة المستنتجة "وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة العائدة في أحوال الخاصّة والعامّة بالفائدة الجسيمة في أمور الدين والدنيا."[1]

تهتمّ الرسائل بالجانب الديني فهي تساهم في الوعظ والنّصح والإرشاد، والتحذير والوعيد، والتوجيه إلى أوامر الله عزّ وجلّ، فالرسالة هي ثمرة الفتوحات الإسلاميّة، وخدمتها لهذا الجانب أمر طبيعي.

إنّ الكتابة الفنّية عموما والرسائل على وجه الخصوص، من المميزات والسمات التي ميّز بها الله عزّ وجلّ الإنسان عن سائر المخلوقات، بها تتأدّى الاغراض في مختلف البلدان ومهما بعدت، وتقضى حاجات الأمم وتُتَمُّ، فهي فن شريف، تساهم في تواصل البشر ببعضهم بعضا.

إنّ الرسائل تعين المؤرّخ في ضبط ما تعذّرت عليه كتب التاريخ من أحدا وتواريخ مهمّة لأيّ بلد، فإنّ "دور الكتابة الخطّية دور مهمّ إذ إنّها الحافظ الأمين للغات البشر كما أنّها الحافظ لعلومهم وتواريخهم."[2]

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص36.

[2] – طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 72.

تساهم الرسالة في حفظ الحقوق، وإطلاع البشر بما يستوجب عليهم من واجبات، فوجودها بين النّاس فضيلة وانعدامها نقيصة.[1]

للكتابة الديوانيّة أهمّية بالغة، ودور عظيم، فهي تهتمّ بشؤون النّاس عامّة، حيث وجدناها تضبط معاملاتهم ومعاهداتهم واتّفاقياتهمن وتحلّ مشاكلهم مهما كبرت أو صغرت، فهي خادمة للأمم في كلّ الأمور سواء أكانت دينية، أو دنيوية، أو سياسيّة، أو اقتصادية.

وإذا ذهبنا إلى القلقشندي في كتابه صبح الأعشى نجده يسرد لنا وفي العديد من النصوص لأهمّية الترسّل ومن ذلك قوله: "إنّ المقصود الأعظم منه _ يقصد هنا النثر الفنّي – منه الخطب والتّرسّل ولاهما شريف الموضوع؛ والتّرسُّلَ مبني على مصالح الأُمّة، وقوام الرّعية لما يشمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس في مهمّات الدّين وصلاح الحال وبيعات الخلفاء وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها[2].

أمّا أحمد بدوي فيستعرض دورها البارز وهذا استنادا منه على رأي القلقشندي، فيقول "ووازن بعض النقاد بين الكتابة والشعر من حيث مكانتهما الاجتماعية في العصر القديم؛ فرأى الكتابة، ومن فنونها الكتابة السلطانية بخاصة، يدور أمر الحكومة وبها تنتظم شؤون

[1]–ينظر: شهاب الدين عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج7، ص3.

[2] – ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص60.

الدولة ولهذا كثر احتياج أولي الأمر إلى الكُتّاب، وكان للكُتّاب مكانة اجتماعية كبرى في نفوس الشعب والحكام وليس للشعر هذه المنزلة الاجتماعية والسياسية في تلك العصور"[1].

للرسالة الدور البارز في تسهيل التجارة وتيسيرها بل هي من الأمور الضرورية لها بل "وكانت التجارة العامل الأوّل الذي أظهر الكتابة في بلاد العرب، ولذلك نجدها منتشرة حيث توجد التجارة، فهي تسير في رحال الإبل، ولعلّ ذلك سبب رؤيتنا الكتابة العربية ظاهرة كل الظهور في المناطق التجارية، إذ لم يكن التّجار العرب مستطيعين الاستغناء عنها في معاملاتهم الداخلية والخارجية"[2].

المبحث الخامس: العوامل المساعدة على تطورها:

العوامل المساعدة على تطور فن الرسائل في العهد الموحدي سياسية وفكرية واجتماعية واقتصادية ، وهذا لما للرسائل من علاقة وثيقة بالجوانب المذكورة، إذ أنّ بعض المعلومات التاريخية ستساعدنا -ممّا لا شكّ فيه- على إجلاء بعض ما غمض من أمور لها علاقة وطيدة بالموضوع. ولنبدأ الآن في عرض الجوانب السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية للدولة الموحدين و التي ساعدت على تطور فن الرسائل.

[1] -أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، 1996، ص28-29.

[2] - حسين نصّار، نشأة الكتابة الفنّية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص26.

أولا: العامل السياسي:

تعاقب على حكم بلاد المغرب الإسلامي قديما مجموعة من الدول والطوائف لعلّ أبرزها وأطولها عهدا الدولة الموحّدية.

ظهرت الدولة الموحّدية على أنقاض الدولة المرابطية التي فقدت قوتها وهيبتها ولم تتمكّن من المحافظة على بقائها واستمرارها، فاستغلّ المهدي بن تومرت الفرصة وراح يؤسّس دولة أسماها دولة الموحّدين، والمكوّنة من المصامدة، بجبال درن[1]، وقد امتدّت هذه الدولة "من المحيط الأطلسي غربا إلى طرابلس شرقا ومن الأندلس شمالا إلى قلب الصحراء جنوبا، وتولّى حكمها أربعة عشر أميرا باعتبار المهدي"[2]وبنيت هذه الإمبراطورية على أسس دينية محضة، وكان مؤسّسها الأوّل ساعيا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وباعثا لروح العلوم محفّزا عليها، وناشرا لسنّة رسولنا الكريم –صلّى الله عليه وسلّم–، وداعيا إلى الإيمان بالله عزّ وجل، ومؤكدا على تطبيق ما جاء في كتابه المعجز من أحكام وأوامر.

[1] – ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية: ج2، ص78.

2– عبد المجيد النّجار، المهدي ابن تومرت، حياته وآراؤه، وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، مطبوعة، ط1، 1983، ص378.

وابن تومرت هو المؤسّس الأوّل للدولة الموحّدية واسمه الكامل " محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمان ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان ...بن الحسين بن علي بن أبي طالب"[1].

وقد ولد سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (491هـ) على الأرجح*، بمنطقة سوس جنوب المغرب من أسرة ذات مكانة دينيّة مرموقة رغم افتقادها للثروة والجاه[2].

قام المهدي بن تومرت بالعديد من الرحلات إلى الدّول العربية، فارتحل إلى "المشرق على رأس المائة الخامسة، ومرّ بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار

[1]- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، دط، 1965، ص3.

* هناك من قال بأنّ ميلاده كان سنة 469هـ وغيرهم قال بسنة 474هـ وابن خلكان قال بأنّه ولد عام 485هـ يوم عاشوراء، لكن الأمر المرجّح من قبل الدارسين السنة المذكورة أعلاه.

[2]- ينظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية ، ص4.

علم، ثم لحق بالإسكندرية وحجّ ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار "[1]وأخذ عنهم العلوم الواسعة وحصّل وأفاد منهم الشيء الكثير.

كما أخذ عن المازري حينما ارتحل إلى المهدية، كما أخذ عن أبي بكر الطرطوشي* وهو ذو ثماني عشرة سنة، وهذا حينما كان مقيما بالإسكندرية[2]، فقد حصّل "قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين "[3].

بعدها شدّ الرحال إلى بغداد وأخذ عن الإمام والفيلسوف الكبير الغزالي إذ "درس بالمشرق على أساتذة كانوا جلّة العلماء يومئذ وفحول النّظار، واشتهر كلّ

[1] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب لأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، ص78.

*– هو أبو بكر محمّد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القُرشي الفِهري الأندلسي الطُّرْطوشي الفقيه المالكي الزاهد، عالم الإسكندرية، وطُرطوشة هي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس، توفي سنة 520هـ.ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، ص262 إلى 265.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ص 4.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص79.

واحد منهم بتبريزه في علم من العلوم الإسلامية. فالغزالي* عرف بالعلوم العقلية... والهراسي** عرف بالفقه والأصول والتفسير ... وكذلك الطرطوشي إلى جانب اشتهارة بالسياسة الشرعية ..."[1] وعمل المهدي على الأخذ عن كلّ هؤلاء، وعن غيرهم ممّن تعذّر علينا ذكرهم مخافة الإطناب والإطالة، وهذا ما مكّنه من تكوين ثقافة موسوعية هامّة تطغى عليها العلوم الدينية الأصيلة

وبعد تلك الرحلات العلمية العديدة عاد المهدي إلى المغرب "حاملا معه راية التغيير والبناء بعدما رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنّه شرب ماء البحر جميعه كرّتين، فلمّا ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم بإقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم"[2]، وسعى جاهدا إلى

---

* – أبو حامد محمد الغزالي النيسابوري، من أشهر عماء القرن الخامس، فيلسوف ومتكلم ومتصوّف (450هـ-505هـ) (ينظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 2006، ص429).

** – أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المشهور بالكيا الهراسي، الفقيه الشافعي، (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج3، ص286).

[1]– عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية، ص104.

[2] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب لأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، ص79.

محاربة المرابطين، بداية من بجاية ثم تلمسان ثم فاس ثم بقية دول المغرب العربي والأندلس، كان هذا بعد أن لاحظ اختلال "حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة، اختلالا شديدا، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم إلى الاستبداد؛ وانتهوا في ذلك إلى التصريح؛ فصار كلّ منهم يصرّح بأنّه خير من أمير المسلمين وأحقّ بالأمر منه.واستولى النساء على الأحوال، واسندت إليهنّ الأمور، وصارت كلّ امرأة ... مشتملة على كلّ مفسد وشري وقاطع سبيل، وصاحب خمر ومخمور؛ وأمير المسلمين في ذلك كلّه يتزايد تغافله، ويقوى ضعفه؛ ... وعكف على العبادة والتبتّل... وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال."[1]

فاستغلّ الموحدون هذا الوضع وعمل ابن تومرت على شنّ حملة واسعة النطاق ضدّهم، فحذّر أوّلا، ثمّ شنّ ثورات متتالية عليهم إلى أن باءت دولة المرابطين بالسقوط والزوال، فحلّت محلّها الدولة الموحّدية، التي قامت على مجموعة من الأسس أوّلها الصرامة، إذ كان الموحّدون "يحبّون الصرامة وكانوا هم أنفسهم

[1]– عبد الواحد المراكشي، المغرب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محّمد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1، 1949، ص 177 .

صارمين، ويرون أنّ في سلوك سياسة الشّدة وسيلة لتدعيم ملكهم"[1]، فالدولة التومرتية دولة دقيقة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، دولة عدل داعية له، حرصت كلّ الحرص على "توطيد العدل، وقمع الظلم ... تتبع العمال الظلمة وتطاردهم، وتقضي في أحيان كثيرة بعزلهم ومحاسبتهم وأحيانا باعتقالهم وإعدامهم"[2].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أسّست هذه الدولة على أسس فكرية وعقائدية قد لا تتّفق في أحيان كثيرة مع الإسلام ولا مع منهج أهل السّنة.[3]

ومن ذلك أيضا ادّعاء المؤسس الأوّل للإمبراطورية الموحّدية بأنّه المهدي المنتظر، إذ قال "بأنّه المهدي المنتظر الذي وعد الرسول –صلى الله عليه وسلّم–

[1]– ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى عصر الحاضر، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2000، ج1، ص244.

[2]– محمد عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الثاني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1964، ص620.

[3]– ينظر: علي محمد الصّلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص275.

بخروجه في آخر الزمن"[1] وادعاؤه هذا يمكننا ربطه بمجموعة من النقاط أبرزها تلك الصفات التي تميّز بها بن تومرت من مثيل كونه رجلا جليل الطلعة، رجل دين، ذكيا، عادلا، "ورعا ناسكا متقشفا، مخشوشنا مخلولقا، كثير الإطراق، بساما في وجوه الناس، مقبلا على العبادة، لا يصحبه من متاع الدّنيا إلّا عصا وروكوة. وكان شجاعا فصيحا في لسان العربي والمغربي، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره"[2] ربّما هذه السمات التي وجد ابن تومرت نفسه يتحلّى بها هي التي جعلته يعتبر نفسه بأنّه المهدي المنتظر، وفي هذا مخالفة للشرع والدين.

أمّا التفسير الآخر، فهو التوحيد والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فابن تومرت أسّس دولته سنة 515هـ ظاهرا على "صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر"[3] .

[1]- علي محمد الصّلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، ص 275.

[2]- أبو العباس بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1977، مج 5، ص 46.

[3]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص45.

ثمّ إنّ رحلات المهدي الكثيرة نحو المشرق خوّلت له من أن يكوّن في ذهنه مجموعة من الخطط السياسية والتي على أساسها يسيّر دولته. وإنّ اطلاعه عن كثب على أنظمة سياسية متنوّعة، ولقاءاته الكثيرة مع الولّاء والخلفاء العرب قد "أكسبه ذلك معرفة واسعة بالواقع السياسي للمسلمين، وما كان يتّصف به هذا الواقع في كثير من الأحيان من مظاهر سلبية تتّضح بالخصوص في انقسام المسلمين إلى دول شتّى"[1] هذا ما حفّزه على بناء دولة تردّ الاعتبار للمسلمين وتجمعهم من خلال دستور أساسه القرآن الكريم والسّنة النبويّة الشريفة.

وتجلّى هدف ابن تومرت في جعل المجتمع العربي يعيش الإسلام الحقيقي الصحيح، وفي بناء عقيدة تقوم على التوحيد الخالص الذي ينفي معه مظاهر الشرك المتنوّعة[2].

توفي المهدي سنة ثمان وخمسين بعد الخمسمائة (558هـ)، فخلفه في الحكم عبد المؤمن بن علي، الذي كانت بيعته "بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما من ربيع الأوّل سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل*- وأوّل من بايعه العشرة**

[1]- عبد المجيد النّجار، المهدي ابن تومرت، ص106.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 111.

* منطقة ببلاد المغرب، وهي من أولى المناطق التي بدأ فيها المهدي دعوته، سكن فيها المهدي بن تومرت بعد أن انضموا معه (ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في

أصحاب المهدي، ثمّ الخمسون*** من أشياخ الموحّدين ثم كافة الموحّدين"[1] وامتدّ حكمه من 524هـ إلى 558هـ ، إذ في عهده انتفض البربر على المرابطين وتغلّبوا عليهم في كافة أقطار المغرب، وفي عهده تمّ فتح المغربين الأقصى والأوسط معا[2].

المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980، ص203-204).

** هم: عبد المؤمن بن علي، وعمر بن علي أزناق، واسماعيل سليمان بن مخلوف، وأبو ابراهيم، واسماعيل بن موسى، وأبو يحي أبو بكر بن تنجيت، وأبو عبد الله محمد بن سليمان، وعبد الله بن ملويات، وأبو حفص الهنتاني، وأبو محمد عبد الله البشير، وسمّي هؤلاء بالمهاجرين الأولين وبأهل الجماعة كذلك، وهم من سمّى ابن تومرت بالمهدي (ينظر: مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979، ص108).

*** هم خمسون رجلا اتّبعوا المهدي وبايعوه (للمزيد ينظر: البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط، المغرب، دط،1971، ص50 وما يليها).

[1] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب لأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، ص102.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص 103.

بعدها فتح فاس "سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقد تحصّن بها يحي بن أبي بكر الصحراوي من فل تاشفين بن علي من وهران، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكرا لحصار مكناسة، ثم نهض في أتباعه وترك عسكرا من الموحّدين على فاسن وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو ابراهيم من صحابة المهدي العشرة فحاصروه سبعة أشهر، ثم داخلهم ابن الجياني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا، وفرّ يحي بن أبي بكر الصحراوي إلى طنجة، ثم أجاز منها إلى يحي بن علي المسوفي المعروف بابن غانية بالأندلس... وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها"[1] بعدها انتقل إلى مراكش وفتحها واستئصل منها بقية النصارى اللمتونيين.

ثم بعد وفاة عبد المؤمن خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الذي بقي على رأس الدولة الموحّدية من عام 558هـ إلى 580هـ[2]، ثم ولاه أبو يوسف يعقوب المنصور حكم الدولة الموحّدية من عام 580هـ إلى غاية سنة 595هـ[3] وهنا بلغت الدولة الموحّدية ذروة تطورها الفكري والثقافي.

[1] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب لأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، ص107.

[2] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص146.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص158.

لقد باشر الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور عمله بالصدقة، واستمال قلوب الناس بالتّبرّع على الفقراء، و "أمر بتسريح المسجونين، ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التي بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته"[1] وكان الناس قد افتتنوا بملذات الدنيا وشهواتها، فراح يحدّ من هذه الأعمال الفاسدة، وسعى سعيا وراء نشر العدل وتعميمه في أرجاء البلاد، واعتنى هذا بالمنشآت العمرانية، وراح يصلح العديد منها، كما اهتم ببناء قصر له يكون كافيا لمتطلباته هو ورعيته[2].

وفي عهد أبي يوسف يعقوب المنصور بدأ صراع الموحدين مع بني غانيّة*، الذين أغاروا على الجزائر الشرقية وميورقة وبعض من بجاية واستولوا عليها لمدة من الزمن، لكنّ الخليفة تمكّن من قمع هذه الحركة في بجاية واستردّ هذه الحاضرة العظيمة سنة 581هـ[3].

---

[1] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص142.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، القسم الثاني، ص142.

* – "بنو غانية هم حكام الجزائر الشرقية (البليار) من قبيلة مسوفة الصنهاجية، وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى أمهم غانية وهو تقليد مرابطي معروف، وكان لهم نفوذ واسع في زمن المرابطين" (أسامة حسين السامرائي، تاريخ الوزارة في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2012، ص198).

[3] – ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص152.

واستعاد الجزائرالشرقية سنة 599هـ،[1]ولم يكن صراع بني غانية هو الوحيد في هذا العهد فقد جابه أبو يوسف يعقوب المنصور العديد من الحروب إلى أن وافته المنية.

وبعدهجاء أبو محمّد عبد الله الناصر عام 595هـــ وانتهى حكمهعام 610هـ[2]، وبعد وفاة الناصر خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف المستنصر عام611هـ[3] فتولّى الحكم وهو لا يزال صغيرا، أي في السادسة عشر من عمره[4]. هذا السّن الذي منعه من التّحكّم في زمام السلطة، إذ عرف أنّه كان مسالما ميّالا للدعة، محبّا للهو، وقد امتازت فترة حكمه بنوع من "الهدوء والركود، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن، ولم تنظم غزوات ما، ولم تحشد الجيوش الموحّدية، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة، وفقا لما جرى عليه الأمر، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد

[1] – ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص152-153.

[2] – ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج2، ص225.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص226.

[4] – ينظر: محمد ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1994، القسم الثالث، ص243.

المؤمن بن علي"[1].وعرفت فترة حكمه نوعا من الاضطراب وعرف كذلك العديد من الضربات النصرانية بقيادة القشتاليين. انتهى حكم المستنصر بوفاته عام620 هـ[2].

وفي هذه السنة بويع عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن على كره منه ودون رغبته في تولي الحكم لاعتقاده أنّه لا يقوى على تحمّل هذه المسؤولية وقد بلغ سنّ الستّين من عمره[3]. هو أوّل الخلفاء المخلوعين عن الحكم وهذا لما قام به من تصرفات غير لائقة، وقرارات عشوائية "وكان في مقدّمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن الأشرفي صاحب المخزن، ومطالبته بالمال، وكتب لأخيه أبي العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية، وكان المستنصر قد أوعز بعزله، بيد أنّه توفى قبل استئناف ولايته، وأمر بإطلاق سراح الوزير السابق أبي زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان"[4] وغيرها من القرارات الاعتباطية التي دفعت إلى إقالته وخلعه من منصبه سنة 621هـ.[5]

[1] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص331.

[2] – ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج2، ص228.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص 229.

[4] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص350.

[5] – ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج2، ص230.

بعد عبد الواحد جاء أبو عبد الله يعقوب منصور العادل يوم 13 صفر من عام 621 هـإلى عام 624هـ[1].

ثم ولاه يحي بن الناصر ترأس حكم الموحدين من عام 624هـ إلى 627هـ[2]، ثم أبي العلي المأمون بن المنصور من 627 هـ إلى 630هـ[3]، فالرشيد بن المأمون بن منصور امتدت فترة حكمه من عام 630هـ إلى غاية عام 640هـ[4]، ثمّ السعيد علي أبو الحسن هو الآخر تولّى الخلافة عام 640هـ إلى عام 646هـ[5]، فأبي حفص عمر المرتضى عام 646هـ إلى عام

[1] – ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني ، ص349.

[2] – ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج2، ص233.

[3] – المصدر نفسه، القسم الثاني، 368.

[4] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص246.

[5] – ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص247.

665هـ[1]، ثمّ أبو دبوس الواثق بالله آخر الخلفاء الذي حكم من عام 665هـ إلى عام 668هـ[2].

ومن الملاحظ من خلال سردنا لكلّ هذه الأسماء أنّ الدولة الموحّدية توالى على حكمها عدد كبير من الخلفاء وهذا راجع إلى طولها الزماني وشساعة رقعتها الجغرافية، علما أنّ حكمها دام قرابة مئة وخمسين عاما.

كان لهذا التعدّد آثارا سلبية على سلطة وصمود هذه الإمبراطورية، إذ كان من أقوى عوامل السقوط والتلاشي للخلافة المذكورة، وهذا يعود بالأساس الأوّل إلى اختلاف أهدافهم وأسسهم، إضافة إلى اختلاف مشاغلهم وأولوياتهم.

بقيت الدولة الموحدية صامدة قرابة قرن ونصف من الزمن، وقد استطاع خلفاؤها فصل المغرب الإسلامي عن دولة بني العباس، كما وقفت هذه الدولة في وجه الصليبيين، فكبّدتهم هزيمة نكراء في شمال إفريقيا والأندلس[3]، إذ منعت زحفهم "فما كانت دعوتهم إلّا دعوة توحيد وتجديد للمفاهيم الإسلامية التي

[1] – ينظر: أبو العباس الناصري، الاستقصا، ج2، ص245.

[2]– ينظر: علي محمّد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص420.

[3]– ينظر: رضا عبد الغني الكساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطاته بواقعهم الحضاري، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، دط، 2004، ص23.

تبعث روح القوّة والعزم في النفوس، فنهدوا للعمل بجد لحماية بيضة الإسلام وحفظ كيانهم. ووفق هذا اندفعوا بجزم وعزم للدفاع عن دينهم ووحدتهم وحضارتهم فقاوموا المدّ الصليبي ...ووقف الموحّدون سدّا منيعا في وجه المد الصليبي في شمال إفريقيا والأندلس"[1]، إلّا أنّ هذا الصمود لم يدم طويلا وسرعان ما اضمحلّت الدولة الموحديّة نتيجة لأسباب متنوّعة نذكر منها إلى جانب السبب الأوّل والمتمثّل في تداول الخلفاء على الحكم واختلاف أهدافهم وأسسهم، فتنة بني غانية الذين بدأ خطرهم على شمالي إفريقيا منذ تولي المنصور الحكم، فاستولوا على قسم كبير من المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) منذ سنة 581هـ، إذ استمرت ثورتهم أزيد من أربعين سنة حتى أتى عليهم القتل جميعا أيّام المستنصر[2].

كان هذا من جهة، ومن جهة أخرى مشكلة العرش والخلافة التي شكّلت دافعا قويا للسقوط، فمنذ موت الناصر سنة 610هـ[3]، ومنذ هذا التاريخ اتّجهت هذه الدولة نحو طريق الضعف والانحلال والسقوط، حيث كثرت بعد الناصر

[1]- رضا عبد الغني الكساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطاته بواقعهم الحضاري، ص 23.

[2]- ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته، ص294.

[3]- ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص328.

الأحزاب والتكتلات، وانقسم الناس إثر هذا إلى مؤيّد ومعارض، فقد امتنع أهل إفريقية مثلا عن مبايعة نجله الصغير المستنصر فكان هذا ممّا جعل الولاة والخلفاء والرعية يتنازعون حول الخلافة[1]، ممّا أدّى إلى انتشار الفتنة بينهم، ونشبت حروب أهلية كثيرة داخلهم، هنا رأى النصارى فرصة كبيرة للدخول للأندلس وافتكاكها من يد الموحدين.

بدأ الانحلال الفعلي كذلك مع بروز خلفاء صغار لهذه الدولة الموحّدية أمثال الخليفة المستنصر، الذي تقلّد الحكم وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره، حيث لم يكن يانع العقل، كان بعيدا كلّ البعد عن المسؤولية، كان محبّا لأيّام الشباب وما فيها من لهو، فقد كان إنسانا متواكلا على ولّاته.

فجيش "الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعا صحيحا وتنفيذا أكيدا، وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون وتأثّرت معنوياتهم القتالية"[2]أمّا اللهو والمجون فكان هو الآخر من مسبّبات السقوط للموحدين فـ"الترف والانغماس في الشهوات التي وقع فيها خلفاء الموحدين

[1]- ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته، ص 296.

2- علي محمّد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص 415.

المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمّين بشؤون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكّام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كلّ أمر جلّ أو صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذّات حتّى وافاه حينه... والمرتضى كان ميّالا للدعة والمسالمة..."[1] هكذا أصبح حكّام هذه الدولة مترفين مولوعين بملاذ الدنيا ومالها وشهواتها الزائلة، إذ كانوا ينظرون إلى الأخطاء والهفوات دون أن يحرّكوا ساكن أو يقوموا بتصويبها أو النهي عنها.

إنّ أساس الدولة الموحّدية القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدأ يزول مع الحكّام المتأخرين، وبدأت المبادئ والقيم والأسس الهامّة للدولة تتلاشى، ممّا أدى إلى سقوط سيادتها وكيانها.

إضافة إلى هذه الأسباب نذكر ما قام به المأمون حينما تولّى الحكم حيث كان متسلّطا شديدا، ذهب إلى إزالة اسم المهدي من على نقوش النقود، كما منع ذكر اسمه في الصلاة وحتى الدعاء له[2]، وبهذا الفعل أحسّ الموحدون بالإهانة

[1]- علي محمّد الصلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين،ص416.

[2] - ينظر: الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010، ج1، ص11.

والخيانة لمبادئ الدولة ومؤسّسها الأوّل، ومن هنا بدأ الإنشقاق يحدق داخل إمبراطورية الموحدين.

وجرّاء كلّ هذه الأسباب سقطت الدولة الموحّدية وانفصلت معظم دولها عنها، فتونس استولى عليها الحفصيون[1]، أمّا الجزائر فضمّها الزيانيون تحت لوائهم[2]، بيد أنّ الأندلس فقد سحقها الصليبيون وشتّتوا شملها واستولوا عليها[3]، ومن هنا زالت الدولة الوحدية وسقطت بعد حكم قارب مئة وخمسون سنة ، وكان القرن السابع هو قرن اضمحلال الإمبراطورية الموحّدية، وبالضبط عام 674هـ[4].

ثانيا: العامل الاقتصادي:

لقد شهدت الحياة الاقتصادية في عهد الموحدين تطورا ملحوظا، هذا راجع لعزم خلفائها على النهوض ببلاد المغرب والأندلس وجعلها تنعم بخيراتها الكثيرة، فعملوا جاهدين على الاستثمار في الزراعة والصيد والمتاجرة في كلّ المجالات المشروعة، حتى يعمّ السلام والرخاء المالي، وفعلا هذا ما حدث فقد "عمّ الرخاء

[1]- ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج2، 252.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص248.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص253.

[4]- ينظر: الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص12.

السكان وارتفع الدخل المالي للبلاد نتيجة لتلك المساحات الكبيرة التي كانت تجبى منها الأموال للحكومة المركزية في العاصمة مراكش"[1].

ومن نماذج الترف الاقتصادي في عهد الدولة الموحّدية، تلك الأوضاع المعاشة في عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد كانت أيامه "أعيادا وأعراسا، ومواسم كثيرة خصب، وانتشار أمنٍ، ودرور أرزاقٍ، واتساع معايشٍ، لم ير أهل المغرب أيامًا قط مثلها"[2].

ومن أسباب التطوّر الاقتصادي إضافة إلى شساعة المساحة الجغرافية للدولة الموحّدية ذلك النظام المالي المحكم، فقد كان هذا النظام "وما تضمّنه من إدارة مالية مع سياسة مالية خاصة بالمصادر التي تجبى منها الأموال، وموازنة ذلك بالنفقات التي كانت تشمل أوجه الإنفاق المختلفة وإصدار عملات نقدية تنتظم بها المعاملات بين السكان"[3] كان لهذا الأمر أثره البالغ في دفع عجلة الاقتصاد نحو الأمام.

[1] – حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، ص 182.

[2] – عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص256.

[3] – حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، ص184.

إنّ النشاط العسكري كان هو الآخر من أكبر الأنشطة والأعمال التي حفّزت الاقتصاد الموحدي وزادته ثراء وبذخا، فقد كانت الدولة الموحّدية ذكية فقد جعلت للجيش الموحدي ديوانا ماليا يختص به سمي ديوان التمييز[1] حيث كانت تجمع فيه التبرعات والتطوعات المالية، هذا حتى لا يلحق اقتصادهم الخسارة والضعف.

كما أنّ أموال الدولة الموحدية كانت تجمع من الأنشطة التجارية المختلفة، إضافة إلى أنها كانت تجمع من أموال الزكاة[2] والغنائم الناتجة عن الحروب، والهبات والصدقات، ناهيك عن الضرائب التي كانت تفرض على التجار الأجانب، والجزية التي كان يدفعها أهل الذمّة[3]، وهذه الأموال كلّها كان لها ديوان خاص يتكلّف بجمعها ومراقبتها وتنظيمها يسمى بديوان الإشراف[4].

[1] – حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، ص 185.

[2] – ينظر: عبد الله علام، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1971، ص100.

[3] – لنا تفصيل في معرفة من هم أهل الذمة في المباحث الموالية من هذا الفصل.

[4] – ينظر: عبد المالك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1964، ص54.

لقد حوّلت هذه الأموال جميعها إلى دعم لبناء الديار الجميلة، والقصور البديعة، والحصون المنيعة، والمستشفيات فقد بني أول مستشفى في المغرب على عهد الموحدين*، والمدارس والكتاتيب، ودعم أصحاب الصناعات والحرف اليدوية والتّجار عامة، مما من شأنه أن يطوّر الحضارة على عهدهم ويدفع بالثقافة والعلوم إلى التطوّر أكثر فأكثر، وهذا تماما ما سنستشفه من هذا العنصر الموالي.

ثالثا: العامل الفكري:

عرفت بلاد المغرب الإسلامي والأندلس إبّان فترة حكمالموحّدين ثراء فكريا وثقافيا وعلميا واضحا. يرجع هذا بالأساس الأوّل إلى اهتمام خلفاء الدولة الموحّدية بإثراء الحياة الفكرية والعمل على تثوير العلوم، وإعطائها روحا وصبغة جديدتين، مخالفين تماما لما كانت عليه سائر أيّام المرابطين.

فقد اشتغل الموحدون بنشر العلم وتعليم الناس، فجعلوا التعليم إجباريا لكلّ طبقة من أفراد المجتمع، ذكورا وإناثا، صغارا وكبارا، وقد ساعدهم في هذا مجموعة من المؤسسات التعليمية كالكتاتيب التي عمل الخلفاء الموحدون ولا سيما منهم عبد المؤمن بن علي بنائها وتعميمها في المدن والقرى، الجبال والسهول، وفي كلّ

* – سنفصّل القول في هذا الأمر في المباحث الموالية .

مكان يتواجد به أهل الدولة الموحّدية، وكلّفوا أناسا ببنائها، كما فرضوا مجّانية التعليم حتى يتسنّى للطبقة الفقيرة تلقي العلوم مثل باقي أفراد الرّعيّة.

وكان من بين ما يدرّس في تلك الكتاتيب القرآن الكريم وتفسيره، وأصول الدين إضافة إلى الحديث النبوي الشريف، كون الإسلام جزءا لا يتجزّأ من حكم هذه الإمبراطورية.

ولا عجب في جعل الموحدين للمساجد أماكن للدراسة فأساس حكمهم كان دينيا ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يترسّخ هذا الأساس إلاّ بحفظ كتاب الله وسنة نبيّه الكريم، والعمل على فهمها فهما صحيحا فما دام أساسهم دينيا فالكتاتيب هي الأولى بأن تتولّى تلك المهمّة.

والتعليم في عهد الموحّدين كان "يهدف إلى شيء خاص، ومن نوع خاصّ أيضا، يهدف إلى غرس تلك العقائد، والتعاليم التي جاء بها ابن تومرت؛ وحاول أن يغرسها هو وخلفاؤه من بعده بالترغيب، والترهيب؛ ولهذا كله وجدنا ذلك الانتشار الكثير للكتاتيب، وتلك المكانة أو المنزلة التي كان يحتلّها مؤدّب أو معلّم الصبيان في نفوس الناس؛ لأنّه يعلّم أبناءهم القرآن، وبالتالي يعلّمهم الدين الذي

له وزنه ومكانته العظيمة في نفوسهم، وهذا على الرغم من دخول بعض التيارات الملحدة، والجادة في المساعدة على الانحراف والتّديّن"[1].

بعد الكتاتيب تأتي المدارس التي كان لها الدور البارز في إثراء الحركة العلمية الموحّدية، فقد اعتنى عبد المؤمن بإنشاء نوعين من المدارس: أولهما عامّة تتكفّل بتعليم الشعب، وثانيهما خاصة بالخلفاء والأمراء. وأنشأ الموحدون "المدارس في مراكش، مثل المدرسة التي أنشأها عبد المؤمن أمير المؤمنين لإعداد العاملين بالدولة، وكذا مدرسة لإعداد أمراء الموحدين لتولى مراكزهم القيادية في الدولة. كما أنشأ مدرسة لتعليم علوم البحار وأنشأ الأمير يعقوب الموحدي المدارس في أفريقية وكذلك في الأندلس،"[2]وساعدت تلك المؤسسات التعليمية ساعدت في دفع التعليم خطوات نحو الأمام، خطوات نحو الرقي والازدهار.

ولا يفوتنا بأن ننوّه بالدور الكبير للمسجد الجامع في بناء وإثراء الحركة العلمية الموحّدية، فـ "تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطا وثيقا بالمسجد، فهو

[1] – الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج1،ص18.

[2] – محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دط، 2004، ص125.

المركز الرئيسي لنشر الثقافة العربية الإسلامية"[1] وهو الأساس في القيام بالعبادات وتعليم الناس وتحفيظهم للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهو مركز لتعليم الأطفال أبجديات العلوم.

لقد كثرت المساجد في البلاد كلّها، وبالخصوص في حاضرة فاس، ومن أشهر المساجد جامع القرويين بفاس والذي لا يزال مكانا تدرّس فيه علوم الدين من قراءات وتفسير وحديث. ولعب الجامع الأعظم بتلمسان دورا بارزا إلى جانب الزيتونة وغيرها من المساجد التي أسهمت بقدر كبير في إشعاع العلوم وتطوّرها، ويعود هذا التطوّر العلمي إلى عوامل ومؤثرات أخرى نذكر منها:

1-كثرة الحواضر العلمية في بلاد المغرب العربي والأندلس:

ومن الحواضر العلمية التي انتشرت في بلاد الموحدين حاضرة القيروان والتي تعدّ واحدة من أهمّ المناطق والحواضر العلمية ومن أكبر المراكز المشعّة ثقافيا ودينيا.

وشهدت حاظرة تونس نشاطا علميا لا نظير له خلال حكم الموحدين لها، فكثر فيها العلماء وعجّت بالمساجد ودور العلم.

[1]– جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2001، ص 273.

ومن أرقى وأزهى الحواضر المغربية مدينة"فاس"، أقامها وبناها "الأدارسية سنة 192هـ"[1] بأمر من إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي هرب من بطش العباسيين واستقر في المغرب الأقصى[2].

وتقع فاس عاصمة بلاد المغرب التاريخية والثقافية، "في السهل الشمالي بين امتداد الأطلس وامتداد الريف، وقد لعبت في التاريخ الإسلامي أدوارا شبيهة بالأدوار التي لعبتها القاهرة ودمشق وبغداد من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافيّة والاجتماعية"[3]هي الأخرى من أهم الحواضر التي استند عليها الفكر الموحدي، وعملت على تطويره ونشر الثقافة في كافة الأرجاء.

لقيت هذه الحاضرة عناية واهتماما من خلفاء الدولة الموحّدية، كونها العاصمة السياسية الأولى للدولة المغربية قديما فهي بغداد المغرب[4]، و"مُصلّى القاصي والداني، هي الحشر الأوّل، والقطب الذي عليه المعوّل، والكتاب الذي لا

[1]- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية، ص45-46.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص 45-46.

[3]- محمود الشرقاوي، المغرب الأقصى مراكش، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص17.

[4]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص311.

يتأوّل، بل المدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس، والباب الجامع من موطأ المرافق...وألسنتها باللغات المختلفة لاحنة، ومكاتبها مائجة"[1].

لقد شهدت مدينة فاس في عهد الدولة الموحّدية نشاطا ثقافيا لا نظير له، وهذا راجع إلى عدّة أسباب ودوافع منها؛ تشجيع الخلفاء الموحدون للعلم والعلماء، واهتمامهم بالتصنيف والتأليف في جميع الفنون والعلوم، إضافة إلى استضافة الحكام الموحدون للعلماء والأدباء من كل حدب وصوب، فهم كانوا يجلسون إلى العلماء، ويقربونهم منهم، ويحرصون على تمجيدهم والثناء عليهم وترقيتهم، ومساعدتهم على الإنتاج العلمي والتصنيف في مختلف العلوم والمجالات، كون الخلفاء أنفسهم كانوا علماء موسوعيي الفكر.

وأوّل مؤسسي الدولة الموحّدية المهدي بن تومرت كان "عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالأصول والجدل وما مناظراته لفقهاء المرابطين إلّا دليلا على تمكّنه

[1] – لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس 1347-1362، تح: أحمد مختار العبّادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص107.

وفصاحته"[1]كما كان خليفته عبد المؤمن "على شاكلته فصيحا عالما بالأصول والجدل والحديث مشاركا في الكثير من العلوم الدينية والدنيوية كما عرف بإحسانه لأهل العلم"[2]وهذا الإحسان أكبر دليل على معرفته لمرتبة العلماء ومنزلتهم ودورهم البارز في ازدهار الأمم ورقيّها.

للاحتكاك الثقافي الدور البارز في ازدهار هذه الحاضرة، فقد اختلط علماء فاس من الموحدين بغيرهم من المشارقة، فقد كان علماء المغرب كثيري الرحلات اتّجاه المشرق بغية التّعلّم على أيديهم، والنهل من ثقافته، وظلّت هذه الحاضرة "تشهد وفود الأمراء والقضاء والعلماء والفقهاء والخطباء والشعراء والأطباء جيئة ورجوعا. واهتمّ الموحدون بفاس اهتماما كبيرا، والذي من بعض مظاهره اهتمامهم

[1]- سامية جباري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس من فتح الأندلس إلى سقوط غرناطة (92هـ -897هـ)، رسالة ماجستير في الأدب العربي القديم، جامعة الجزائر 1، الجزائر، مطبوعة، ص82.

[2]-سامية جباري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس من فتح الأندلس إلى سقوط غرناطة (92هـ -897هـ)، ص82.

بمنصب عاملها خاصا فكان هذا المنصب لا ينوط به إلّا لأفراد أسرة عبد المؤمن بن علي، أو من أخصّ الموحدين"[1].

وبفضل هذا الاحتكاك كثرت المصنّفات العلمية وتنوّعت تخصّصاتها ومواضيعها، فكان منها الشعر، والفلسفة والتاريخ والفلك والطب، وكلّ هذا قد أكسب الإمبراطورية ميزة التطوّر الفكري والحضاري، هذه المصنفات كانت ثريّة منقّحة بمعلومات غنيّة وبآراء أساتذة كانوا من أكبر المثقفين آنذاك، حيث "نشطت حركة التأليف، وصار للمغرب الأقصى دوره الواضح في تغذية شريان الثقافة الإسلامية"[2] في الدّولة الموحّدية وفي مختلف البقاع العربية.

كما لعب الاستقرار السياسي الدور البارز في نهضة وتطوّر هذه الحاضرة، فقد أحكمت الدولة الموحّدية زمام الأمور بفاس، وتمكّنت من تنظيمه وضبطها[3]، فالاستقرار السياسي أدى إلى استقرار وازدهار اقتصادي، ونظر لهذا الاستقرار

[1]- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية، ص104.

[2] - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص443.

[3]- المرجع نفسه، ص269.

توجّهت الأهالي إلى تعليم أبنائها وتوجيههم إلى العديد من البلدان رغبة في التّعلم.

ومن دوافع الارتقاء الفكري بهذه الحاضرة اهتمام الخلفاء وعلماء هذه المدينة بإنشاء المكتبات الخاصة والعامة، حيث كان جهابذة الفكر بهذه الحاضرة يتبارون في جمع الكتب ونسخها ووضعها في مكتباتهم سواء أكانت خاصّة أو عامة حتى تحصل منها الفائدة، ويستنير منها الطلبة ولعلّ من أهمّ وأعظم المكتبات الفاسية، مكتبة ابن الغرديس التغلبي (543هـ) ، ومكتبة القاضي أبي القاسم عبد الرحيم بن الملجم (524هـ- 604هـ) ، ومن المكتبات الخاصة نذكر على سبيل المثال لا الحصر مكتبة أبو القاسم عبد الرحمن بن الملجم (530هـ-605هـ)، ومكتبة المونانى محمد بن عيسى بن معنصر (639هـ)[1].

إنّ كثرة المكتبات بهذه الحاضرة دليل على ازدهار الحركة الثقافية بالحاضرة، وقد أسهمت دُور الكتب في دفع الجهل وتعميم النفع والعلم على الجميع.

ومراكش حاضرة من أهم الحواضر المغربية التي عرفت تطورا وازدهارا في عصر الموحدين فهي عاصمة من تشييد الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين سنة

[1] - جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية، ص271.

454هـ[1]، فقد كانت قبل هذا عاصمة للدولة الموحدية ومن أهم مراكز الإشعاع الثقافي بالبلاد اعتنى بها علماء وخلفاء الدولة الموحدية مثلما اعتنوا بحاضرة فاس.

مراكش أرض العلوم، ومهد الآداب، مدينة متّسعة الأرجاء، عرفت العديد من العلماء الذين ساهموا كلّ المساهمة في نشر العلوم والتصنيف والتأليف في مختلف الميادين والمجالات، من أهم علماء هذه الحاضرة أبو الحسن الحرّالي (638هـ)[2] وغيره الكثير والكثير.

ومن الحواضر الموحّدية نذكر تلمسان فهي من أرقى الحواضر، اعتنى بها الموحدون كونها مسقط رأس عبد المؤمن بن علي، ثاني خلفاء الدولة التومرتية، تلمسان بلاد العلم والعلماء الذين كان لهم الدور البارز في تطوير الحياة الفكرية والثقافية إبّان عصر الموحدين، فقد نافست وضاهت تلمسان البلدان المشرقية من حيث علمائها وحركتها الثقافية وعلماء الحديث.وكان من أهمّ جهابذة الفكر فيها

[1]- ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص378.

[2]- ينظر: فايزة سعيدات، الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسّطية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم اللغة العربية وآدابها، تلمسان، الجزائر، 2017-2018، مطبوعة، ص66.

"أبو عبد الله محمد بن الحاج* (625هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني** الذي كان قريبا من المنصور الموحدي، والفقيه محمد ابن عبد الحق بن سليمان التلمساني الندرومي*** الذي تصدّر لرواية الأحاديث النبوية الشريفة"[1] وغيرهم الكثير والكثير.

* – هو أبو عبد الله محمد بن الحاج، من متصوفة ورجال العلم بحاضرة تلمسان، له باه في الشعر والنثر، من كتبه "فضيلة العلم والعالم"، للمزيد ينظر: الرُعينيّ، برنامج شيوخ الرُعيني، ص 169ألى 170.

** – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني، فقيه أديب ورع خلوق، حافظ للذكر الحكيم هذا ما ساعده في نظم الأشعار العديدة، للمزيد ينظر: ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح: ابراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، دط، 2009، ج1، ص29-30.

*** – علم من أعلم تلمسان، حافظ للقرآن والحديث النبوي الشريف، اشتغل مدرسا بالأندلس لفترة من الزمن، للمزيد ينظر: أبو عبد الله الأنصاري المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية للمملكة المغربية، المغرب، السفر الثامن، ص317-318.

[1]– فايزة سعيدات، الحياة الأدبية والمظار الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري، ص67.

وحاضرة بجاية هي أيضا حاضرة العلماء، وأهل الثقافة، وهي إحدى أهمّ المراكز الموحّدية إذ اتخارها المهدي لتكون إحدى المناطق التي بدأ منها دعوته، ففيها أقام ابن تومرت اللقاءات العلمية والدينية مع الكثير من العلماء لعلّ أبرزهم عبد المؤمن بن علي، الذي جاء إليها طالبا للعلم، ومن علماء هذه الحاضرة "علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله (652هـ) وأبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي (598هـ) وأبو عبد الله محمد ابن ابراهيم الفهري المشهور بالأصولي (612هـ)* وأبو محمد عبد الله ابن القاضي أبي العباس بن أبي القاسم التميمي ابن الخطيب"[1] .

كما اتخذ الموحّدون الأندلس كذلك قاعدة لهم وجعلوها منبرا فكريا مشعّا، فكثرت فيها الحواضر، ومن ذلك نذكر حاضرتي قرطبة وإشبيلية فقد كانت كل حاضرة من هذه الحواضر من أهم المناطق في عهد الموحدين. فقد سطع نجم قرطبة ولمع مع مجموعة من العلماء منهم "الشيخ الزاهد أبو الفضل قاسم بن محمد القريشي القرطبي (662هـ)، والقاضي عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الرحمن

* للمزيد عن هذه الشخصيات ينظر: الغبريني، عنوان الدراية، ص53/ 208-211/ 173 على التوالي.

[1] – فايزة سعيدات، الحياة الأدبية والمظار الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري، ص68-69.

بن ربيع الأشعري، وأبو الرّبيع سليمان بن حكم الغافقي"[1]، أما علماء إشبيلية نذكر منهم " أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرّعيني الإشبيلي (666هـ)، وأبو مدين شعيب بن حسين الأندلسي (594هـ)، بالإضافة إلى الشيخ الكاتب أبي بكر بن الرّمّاك"[2] وغيرهم الكثير.

لقد دعا الموحدون إلى تحريرالعقل من كلّ القيود الدينية المفروضة عليه؛ فالإمبراطورية الموحّدية لم تكن و"بالرغم من صفتها الدينية الراسخة، من الناحية الفكرية، كالدولة المرابطية، دولة رجعية، تطارد العلوم والفلسفة، بل كانت بالعكس ... دولة تفسح للتفكير مجالاته"[3].

وبهذا نشطت العلوم التي كانت الدولة المرابطية قد ضيّقت النطاق عليها وكبّلتها، ولعلّنا نقصد بهذه العلوم الفلسفة، التي شهدت ركودا وجمودا نظرا للممارسات التعسّفية من الحكّام على أصحاب المنطق والتفكير الحر.

وفي بداية القرن السادس الهجري، عرفت الفلسفة نشاطا بارزا، فاشتدّ عودها، وتحرّرت من عقالها، وشهدت نموا لا نظير له، وكانت من أهمّ وأكثر

[1]- فايزة سعيدات، الحياة الأدبية والمظار الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري،ص70.

[2]- المرجع نفسه، ص71.

[3]- عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص711.

الميادين العلمية تطوّرا، خاصة على عهد الخليفة يعقوب بن يوسف الذي شجّع الفلاسفة على التأليف كونه كان من أهمّ الفلاسفة الموحدين.

وكانت الدولة الموحّدية تعجّ بالعديد من رجال المنطق والفلسفة، ولعلّ أهمّهم ابن رشد (595هـ)، وابن طفيل (581هـ)، موسى بن ميمون القرطبي وغيرهم الكثير ممن ارتبطت أسماؤهم بالفلسفة.

أمّا ابن طفيل فكان من أعلام المنطق والفلسفة، ذاع صيته وازدهرت شهرته في ظلّ حكم الموحدين هو "أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل...درس ابن طفيل الحديث، والفقه واللغة، على أبي محمّد الرّشاطي، وعبد الحق بن عطية، وغيرهما من أقطاب العصر...ودرس الحكمة على أبي بكر ابن الصائغ (ابن باجة) ...طبيباماهرا...وفقيها بارع الإعراب، وكاتبا بليغا"[1]، وبعبارة وجيزة كان رجل موسوعي الفكر متعدّد المشارب الفكرية، اشتهر بالفلسفة، فألّف فيها رسالة حي بن يقضان، وأخرى في النفس[2] وغيرها من المصنفات الفلسفية.

والحال نفسه ينطبق على ابن رشد الذي اشتهر "بتضلّعه في علوم كثيرة، وتفوّق في الطب والفلسفة ورد على كتاب الإمام الغزالي بكتابه (تهافت التهافت)

[1]- عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص719.

[2]- المرجع نفسه، ص 720.

يعارض فيه ما جاء بكتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة)"[1]، ولخّص كتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي وشرح كتاب النفس لأرسطو، وشرح أرجوزة الطب لابن سينا .

ومن الأطباء في العهد الموحّدي نذكر ابن ميمون القرطبي (530هـ) الذي اشتهر بثقافته الواسعة، إذ كانت له خرجات عديدة في الطّب والفلسفة كذلك؛ خلّف "دلالات الحائرين في شرح فلسفة أرسطو، وهو أعظم كتبه الفلسفية، وتهذيب كتاب الاستكمال لابن هود في الرياضيات، ومقالة في صناعة المنطق"[2].

أمّا الصوفيّة الموحدون نذكر منهم العالم الجليل الفقيه الفيلسوف أبا مدين شعيب بن الحُسين الأندلسي الفاسي البجائي التلمساني (520هـ-594هـ) بدأ هذا الرجل حياته "حائكا ثمّ مالت نفسه إلى العلم. انتقل إلى المغرب وسكن فاس وأخذ التصوّف عن أبي يعزّى الحرميزي"[3]. رحل إلى العديد من بلاد المشرق لأخذ العلوم والتزوّد بثقافة الغير، لكنّه سرعان ما عاد إلى بلاد المغرب واستقرّ في

[1]- محمود السّيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص129.

[2]- عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص724.

[3]- عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص370.

بجاية فاشتغل بتدريس الصغار القرآن، إلى أن وافاه أجله بتاقبالت سنة 594هـ ودفن بالعباد قرب تلمسان.

كان أبو مدين شعيب رجلا ورعا من أساطين اللغة والبيان، إنسانا محبّا للعلم باحثا عنه، وكان ممن تصدّق على عامة الدولة الموحّدية فناصرهم وراح يساعد الفقراء على قضاء حاجاتهم.

وإذا ما رجعنا إلى كتب التراجم نجدها تعجّ بأسماء العديد من جهابذة علم التاريخ، ومن المؤرّخين نذكر "أحمد بن محمّد الأزدي المؤرّخ من أهل قرطبة، كان من تلاميذ ابن بشكوال وأخذ عنه كثيرا ...توفى سنة 611هـ"[1] وابن الأبّار الذي يعدّ قطبا من أعظم أقطاب علم التاريخ، ومن أكثر المؤلفين في مجال التراجم "علامة متعدّدة الجوانب، فهو فقيه راسخ، وكاتب بلغ ذروة البيان، وشاعر مبدع مبكي، ثم هو بعد ذلك كلّه مؤرّخ محقّق، وكان مولده بثغر بلنسية في سنة 595هـ"[2] اشتهر بالتأليف التاريخي فكتب التكملة، والمطّلع على هذا المصنّف يلحظ عليه براعته في اللغة والأدب، وولعه الكبير بالأخبار وحبّه للارتحال والأخذ عن العلماء المشاهير.

[1]- عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص 704.

[2]- المرجع نفسه، القسم الثاني، ص ن.

إضافة إلى كتابة هداية المعترف، درر السمط في خير السبط، أعتاب الكتاب، معادن اللجين في مراثي الحسين، تحفة القادم، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال، وغيرها الكثير، وقد ساعده في غزارة التأليف مهامه التي اشتغلها وعلى رأسها الكتابة عند السّيد أبي زيد والي بلنسية لمدّة من الزمن.

لم يكن ابن الأبّار الوحيد في هذا المجال بل وُجد مؤرخون كثر من بينهم بن صاحب الصلاة، وعبد الواحد المراكشي اللّذان يعدّان من نوابغ التأريخ، أمّا الأوّل فهو صاحب كتاب المنّ بالإمامة الذي وافته المنيّة عام 605هـ[1]، غير أنّ الآخر صاحب كتاب المعجب في تلخيص المغربالذي لخّص فيه التاريخ الذي مرّت به الدولة المغربية وبالخصوص عصري المرابطين والموحّدين[2].

كما لا ننسى بن دِحيةَ أبو الخطاب (633هـ) صاحب كتاب النّبراس في خلفاء بني العباس، وكتاب المطرب من أشعار أهل المغرب، ومصنّف الإعلام المبين

[1]– ينظر: أحمد محمد الشوادفي، شهيد الشعراء ابن الأبار –دراسة في الخيال 595-658هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص10.

[2] – للمزيد ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مقدمة المحقق وما يليها.

في المفاضلة بين أهل صفّين[1]، وكذلك ابن عميرة المخزومي كاتب البلاط الموحدي الذي ألّف في التاريخ كتبا عدّة منها تاريخ ميورقة.

وفي الأخير لا يسعنا إلّا أن نذكّر بأنّ التأليف في المجال التاريخي قد اتّسع في العصر الموحدي وشهد تطوّرا وتنوّعا ملحوظا "فمنهم من اهتمّ بالتأريخ للدولة ونشأتها مثل البيذق في كتابه أخبار المهدي بن تومرت وابتداء الدولة الموحّدية، ومنهم من اهتمّ بتتبّع ملوكها كعبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب، ومن أقطاب المؤرّخين نجد خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى الأنصاري بن بشكوال"[2]، والمجال هنا لا يتّسع لسردهم كلّهم فهم كُثر يتعذّر علينا ضبطهم وتتبّعهم واحدا بواحد.

أمّا في مجال العلوم الدّينية بما تحويه من علوم للقرآن وتفسير وفقه وحديث فقد كثر التأليف، لاهتمام الدولة الموحّدية المتزايد بهذه العلوم، لما في كلام الله من نفع للعامّة والخاصّة "فلم يكن الكتاب –عندهم– تفسير معنى بمعنى وتوضيح معنى الآية بعد الآية، بل كان عرضا لكلّ ما يتعلّق بكل آية من وجوه المعرفة،

[1]– عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص 373.

[2]– سامية جباري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس من فتح الأندلس إلى سقوط غرناطة، ص 87.

من تفسير للألفاظ وبيان إعرابها، وذكر ما يتّصل بها من أوجه البلاغة، والإكثار من الشواهد"[1].

وفي نظرنا هذا هو السّبب الرئيس لظهور علماء متخصصين في مجال التفسير منهم "عبد الجليل القصرى، والقرطبي، وعبد الحق بن غالب بن عطية، وعبد الكبير بن محمّد بن عيسى بن بقى صاحب كتاب الجمع بين تفسيري الزمخشري وابن عطيّة وشرح الموطأ وغيرها من المؤلفات في هذا الميدان"[2]، كما لا ننسى أن نؤكّد بأنّ الاهتمام بالحديث النبوي الشريف، قد ولّد علماء الحديث الذين أقبلوا على الكلام النبوي شرحا وقراءة، وحفظا، من ألمعهم الضبي وابن القطان الفاسي، وابن دحيّة[3]، وغيرهم الكثير ممن اشتهر اسمه في هذا الجانب العلمي الهامّ.

كذلك نذكر أبا محمد عبد الحق بن أبي بكر بن غالب بن عطية الغرناطي (ت542هـ)، صاحب كتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، هذا الأخير الذي اشتهر في علم الحديث والفقه.

---

[1]- عبد الغني كساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطاته بواقعهم الحضاري، ص132

[2]- المرجع نفسه، ص132-133.

[3]- المرجع نفسه، ص ن.

ومن مشاهير علماء الدين الجزائريين المشتهرين في العصر الموحدي نذكر الفقيه والأصولي أبو الحسين علي بن أبي قاسم بن عبد الرحمان بن أبي جنُّون أو قنون التلمساني، قاض من فقهاء المالكية، ورع متعبد من علماء تلمسان وجهابذتها، حفظ القرآن والحديث في صغره، وافته المنيّة سنة 557هـ، فخلّف وراءه مؤلفات عدّة أشهرها المقتضب الأشفى في اختيار المستصفى[1].

وكذلك ابن مدينة ورقلة، أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدرائي الوارجلاني (ت570هـ)، صاحب تفسير القرآن الكريم، وكتاب العدل والانصاف في أصول الفقه، وترتيب مسند الربيع بن حبيب في الحديث[2].

ولا ننسى أبا عبد الله محمد بن علي بن الرمامة (ت567هـ) والذي ألّف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، وكتاب التقصي، وكذا كتاب التبيين في شرح التلقين في الفقه، وغيرهم الكثير ممن تعذّر علينا ذكرهم في هذا المقام[3].

[1] – ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص72.

[2] – ينظر: نور الدين دردور، ملحمة الجزائر، ص74.

[3] – عبد الحميد حاجيات، ملاحظات حول تطوّر الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين، مجلة الحوار المتوسطي، ع15-16، مارس2017، ص319-320-321.

وإذا انتقلنا إلى مجال علم النحو فنجد منهم نفرٌ كبير من مشاهير النحاة وعلماء اللغة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر"أبا الحجاج البلوي (ت304هـ)...وشرف الدين أبا عبد الله المرسيَّ (ت655هـ) اللُّغويَّ النّحويَّ وأبا المطرّف أحمد بن عبد الله المخزومي (ت658هـ) وابن عصفور (ت669هـ)"[1] وغيرهم الكثير والكثير.

وبذا يمكن القول بأنّ الحياة الفكرية في عهد الموحّدين نمت وازدهرت في ظلّ الحواضر الضخمة والمدارس والكتاتيب والأربطة المختلفة، كما تطوّرت بفضل رجالات الفكر الذين عملوا في التدريس في هذه المؤسسات والدّور الكبير الذي لعبه حكّام وخلفاء الدّولة هذه، حيث أنّ هذه "الحركة الأدبية وجدت من يوجّهها ويشجّعها، وكان لهذا التوجيه، والتشجيع أثر عظيم في نهضة العلوم الأدبية، وتقدّمها؛ إذ نجد مثلا أنّ المهدي بن تومرت خدم بدعوته الأدب وبصورة غير مباشرة؛ وهذا في خطبه ومناظراته، وتأليفه"[2].

رابعا: العامل الاجتماعي:

تشكّل المجتمع الموحّدي من العديد من الأجناس البشرية، على رأس هذه الفئات؛ البربر أولى الركائز والدعائم التي ساندت المهدي بن تومرت في بنائه

[1] – عمر فرّوخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحّدين، ص377-378.

[2] – طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 29-30.

لصرح دولته، والبربر مصطلح أطلقه –على حسب ما جاء به الطبري– أفريقش بن قيس لما غزا المغرب والجزائر، فلم يتمكّن من فهم لغتهم، إذ بدت له وكأنّها أصوات مختلطة متعدّدة، فتعجّب لذلك وراح يقول:ما أكثر بربرتكم، فأطلق عليهم حينها اسم البربر[1].

واختلف المؤرخون في أصلهم الأوّل فهذا ابن حزم الأندلسي "يذكر أقوالا مختلفة في نسبهم قال قوم أنّهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادّعت طوائف منهم إلى اليمن إلى حمير، وبعضهم إلى بر بن قيس بن عيلان"[2].

يتكوّن برابرة الدولة الموحّديّة من مجموعة من القبائل، على رأس هذه القبائل قبيلة صنهاجة، والتي تقع غربي ليبيا وهي "من أوفى قبائل البربر، وهم أكثر أهل البربر لهذا العهد العهد وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من

[1]– الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، 442.

[2] – حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص 292.

بطونهم في جيل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنّهم الثلث من أهل البربر"[1].

وقبيلة مصمودة هي الأخرى من القبائل المكوّنة لبرابرة الموحدين، تقع غرب المغرب الأقصى موطنهم مراكش، وقد تفرّعت عن هذه القبيلة قبائل أخرى صغيرة منها هرغة*، هناتة** وأهل تنملل***وكنيفسة، وكومية**** وغيرهم الكثير والكثير.

أمّا الجنس الآخر الذي يشكّل منه المجتمع الموحدي هم العرب، والذينيشكلون شريحة هامّة من طبقات هذه الدولة، وقد ساهموا في تأسيس هذه الدولة.

[1]- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، دط، دت، ج6، 152.

* قبيلة الإمام المهدي، وهي من القبائل الكبرى التي ساندت الدولة الموحدية، (ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص302).

** من أعظم قبائل المصامدة وأشدّها قوة (ينظر: المرجع نفسه، ص302).

*** تنملل من القبائل الكبرى التي بدأ منها المهدي دعوته (ينظر: المرجع نفسه، ص303-304)

**** كنيفسة قبيلة تابعة لهنتانة. كومية تنسب إلى قبيلة البتر، تقع بالمغرب الأوسط (ينظر: المرجع نفسه، ص305).

وأهل الذّمة هم الجنس الثالث المكوّن للمجتمع الموحدي، وأطلق هذا الاسم على "الرعايا غير المسلمين، والذّمّة هي العهد والأمان والضمان والحق، ويسمّى أهل الذّمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم"[1]، تتشكّل هذه الفئة من النصارى واليهود، وقد عوملت هذه الفئة معاملة قاسية شديدة في عهدي المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، حيث تذكر المصادر التاريخيّة أنّ المهدي وخليفته خيّروا أهل الذّمة بين أمرين، إمّا الاستسلام لأمر الله عزّ وجل والإيمان بما أنزله على رسوله الكريم وتصديقه، وإمّا القتل، حيث قام المهدي بتحطيم الكنائس وتحويلها إلى دور علم ومساجد، والفعل نفسه قام به خليفته عبد المؤمن بن علي من بعده[2].

يعود فرض الإسلام على أهل الذّمة إلى خوف عبد المؤمن بن علي والمهدي بن تومرت من دسائس ومكائد النصارى وخيانتهم له فهناك الكثير من الجنود النصارى أو اليهود من خان الدولة وناصر أبناء ملّته.

[1]- إيمان عبد الرحمن حسن العثمان، التعايش السلمي للمسلمين مع أهل الذمة في الدولة المرابطية في عصر علي بن يوسف، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعةالحاجالأخضر، باتنة، الجزائر، مج8، ع2/15، 2014، ص3.

[2]- ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص367.

ومع اضمحلال الدولة الموحّدية وبداية سقوطها، بدأت حرّية أهل الذّمة تظهر شيئا فشيئا، خاصّة في عهد المأمون، الذي بنى للنصارى كنائس وأسقط اللباس الذي فرض على اليهود من قبل وألزموا به حتّى يتميزوا عن غيرهم من المسلمين. ولكن مقابل أن يساعدوا المأمون في بعض النكبات والحروب التي وقعت في عصره، كما راح هذا الأخير يعاملهم معاملة حسنة وأدمجهم دمجا مع أبناء جلدته من المسلمين[1]، حتّى أنّ الناس لم تعد تفرقهم حينها عن البقية.

من خلال هذا العرض للأجناس البشرية المختلفة المكوّنة للمجتمع الموحدي، نستنتج أنّ تعدّد الأجناس يتبعه تعدد وتنوع في العادات والتقاليد، ربما يصل بهم الأمر إلى الاختلاف والنزاع، وهذا ما ظهر في أواخر الدولة الموحّدية حيث كثرت فيها النزاعات الداخلية وكان هذا سببا آخر من أسباب سقوط هذه الدّولة.

لقد قسّم المهدي وبعده خليفته عبد المؤمن بن علي هذا المجتمع إلى طبقات، كان لها الدّور البارز في تنظيم البلاد وضبطها، ومن هذه الطبقات :

[1]– ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص371.

-الطبقة الحاكمة*:

وهي الطبقة الأولى المتحكّمة في دواليب الحكم وتتكوّن من طبقة السلطة وحاشيتها والمقربين منها كأهل العلم والفقهاء[1]فهم أتباع المهدي بن تومرت ويده اليمنى، فهي الطبقة المسيطرة على الدولة بأكملها.

كان للطبقة الحاكمة الدّور الكبير فينشر تعاليم الدين الإسلامي، وتولى الطلبة والفقهاء مهمّة نصح أبناء المجتمع وتعليمهم تعاليم الدين، وتحفيظهم القرآن وتفسيره والحديث النبوي الشريف وزرع الوازع الديني في نفوسه.

-طبقة المتصوّفة:

وهم الرجال الصالحون الذين اتّخذوا التّصوّف مذهبا لهم، والزهد منهج حياتهم، جاهدوا أنفسهم رغبة وطمعا في نيل مرضاة الله[2]، هم كذلك من الطبقات الهامة في المجتمع الموحدي، حيث ساعدوا السلطة في هداية النشإ وترسيخ حبّ الله ورسوله في النفوس.

*- أسماهم كذلك أهل الجماعة.

[1] - ينظر: ابن القطان المراكشي، نظم الجمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص82.

[2]- ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص336-337.

ـطبقة العامّة:

هي الفئة الثالثة من المجتمع الموحدي، وهي من أكبر طبقاته، فقد كثر عددهم، وكثرت مشاكلهم الاجتماعية، حيث عاشت هذه الفئة ظلما وقهرا كبيرا، والذي دلّنا على ذلك أسماءهم التي أطلقت عليهم، فكانو يطلقون عليهم الأوباش، الرعاع، السفاه، الأنذال[1]، وغيرها من النعوت الدنيئة التي توحي لسامعها بحجم المأساة التي كانوا يعانوا منها. وأثبتت كتب التاريخ بأنّهم كانوا يدفعون الضرائب الباهضة، حتّى أنّهم اشتكوا هذا إلى الخليفة الناصر. ولقد تعرضت هذه الفئة إلى الظلم مع بداية سقوط الدولة.

لم تكن الضرائب هي الأمر الوحيد الذي اشتكت منه هذه الفئة، بل عانت من كثرة الأمراض والأوبئة، وكانوا يجدون صعوبة في مجابهة ما كان يحل بهم من مصائب وكانت "كلّ مجاعة تحدث إلّا وتحصد عددا كبيرا من النّاس وخاصة العامّة لأنّ هذه الشريحة في الظروف العادية وأيّام الشرف والازدهار كانت تتدبّر

[1]– ابراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص169.

أمورها بصعوبة شديدة فكيف تتمكّن في أيّام الأزمات التي تهزّ حتىالفئات البرجوازية"[1].

هذا إضافة إلى الكوارث الطبيعية كالزلازل التي كانت تضرب البلاد، كزلزال عام 651هـ، الذي ضرب المغرب فخلّف ضحايا أغلبيتهم من العامّة [2].

إنّ هذه الشريحة كانت تعاني مشاكل عديدة أبرزها الضعف والهوان والاحتقار والمجاعى والقتل وبالخصوص في الأيّام الأخيرة لهذه الدولة.

ولم تتلق هذه الفئة المساعدة من قبل السلطة، بل كانت المساعدات تأتيهم من "الأولياء الصالحين والمتصوّفة، فكان أبو مدين شعيب مثلا كان عند إعطائه الدروس للأطفال يتقاضى أجرا من أبناء الأغنياء ليقدّمه لتلامذته من الفقراء، ولم يقتصر إحسانه على هذا بل تعدّاه إلى قيامه بخياطته لثيابهم لهم وغيرها من الأعمال وباع متصوّف آخر أرضه وتصدّق بثمنها على المعوزين من الناس وآخر كان يتصدّق عليهم ما يقع بين يديه"[3].

---

[1]- شوقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين، أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008، ص104.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

[3]- المرجع نفسه، ص105.

-المرأة الموحّدية:

تعتبر المرأة الموحّدية من أهمّ شرائح المجتمع، فهي طبقة أساسية من طبقات المجتمع الموحّدي، فقد حظيت بالعناية والاهتمام الفائقين.

لقد طبّق الموحدون أحكام الدين في معاملاتهم للمرأة، إذ منع عليها المهدي بن تومرت الاختلاط بالرجال، وكشف وجهها في الطريق العامّة[1]، وكانت حرّيتها محدودة مقارنة بنظيرتها المرابطيّة. واتّبع الموحدون الأحكام الشرعية في تعاملهم مع نسوتهن بغية صيانتها وتمجيدها والحفاظ عليها، غير أنّ هذه الحرّية المحدودة التي كانت تتمتّع بها المرأة الموحّدية لم تمنع رجالها من إبراز عظمتهنّ وتقديرهنّ، فقد كُرّمت في العديد من الأحيان حيث سرد لنا التاريخ العديد من المواقع التي أعاد فيها الرجال الاعتبار للمرأة الموحّدية فها هو أبو شعيب يستشفع "عند الخليفة عبد المؤمن في إطلاق سراح نساء علي بن يوسف ونساء أولاده فاستجاب"[2].

[1] – حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص355.

[2] – المرجع نفسه، ص ن.

رغم هذه الحرّية المحدودة فإنّ المرأة الموحّدية ولجت ميدان الأدب، حيث نبغ العديد من النساء في نظم الشعر، فهذه حفصة بنت الحاج الركونية*كانت شاعرة مجيدة وأديبة نبيلة من النّابغات النابهات[1]، وكانت أيضا معلّمة حيث "قامت بالتدريس في قصر الخليفة المنصور الموحدي لنساء القصر"[2]، ومما قالته في حضرة عبد المؤمن بن علي:[3]

أَمِن عَلَيَّ بِطِرسٍ يَكُونُ لِلدَّهرِ عُدَةً

تَخُطُّ يُمنَاكَ فِيهِ الحَمدُ لِلَّهِ وَحدَهُ

إنّ أغلب ما نظمته حفصة بنت الحاج الركونية من أشعار كان غرضه الغزل وهذا كسر لعادات وتقاليد النساء العربيات، وقد منعن في عصر الموحدين من

* شاعرة من أهل غرناطة جميلة حلوة الحديث، والركونية نسبة إلى بلدة أندلسية تقع شرق بلنسيّة، كانت المصادر شحيحة في ذكر نسبها وعائلتها (ينظر: جاسم ياسين الدرويش، أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص106).

[1]- ينظر: أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، دار اليمامة، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص191.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص191-192.

[3]- ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1989، ط3، ص219.

التصريح بمشاعرهن لرجال غرباء ما دام ذلك من المحرمات ويتنافى مع مبادئ الدين الإسلامي.

ومن الشاعرات كذلك حمدة الوادياشية بن زياد بن بقي (ت600هـ) أديبة وشاعرة أندلسية ظهرت في العصر الموحدي، كانت تقطن وادي آش، وقد تعلّمت الشعر ثارت على القوانين والعادات وتجرّأت على الحضور في مجالس الرجال[1]، فهي إذن من المتأدبات المتصرفات المتغزلات المتعففات[2].

وممن نبغن في نظم الشعر في العهد الموحّدي قرمونة بنت إسماعيل الغرناطية وهي شاعرة يهودية الأصل[3] قطنت هذه الشاعرة غرناطة، فتعلّمت الشعر عن والدها[4].

[1]- ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1985، ط2، ج5، ص556.

[2]- ينظر: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح: عي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص372.

[3]- شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين، ص115.

[4]- المرجع نفسه، ص 115.

ومن الشاعرات الموحّديات نذكر أسماء العامرية، وأم الهناء بنت القاضي ابن محمد بن عبد الحق بن عطية، والشلبية التي راسلت المنصور الموحدي، وعائشة بنت عمارة وغيرهن.[1]

كما اهتمّ الكثير من النسوة بعلم الأصول، فها هي زينب بنت الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تدرّس علم الأصول وتعمّق فيه على يد أبي عبد الله بن ابراهيم[2].

كما اعتنت بعض النسوة بالتّأليف، كخيرونة الفاسية ألّفت كتابا في العقيدة البرهانية[3]، وغيرهنّ الكثير والكثير ممّن حرصن على التّعلّم.

تشكّل المجتمع الموحدي من عدّة شرائح وفئات، فقد كانت الطبقة الحاكمة هيأولى الطبقات وأكثرها سيطرة على الدولة، تتشكّل هذه الفئة من الخليفة ورعيّته وكذا أهل الجماعة.

[1]- ينظر:محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري، الإكتراث في حقوق الإناث، تح: زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2007، ص104.

[2] - ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص358

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص358.

أمّا المتصوّفة فتمثّل الطبقة الثانية للمجتمع الموحدي وهي فئة جديدة ظهرت بظهور الدولة الموحّدية، لها قيمتها الدينية في المجتمع، فهم من ساعد العامّة، وانتشلها من الضياع والهوان.

أما طبقة العامّة فهي طبقة كانت مهمّشة نوعا ما وخاصة مع بداية سقوط الدولة الموحّدية، هذه الفئة تشكّلت من أصحاب الحرف والمهن الحرّة، هم أناس شكلوا ركن الأساس في الاقتصاد الموحدي، أمّا المرأة فهي الأخرى تعتبر من أهمّ أصناف المجتمع، لما لها من دور في بناء المجتمعات الصالحة، وتكوين الأبناء أحسن تكوين، تمتّعت المرأة ببعض من حقوقها كالتعليم مثلا، وعُوملت وفقا لأحكام الشرع، معاملة فيها احترام وتقدير لها.

كان هذا عن الأصناف والأجناس المكوّنة للمجتمع الموحدي، فماذا عن المنشآت العمرانية التي امتازت بها الدولة؟

المنشآت العمرانية الموحّدية:

-المنازل:

شهدت الدولة الموحّدية حركة بناء وتعمير للمدن منذ أن قامت، فقد أكملت ما بنته الدولة المرابطيّة، وبفضل هذه الحركة عمرت المدن وتنوّعت منشآتها من منازل وقصور مساجد ومستشفيات وحمامات وفنادق.

وقد حظيت بعض الحواضر الموحّدية بكثرة منازلها ومنشآتها العمرانية، والدليل على ذلك مدينة فاس "التي امتلأت بكثير من المنشآت العامّة حيث بلغ عدد المساجد بها سبعمائة وخمسة وثلاثين، ودور الوضوء اثنين وأربعين والسقايا ثمانين والحمامات ثلاثة وسبعين"[1]. وهذا دليل قاطع على الازدهار الحضاري الذي عرفته بلاد فاس في ظلّ حكم الموحدين.

وقد "أولى الخليفة عبد المؤمن اهتمامه بالبناء والتعمير ومن ذلك إنشائه لمدينة الفتح وبجانب ذلك إنشائه لمدينة الفتح وبجانب ذلك إنشائه لكثير من المساجد والقصور في أنحاء مختلفة من البلاد"[2]،وامتازت مبانيهم بقلة زينتها وزخارفها، كون هذا من تعاليم المهدي في منع الزخارف والنقوش والبعد عنها، إذ وصل ببعض الناس إخفاء ما وجد في منازلهم من زخارف خوفا من المهدي، أمّا عبد المؤمن بن علي فكان ممّن حفّز المهندسين على الزخرفة والزينة في بنائهم القصور والمباني[3].

[1]- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص372.

[2]- المرجع نفسه ، ص373.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص377-378.

أما المنازل فقد كانت تبنى وفقا للنظام التالي "باب يؤدي إلى دهليز يتناسب مع حجم البيت ومن الدهليز إلى صحن البيت حول الفرق، وقد تكون الدار أرضية أو ذات طابقين، وإذا كانت دار كبيرة فقد يكون لها أمام الغرف أروقة تدفع عنها حرّ الشمس ومطر الشتاء، وإذا توفرت المياه بالمدينة وذلك مثل مدينة فاس، فإنّ الناس يصنعون فوارة في صحن الدّار"[1].

-الحصون و القلاع:

بنى الموحدون العديد من القلاع والحصون، هذا لحاجاتهم لها في الحروب وحماية البلدان، كما قاموا بترميم ما وجدوه من حصون مرابطية، ويعود الدافع وراء بناء هذه الحصون تخوّف الموحدون من هجمات المرابطين عليهم وكذا تخوّفهم من النصارى وخداعهم ومباغتتهم لهم.

ومن أبرز الحصون الموحدية حصن تنملل هذا الحصن من أولى الحصون التي اعتمد عليها المهدي في نشر دعوته، فلا "يعلم مدينة أحصن من تينمال، لا يدخلها الفارس إلّا من شرقها، أو من غربها، فأمّا غربها، وهو الطريق إليها من مراكش، فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعا، وأضيقه أن

[1]- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص390-391.

ينزل من على فرسه خوفا من سقوطه، وكذلك شرقها، لأنّ الطريق مصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات، وفوقه حافت، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد، ومسافتها على هذه الصّفة نحو مسيرة يوم"[1].

لم يكن حصن تنملل الوحيد بل كثرت الحصون في هذه البلاد بل ونجد حرص الخلفاء كلّ الحرص على تشييدها لما لتلك الحصون والقلاع من دور فيالدفاع والحماية، فها هو عبد المؤمن بن علي يشيّد قصبة المهدي سنة 545هـ[2]، فقد كانت الحصون والقلاع ضرورة وجب بناؤها لما لها من دور في الدفاع والحماية.

-المستشفيات:

لم تشيّد المستشفيات في بلاد المغرب إلّا في العهد الموحّدي، وكان أوّل مستشفى بني المستشفى الذي شيّده المنصور الموحدي في مراكش[3] الذي يعتبر أوّل مستشفى بني في بلاد المغرب، وقد وصفه المراكشي بقوله: "وبُني بمدينة مراكش

[1]- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، ص113.

[2]- شرقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين، ص377.

[3]- ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص346.

بيمارستانا ما أظن أنّ في الدنيا مثله، وذلك أنه تخيّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح"[1] فالمرابطين لم ينشؤوا ولا مستشفى، وقد كان يطلق على المستشفى اسم بيمارستان وهي كلمة فارسية تعنى مقر المرضى[2] وقسّمت المستشفيات إلى قسمين: قسم خاص بالرجال، وآخر خاص بالنساء.

-المساجد :

لقد رأينا فيما مضى من عناصر هذا الفصل أنّ الدولة الموحّديّة قامت وبنيت على أساس ديني محض ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أنّ دولتهم وحكّامهم أعطوهم أسماء ذات صبغة إسلامية، فدولتهم كانت تسمى بالموحّدية نسبة إلى مذهب التوحيد، وحكّامهم أطلقوا عليهم اسم الخليفة لا الوزير أو الرئيس، لما لهذا الاسم من علاقة بالإسلام، فكما هو معلوم أنّ الخليفة

[1] - ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص347.

[2]- ينظر: عدنان خلف سرهيد الدراجي، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة 635- 897هـ، دار حميثرا للنشر، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، ط1، دت، ص395.

يعني الإمام والرجل الصالح الذي يخلف غيره ويتولى عنهم تسيير الحكم، ويطلق كذلك على السلطان الورع التقي[1].

فقد أخذ هذا المصطلح يتداول بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأطلق على الصحابة والخلفاء الراشدون من أمثال: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم[2].

ومن هنا كان واجبا على الموحدين الاعتناء كلّ العناية بالمساجد، فقد راحوا يشيدوا هذه البيوت العظيمة في كلّ حدب وصوب، حتى يتسنى لكلّ أبنائهم تأدية الصلوات المفروضة عليهم، فقد شهدت كلّ حواضرها أنشطة بناء عديدة للمساجد، وهذا راجع إلى ولع المؤسّس الأوّل لهذه الدولة ببناء الجامع، وحتى يتسنّى له فيها تعليم النشأ والناس عامة القرآن وأحكامه وفرائض الإسلام، ويتمكّن كذلك من الاجتماع بهم كلّ يوم ليقوم بنصحهم وتوجيههم.

ففي إحدى الرحلات التي قام بها المهدي منتقلا من بجاية إلى تلمسان وبالضبط في مدينة تدعى بـ كساس"وجد بها مسجدا معطلا فأمر بعمارته فعُمر، ثم منها نحو مليانة، ثم منها نحو وانشاريش، فنزلنا بالحضرة فوجدنا بها عبد الله

[1]- ينظر: إحسان عبد المنعم عبد الهادي سماره، مفاهيم أساسية في العقيدة الإسلامية، دار الكتاب الثقافي، عمان، الأردن، دط، دت، ص217-218.

[2]- ينظر: إحسان عبد المنعم عبد الهادي سماره، مفاهيم أساسية في العقيدة الإسلامية، ص218.

بن محسن الونشريسي المكنّى بالبشير ثم منها نحو تنملل متاع بني يزناسن فأمر المعصوم ببناء مسجد."[1]

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدي، فقد اهتموا هم كذلك بالمساجد حيث أنّ مراكش "لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ثلاثة أيام وكانوا يتشاورون على سكانها، فامتنع الموحدون أن يسكنوها فقام إليهم الفقراء فقالوا لهم لأي شيء لا تسكنوها؟ فقال لهم الموحدون: امتنع المهدي من ذلك، ولا سيما تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد عليه السلام ... فقال الفقهاء تطهّر وتسكنوها، فقالوا لهم: وما تطهيرها؟ فقال الفقهاء: تهدم جوامعها وتبنا جوامع أخرى، فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وإمالتها إلى المشرق."[2]

وهذا إن دلّنا على شيء إنّما يدلنا على عزم الموحّدين على محاربة الكفر والتجسيم الذي خلّفته الدولة المرابطية –في نظرهم– وهو في الوقت عينه حرص شديد منهم على التشييد الدقيق للمساجد متجنّبين في وضعها الخطأ والزلل في التصميم.

[1]– البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص19.

[2] – المصدر نفسه، ص66.

ومن المساجد التي بنيت في عهد الموحدين مسجد الكُتُبِيِّين "طوله مائة وعشرة أذرع، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعا، كان يرمى فيها عند انقضاء كلّ ساعة صَنجةٌ سعتها مائة دِرهم، تتحرّك لنزولها أجراس تُسمع على بُعْد، تسمى عندهم بالبَحَّانة"[1] بُني هذا المسجد بمراكش، وأطلق عليه هذا الاسم نظرا لكثرة بائعي الكتب بجنبه[2].

يُضاف إلى هذا المسجد مسجد حسان، بناه المنصور الموحدي، له هيكل فني خاص حيث "أنّ أعمدة المسجد قد جلبت من أماكن بعيدة بواسطة عربات، ويرتفع الجامع بنحو ثلاثين مترا عن سطح البحر، ويبلغ طوله 183م وعرضه 139، وقد بنيت المنارة بحيث تتوسّط أحد جوانب المسجد الأربعة، وهو تصميم لا يوجد في أي مسجد آخر بالمغرب حيث تشيّد الصومعة عادة في الركن المواجه للمحراب"[3] وهو بهذا الوصف يعتبر من أعظم وأوسع المساجد التي

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، 162.

[2] – ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص345.

[3] – المرجع نفسه، ج1، ص343.

شُيّدت في هذا العهد وقد كان الهدف من وراء هذه المساجد وغيرها "تطهير البلاد من آثار المرابطين- في نظرهم- حتى الدينية منها باعتبارهم مجسمة"[1].

كما بنى عبد المؤمن بن علي مسجد تنملل[2]، حيث أخذ اسم المهدي بن تومرت، فضلا عن الجامع الأكبر بتارودانت[3] الذي شيّده المهدي بن تومرت وهو كذلك ذو مساحة كبيرة.

تعتبر هذه المساجد المذكورة من أشهر الجوامع التي بنيت في عهد الموحدين، لتحقيق غايات وأهداف متنوعة على رأس هذه الأهداف نذكر:

3. تعليم الناس أصول الدين وركائزه الأساسية.

4. إنّ المساجد في هذا العهد كانت تبنى لأمور سياسية عسكرية محضة، ففي الكثير من الأحيان كان الخلفاء والوزراء يعقدون لجتماعات تنظيمية، تسدى فيها النصائح والأوامر لقادة الجيوش وعساكرها، ولأجل هذه الأهداف وغيرها سعى المهدي بن تومرت وغيره من الخلفاء الذين جاؤوا بعده سعيا وراء بناء المساجد والإكثار منها، حتى تخدم غاياتهم وتحقق أهدافهم المنشودة.

---

[1]- ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص344.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص344.

[3] - ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص344.

-المدارس:

منذ قيام الدولة الموحّدية سعى خلفائها على تعميم التعليم في كلّ المدن والقرى والقبائل، وجراء هذا وجدناهم قد شيّدوا العديد من المدارس، منها مدرسة المسجد الأعظم[1]، ويعدّ عبد المؤمن بن علي من أوّل الخلفاء[2] الذين شيّدوا مدرستين عامة وخاصة، هذا "لتخريج الضباط والولاة كالمدرسة الملحقة بقصر عبد المؤمن وكمدرسة الوداية لتخريج ضباط البحرية"[3]وإنّ التعليم في هذه المدارس ارتكز على تحفيظ القرآن وتفسيره وحتى تعليمهم الحديث النبوي الشريف، فقد كانت هذه الطريقة هي المعروفة والمشهورة عند أهل المغرب، بعد هذا ينتقل إلى معرفة العلوم والفنون الأخرى، وقد كان التعليم عندهم إجباريا "حيث كان لا يستحق عندهم الدخول في مذهبهم إلّا من درس عقائد المهدي"[4].

[1]- ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص345.

[2] - ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص401.

[3]- المرجع نفسه، ج1، ص345.

[4]- المرجع نفسه، ج1، ص346.

-الحمامات والفنادق:

اهتمّ الموحّدون بمثل هذه المرافق العمرانية اهتماما كبيرا، ففي عهد الناصر الموحدي شُيّدت العديد من الحمّامات، التي اتبع في بنائها نظاما موحّدا يقوم على " قاعة رئيسية لخلع الملابس، وفيها قبّة تقوم على أعمدة، وهناك قاعتان أخريان إحداهما للماء المتوسط الحرارة، والأخرى للماء الحار أمّا سقف لكل منهما فكان على هيئة قبو نصف اسطواني وفيها فتحات صغيرة ينفذ منها الضوء"[1] أمّا الفنادق فقد كانت هي الأخرى من الضروريات الواجب الاعتناء بها، لأنّها كانت من بين أكبر العوامل المسهّلة لعملية التجارة، فكما هو معلوم أنّ التاجر ينتقل من مكان إلى الآخر ويحتاج أن يقيم مدّة من الزمن ليقضي أموره.

ومن هنا اهتدى الناس إلى بناء هذه الديار حتى يتسنى للغريب الإقامة بها،وحتى تكون هي الأخرى من الأنشطة المساهمة في تطوير الخزينة المالية التي تساعد في دفع عجلة النمو والرقي نحو الأحسن.

-القناطر:

كما اهتمّ الموحدون بالمنشآت العمرانية الأخرى، اهتموا كذلك بحالة الطرقات وما تحويه من قناطر، فقد شيّدوا وبنوا القناطر بين المناطق لتربط بينها، ورمّموا ما

[1] - حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص403.

يحتاج إلى ترميم، فمن القناطر المرمّمة قنطرة تانسيفت، ومن التي شيّدوها جديدة، قنطرة بين سلا والرباط[1]، وربط عبد المؤمن بن علي بين مدينتي سلا والمهدية بواسطة قنطرة كانت من أشدّ وأطول القناطر[2]، وغيرهما من القناطر الهامّة التي اعتبرت جسرا للوصل بين المناطق المختلفة، وقد اعتنى الموحدون بهذا الجانب لأنّها من الأمور المسهّلة للتنقّل، فهم يحتاجون لها أشدّ الحاجة في تحركاتهم وتنقلاتهم التجارية وحتى العسكرية.

يظهر لنا أنّ الدولة الموحّدية عرفت حركة واسعة في مجال البناء والتشييد العمراني، فقد كانت هذه الحركة متنوّعة، شملت المنازل والقصور والمستشفيات والحصون والقلاع وغيرها من المنشآت التي لم نذكرها في هذا المجال خشية الإطالة والإطناب، هذا كلّه حتى تعزّز دولتهم بأرقى المنشآت وتظل صامدة ملبّية لحوائج رعيتها.

نستشف ممّا سبق النقاط التالية الذكر:

5. تعتبر الدولة الموحّدية من أزهى وأرقى الدول وأطولها تاريخا، فقد حكمت المغرب العربي والأندلس وجعلتهما دولة واحدة لها عاصمتين هما مراكش وإشبيلية.

[1] – ينظر: ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص347.

[2] – ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص405.

6. تعاقب على حكم الموحدين العديد من الخلفاء قدر عددهم بأربعة عشر حاكما باعتبار المهدي.

7. بنيت الدولة الموحدية على أساس ديني ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا الأساس الذي استقاه المهدي من خبراته وتجاربه المختلفة في الحياة ورحلاته العلمية وتعلّمه على يد ثلة من المشايخ وكبار الفقهاء.

8. استطاع المهدي وخلفاؤه الوقوف في وجه الزحف الصليبي نحو المغرب والأندلس، لمدة طويلة من الزمن لكن مع سقوطها أصبحت الأندلس تحت قبضة النصارى فزال جل ما بناه الموحدون.

9. شهدت الحياة الفكرية والاقتصادية تطورا ملحوظا في هذا العصر، هذا بفضل استقطاب الدولة للمفكرين والفلاسفة وعنايتهم العناية الفائقة بالعلماء المنتمين لها،كما أنّ الاقتصاد تطوّر بفضل السياسة الاقتصادية المنتهجة من الحكام، فقد أولوا كلّ المهن والحرف العناية الفائقة وجعلوا للأموال ديوانا خاصا يتكفّل بجمعها وتسييرها على طول السنة.

الفصل الثاني

أنواع الرسائل الموحدية و أهم أغراضها

الفصل الثاني: أنواع الرسائل الموحدية و أغراضها

المبحث الأول: الرسالة الديوانية:

-تعريفها:

تعرفنا فيما مضى على معنى الرسالة لكن من خلال هذا العنوان الجزئي بقي مفهوم الديوان غامضا نوعا ما، فالديوان في اللغة "مجمع الصّحف... وهو عند ابن السكين بالكسر وعند الكسائي بالفتح لغة مولدة وقال سيبويه: إنّما صححت الواو في ديوان وإن كانت بعد الياء ولم تعتل كما اعتلت في سيد، لأنّ الياء في ديوان غير لازمة، وإنّما هو فعال من دونت والدليل قولهم دُوَيْوِن، فدلّ ذلك على أنّه فعال، وأبدلت الواو بعد ذلك، ومن قال ديوان فهو عنده بمنزلة بيطار، وإنّما لم تقلب الواو في الديوان ياء وإنما كانت قبلها ياء ساكنة، من قبل أنّ الياء غير لازمة وإنّما أبدلت في الواو تخفيفا ألا تراهم قالوا دواوين لما زالت الكسرة من قبل الواو."[1]

ويكاد يوافقه الرأي صاحب المغرب في ترتيب المعرب، فالديوان عنده "الجريدة من دون الكتب، إذا جمعها لأنّها قطع من القراطيس...ويقال فلان من أهل الديوان أي ممن أثبت اسمه في الجريدة"[2]فالديوان في اللغة كلّ ما يتعلّق بالكتابة وآلياتها من صحف مملوءة أو فارغة.

---

[1] – ابن منظور، لسان العرب، مادة دون، ص1462،1461.

[2] – أبو الفتح المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، ص170.

والديوان في الاصطلاح "مؤسسة إدارية مخصصة لحفظ كل ما يتعلق بوثائق الدولة"[1]

لقد اختلف النّقاد في نسبة هذا المصطلح فمنهم من يرى أنّ أصل كلمة الديوان مشتقة من الأصل الفارسي (ديفان-divan) ويتزعم هذا الرأي نقاد كثر منهم الجوهري الذي يرى أنّ هذه الكلمة في الأصل أجنبية فارسية المنشأ لكنها عرّبت وأصبحت تعني الديوان وأصبحوا ينظمون بها أمورهم وإدارتهم[2]، ويوافقه الرأي البطليوسي الذي يرى أنّ الديوان اسم أعجمي عرّبته العرب، وأطلقوه على الكلام الكثير المجموع في كتاب واحد، ومن ذلك الشعر الكثير الذي يجمع في كتاب واحد يسمي هذا الكتاب الذي يجمعه ديوانا[3]، حتى ابن خلدون[4] وجدناه ينسبها إلى الفرس.

ومن النّقاد من يرى أنّها كلمة عربية كون كلام العرب قد وردت فيه بعض المصطلحات القريبة من معناه منها الصحيفة والقرطاس والكتاب، والدليل على قوله تعالى على سبيل المثال لا الحصر: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِيلِ لِلْكِتَابِ﴾5

---

[1]- بغداد غربي، خطة الكتابة على عهد الموحدين، أطروحة ماجستير في التريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2006-2007، ص 49.

[2] - ينظر: عبد المتعال محمد الجبري، أصالة الدواوين والنقود العربية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1989، ص8.

[3] - البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب، تح: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر،دط، 1996، القسم الأوّل، ص192-193.

[4] - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، مج1، القسم1، ص430-435.

[5]- صورة الأنبياء، الأية رقم 104.

لقد اهتمّت الدولة الموحّدية بالعلوم والفنون وبذلت قصار جهدها في تطوير الأدب نثره وشعره، ولعلّ الدليل الأكبر على هذا التطوّر هو إنشائهم لدواوين مختلفة منها: ديوان الإشراف وهو المتعلّق بالنظام المالي الموحدي، وديوان التمييز ذلك الذي يتكلّف بجمع التبرعات الموجّهة إلى الجيش وديوان الإنشاء المكلّف بالمكاتبات الرسمية، أو ما يعرف بالكتابة الديوانية.

إنّ أغراض الرسالة تختلف باختلاف المواضوعات والمضامين التي تحويها، فنجد منها الديوانية أو ما يسمّى بالرسائل الرسمية أو السلطانية والإدارية، وتتناول كل ما يتعلّق بالدول وأمورها الإدارية السياسية و كذا الاقتصادية، فهي تصدر عن جهات رسمية كملوك الدول وحكّامها، إذ يكتبها هذا الأخير أو يكلف كاتبه الرسمي بذلك.

سمّيت هذه الرّسالة بالديوانية نسبة إلى الهيئة التي تصدر عنها، فهي مكاتبات تصدر عن السلطان أو الحاكم، وديوان إنشائه هو الذي يتولّى إخراجها وختمها، والديوان مصطلح فارسي بإجماع جلّ الباحثين "ويدلّ على المجانين، ويروون في هذا الشأن رواية مفادها أن كسرى ذات يوم دخل على كتّابه وهم يحسبون على أنفسهم كأنّهم يحادثون، فقال: ديوانه أي شياطين، فسمّي مكانهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء لكثرة الاستخدام تخفيفا لنطق

الاسم فأصبح ديوان"[1]، وفد هذا المصطلح إلى البيئة العربية مع الأمويين فالعباسيين، كون بيئتهم كانت مهد لتوافد العديد من الأجناس الغربية الفارسية والهنديّة.

والرسالة الديوانية هي "ممّا يكتب به الرئيس إلى المرؤوس و المرؤوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير"[2]. والكاتب الديواني في نظر القلقشندي وجب عليه أن يكون ماهرا، بليغا، ذا معان تروق لها القلوب والأسماع، ومن موضوعاتها التهاني في المناسبات الرسمية كالتهنئة بالولايات أو بالإمارة، أو بولاية القضاء أو الديوان[3]، أو في المواسم والأعياد وحتى التعازي وغيرها من الموضوعات.

ويعتبر هذا النوع من الرسائل " أقدم وثيقة تاريخية تطلعنا على أهمّ جوانب الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب والأندلس إذ بها تحدّد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بها تُبَلغ أوامر ملوك الدول ونواهيهم، كما تعطي صورا واضحة عن قضايا العصر سواء أكانت العلاقة مع الرعية أو مع البلدان المجاورة في حالتي السلم والحرب، وبها تبلغ الانتصارات في المعارك، كما تدعو إلى الجهاد والقضاء على الفتن والنيل من المتمردين الخارجين عن الطاعة ثم ارتقت إلى أن أصبح يتعيّن بموجبها القضاة والعمال والولاة وغيرهم من ذوي المناصب

[1] – الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج1، ص90.

[2] – أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص5.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص 6-13-21.

الرفيعة"[1] إذ ظهرت هذه الرسالة الديوانية إلى الوجود وكثرت بعدما اتسعت عملية الفتوحات في أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي حيث "كانت الحاجة ملحّة لتكوين مجتمع جديد منظّم في شؤونه الدينيّة والدنيويّة"[2] .

ويشترط في الرسالة الديوانية أن تتميّز بوحدة موضوعاتها وسهولة مفرداتها، وبساطة أفكارها ووضوحها وجلائها، فهي لا تقبل المعاني التي تؤوّل، بل يشترط فيها دقّة المعاني.

-أغراضها:

الكتابة الديوانية هي كلّ المكاتبات الرسمية الصادرة عن جهة رسمية للدول، كأن يكون محبّرها خليفة أو وزيرا، أوسلطانا أوملكا، أووواليا أوقاضيا، أغراضها متنوّعة منها: رسائل البيعة، الرسائل الحربية بما فيها من رسائل الفتوحات والجهاد، رسائل الاحتفاء بالنصر والتهنئة به، رسائل العتاب والتقريع بسبب الهزيمة في المعارك، رسائل الاتفاقيات وكذا طلب الإمدادات العسكرية، ثم رسائل الفتوحات والجهاد، رسائل التوقيعات، رسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رسائل الشكوى والمعاهدات والوعود، وكلّ واحد من هذه الأغراض إلّا ولنا تفصيل عنه.

عدّ هذا النوع من الرسائل وباختلاف أغراضها واحدا من أهمّ المكاتبات وأكثرها أثرا لما تحويه من لغة جمياة وبلاغة راقية، حيث نجد أصحابها كثيري الحرص على أساليبهم، فتارة

[1]- سامية جباري، أثر القرآن الكريم في المكاتبات السلطانية الأندلسية،حوليات جامعة الجزائر 1، الجزائر، ع29، ج2، ص37.

[2]- ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، ص114.

يغلب عليها الإطناب وتارة الإيجاز وتارة أخرى تتصف بالاعتدال، كما وجدناها تمتاز بجملها المسجوعة الموشاة بالبديع، كما ألفينا كلمها ممزوجا بين الجزل الراقي والسهل الممتنع، وهنا يراعي صاحبها الطبقة المستقبلة لهذا المكتوب. ونلاحِظ في هذا النوع من الرسائل، اعتماد أصحابها على الاقتباس لأنّها تبدأ بالجمل التي تتضمن الدعاء، وهي بهذا تشكّل حلقة مهمّة ومزدهرة من النثر الفنّي الموحّدي.

إن المتتبّع للرسائل الموحّدية والمتمعّن فيها يجد الرسائل الديوانية تغلب على بقية الأنواع الأخرى ويعود ذلك لطول المدّة الزمانية لحكم الموحدين وكثرة حروبهم وأيامهم، إذ وجدناها تعالج الجانب الخارجي للدولة، واعتمدها الخلفاء الموحدون لأجل نشر دعوتهم، وتوسيع رقعتهم، وقد اعتمدوا على فنّ الرسائل دون غيره من الفنون، لما له من سهولة في الصياغة، ودقّة في التعبير، ولما يحمله من أساليب مباشرة تخاطب المتلقي فتتسلل إلى عقله وقلبه معا.

كانت الرسالة الديوانية كالبصمة الإشهارية التي تثبت فيها العضات وتسنّ فيها القوانين وتقدّم من خلالها النصائح، وبذلك شكّلت أهمّية بالغة، و وزنا تاريخيا ثقيلا، لما فيها من تبصرة ولمحة عامّة ومفصّلة عن الدولة وما دار فيها من معارك وأحداث، وهي تبيّن مدى الرقي الثقافي للخليفة الموحدي ورعيته. كما تبرز الجانب الحضاري المزدهر للدولة.

كانت الرسائل الديوانية تحبّر من قبل كاتب مكلّف بذلك من قبل الخليفة، فيسند له الديوان وإدارته، كما نجد أحيانا أخرى الخلفاء هم من يقومون بهذه الأعمال بأنفسهم.

➢ **رسائل البيعة:**

قبل الشروع في رصد هذا النوع من الرسائل الموحّدية يجدر بنا أن نقدم تعريفا لمصطلح البيعة في اللغة والاصطلاح.

البيعة في اللغة مكوّنة من ثلاثة حروف أصلية "الباء والياء والعين أصل واحدٌ، وهو بَيع الشّيء، وربّما سمي الشّرى بيعا. والمعنى واحد. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يَبِع أحدكم على بَيع أخيه) قالوا: معناه لا يشتري على شِرَى أخيه. ويقال بِعتُ الشَّيء بيعًا، فإن عرضته للبيع قلتَ أبعتُه"[1]، ومنه كذلك "التولية وعقدها"[2].

والبيعة عند أحمد رضا من باع يبيع بيعة وهي: "الصفقة على إيجاب البيع، ج.بَيعات. والصفقة على إيجاب الطاعة،"[3] وعليه فالبيعة عقد وصفقة تبرم بين طرفين على أن يكون الولاء حاضرا فيها.

واختلف العلماء في مفهوم البيعة في الاصطلاح فهي عند ابن خلدون أمر سياسي يقوم على أسس دينية يقول: "العهد على الطاعة، كأنّ المبايع يعاهد أميره على أنّه يتم النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من أمر على المنشط المكره، وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا

[1]- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، دت، ص327.

[2]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2007، ص79.

[3]- أحمد رضا، متن اللغة موسوعة لغوية حديثة، مج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1958، ص373

للعهد"[1]، إنّ البيعة من خلال هذا التعريف نجدها تجمع في ثناياها العديد من القيم، فالرسالة الرسمية وبالأخص رسالة البيعةو، تسعى إلى تنظيم شؤون الدولة العامة منها والخاصة، إضافة إلى هذا فهي ذات حمولة أدبية هامّة وهذا راجع لما تكتنزه من فنون أدبية راقية كاستخدام الكاتب للشعر، واختياره لفصيح المفردات وجزلها.

إنّ رسائل البيعة ذات أهمية بالغة فهي تحمل العديد من الأحداث والأخبار التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لمختلف الدول.

وهي إعطاء مجموعة من الأفراد – المكوننين من عامة المجتمع أو خاصته من الأئمة أو الوزراء أو الملوك أو الولاة – عهدهم لشخص معيّن كلّف من قِبلهم بإدارة شؤون قبيلة أو دولة معينة، على أن يكون هذا المبايع قادرا على إدارة شؤون الدولة والرعية، أمينا عادلا بين الناس.

وتعني البيعة " الموافقة على اختيار الخليفة الجديد وليست هي الانتخاب أو الاختيار، ذلك لأنّ البيعة تتم بعد اختيار أهل الحل والعقد للإمام، وعلى الأمّة بعد ذلك السمع والطاعة."[2]وفيها التزام "بالعمل بكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم، ويلتزم المبايعون بالسمع له والطاعة، فإذا حاد عن التزامه حاز لهم عصيانه، وإذا عصوه مع التزامه

[1] – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص261.

[2] – أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق، كلية الآداب ، دار الرازي، القاهرة، مصر، ص 22.

قَاتَلهم على ذلك"[1]، وهي بأسلوب آخر " إمّا أن تكون عهدا يلزم به المبايع له مع الله، أوتكون قسما، أوصفقة يمين"[2]تتفق عليه الجماعة من أهل البيت.

كانت الدول في القديم ولا سيما الدولة الموحّدية تقوم على نظام الحكم الملكي الذي يفرض توالي الحكام أبناء البيت على تسيير شؤون الدولة، وبعد وفاة المهدي بن تومرت أصبح الحكم الموحّدي وراثيا، وهنا اقتضى على الرعية مبايعة أحدهم ليكون خليفة لابن تومرت.

ويثبت في هذا النوع من الرسائل تاريخ البيعة وأركانها وشروطها ومكانها وأهلها ومن حضر فيها من أكابر الدولة، حيث يتم فيها بعد التصلية والتسليم وذكر الله عزّ وجل، ثمّ ذكر مجموعة من الأوامر والنصائح وتختم بالتذكير بالوفاء بالعهد وطاعة الأمير.

ومن أهمّ نصوص البيعة نص بيعة بعض القبائل من أهل مراكش للخليفة الرشيد*الذي تولّى الحكم بعد وفاة أبيه المأمون**، في آخر ذي الحجة سنة 629هـ، ومما

[1] – المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

[2] – سامية جباري، أثر القرآن الكريم في المكاتبات السلطانية الأندلسية، حوليات، جامعة الجزائر1، الجزائر، ع29، ج2، ص40.

*- الرشيد : هو محمد عبد الواحد الرشيد ابن المأمون ابن المنصور، خلف والده المأمون في الحكم، ولقّب بالرشيد. بويع بعد وفاة أبيه بيومين، وبالضبط يوم الأحد الفاتح من محرّم سنة 630هـ، وهو لا يزال صغيرا ذو أربع عشرة سنة، مات الرشيد غرقا بمراكش في التاسع من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة. (ينظر:أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، ص244-246).

جاء فيها: "الحمد لله الذي شيّد بالإمامة أركان الإسلام، وحفظ بها دين محمّد عليه السلام، وجعل طاعة من استحقّها وأدّى حقّها من فروض الأعيان ، ونظم بتقليد بيعة من اختاره لخلافة في أرضه، وارتضاه لإقامة سنّته وفرضه عقود الاعتقاد، وتمّم به شروط الإيمان، والصلاة على سيدنا محمّد رسوله المبعوث لخير أمّة في خير زمان،... اللهمّ ارض عن خليفتك في بَراياك،...أمير المؤمنين أبو محمد عبد الواحد بن سيدنا الخليفة الإمام المأمون أمير المومنين أبي العلي بن الخلفاء الراشدين، اللهمّ كما انتخبته من خَير نِصاب، وأعدت به الدولة المأمونية إلى عنفوان الشباب، وجمعت بعدله ضروب الأشتات كما جمعت بفضله جميع الأسباب، وحسمت بحسامه مواد الشرك والارتياب؛ اللهم اجعل كلمته العليا، وامنحه من قسم السعادة والنعم المستزادة ما يجمع له بين سعادتي الآخرة والدنيا"[1].

إن المتأمل في هذه الرسالة يجدها تبدأ بحمد الله عزّ وجلّ، والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلّم بأسلوب راق سلس، والتسليم على سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلّم بأسلوب راق سلس، ثم بعدها يذكر الخليفة و الدعاء له، وهذا الأسلوب يكاد ينطبق على كافة الرسائل باختلاف أضربها وأغراضها.

** - المأمون: هو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور، خلف أخيه يحي بن الناصر حينما بايعه اهل الأندلس والموحدون يوم الأربعاء الثامن والعشرون من شوال سنة أربع وعشرين وتسعمائة. (ينظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 233).

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، ج1، ص389-390 .

لم تقتصر الرسالة عند هذا الحد بل واصل كاتبها – المجهول – القول: " فهذا ما أجمع عليه الكافة من بني فلان، خصوصهم وعمومهم من عقد بيعتهم الموطّدة الأركان ...واعتصموا بمتن حبلها، واهتدوا بيمن سبلها، وأوجبوا بها على أنفسهم طاعتَه، واعتقدوا بعقدها موالاته ومشايعتَه، ...مبايعة موثّقة الإحكام سَنّيةَ الأحكام"[1].

والملاحظ على هذا الجزء من الرسالة أنّ صاحبها قد ذكر الأشخاص القائمين على هذه البيعة، وبيّن الشروط التي على أساسها تمّت البيعة منها: الطاعة، الوفاء، إخلاص النيّة، السمع والطاعة لأوامر الخليفة، العدل والأمانة، غير أن هذه الرسالة تفتقر إلى ذكر تاريخ هذه البيعة.

ومن ذلك ما كتبه أبو جعفر بن عطية عن بيعة عبد المؤمن بن علي* الموجّهة إلى القاضي أبي القاسم، يخبرهم فيها بتمام البيعة ووصول الوفد النائب عن ذلك، حيث يقول: "من أمير المؤمنين أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته –إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج– أدام الله كرامته بطاعته وتقواه– ...فإنّا كتبناه إليكم –كتب الله لكم عقد الإيمان وربطه، ونظم لكم بطاعته سلك العمل وسمطه– من حضرة مراكش –حرسها الله–ونحن نشكره سبحانه على إفاضة الخير ونشره، وصلة تيسيره لأوليائه ويسره.

وقد وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمّد، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون –أكرمهم الله بتقواه– فأدوا من حقّ هجرتهم البرّة ما قلّدوه،

[1]–أحمد عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة،، ص ن.

ونالوا من خير الزيادة البيعة ما اعتمدوه؛ ثم انصرفوا مبرورين مسرورين بما ألقوه من بركة هذا الأمر الكريم ووجدوه. وقام عذركم –وفقكم الله– على ساقه فقُبل، ومثَلَ ولاؤُكم نائبا عن الوصول فوصل. ولكم عندنا _ وفّقكم الله و أكرمكم – من حظوظ التقريب والإيثار، وموالاة التنبيه على سبيل الدوام لكم والاستمرار، فوق ما تؤَمّلونه، وخير ما تستقبلونه. فاشكروا الله على ما وهبكم، وتقرّبوا إليه بالأعمال الصالحة يضاعف قربكم، والله يحفظ إيمانكم وأمانتكم."[1].

ومن الرسائل التي تدخل في نطاق مكاتبات البيعة، تلك الرسائل التي تؤكّد فيها البيعة و تؤيّدها من ذلك ما كتبه السيد أبو زيد عبد الرحمن والي بلنسية، وهي رسالة من تحرير أبي المطرّف بن عميرة يقول فيها: "ولما هبّت عيون البشائر عن نومها، وتشرّفت خطبة الجمعة إلى الدعاء لأيام المخصوصين بيومها، وعَلم العبد أنّ التّرغيب في المسارعة إلى الخير حُكم من أحكام الشريعة، وقصدٌ هو إلى نيل الثواب من أكرم ذريعة، وأنّ خير هذه البيعة السعيدة قد تعيّن إعلانه وإبداره، وفرضها من قبيل ما يجب في أوّل الوقت أداؤه، ألزمها نفسه على أوعب فضولها المكرّمة، وأكرم شروطها المبرمة ودعا الناس إليها فأقبلوا مهطعين، إلى الداعي مسرورين"[2].

[1]– ليفي بروفنصال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط، المغرب، 1941، ص 3-4.

[2]– أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص354-355.

إن ما يلاحظ على نص هذه البيعة الإطناب والطول، كما تظهر فيها براعة الأسلوب الممزوج بالاقتباس القرآني واللغة الجزلة الموشّاة بأساليب البديع المختلفة، فنجده يقول " فكتب العبد – كتب الله تعالى للمقام العلي سعدا مطلق الأعنة، وعزما ماضي الأسنّة، مسعدا على ما ينويه من إقامة الفرض والسّنة – من بلنسية، والإيمان في الذروة العالية راق، والأرض بنورها ذات إشراق، والبشائر قد قامت على سياق، واتّسق وفدها أجمل اتساق، ونفوس المسلمين قد غشيها الأمان، وتمحّض لها عن أسعد أيامها الزمان"[1].

إن ما ميز هذا النص استخدام الكاتب السجع وظهر في الكلمات التالية: راق، سياق، إشراق، اتساق، واعتماده غلى الجناس الناقص في كلمتي الأعنّة والأسنّة، وفي لفظتي الزمان والأمان وهذا ما زاد النّص اتساقا وانسجاما، وجمالا ورونقا.

تظهر بيعة والي بلنسية من خلال الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة، وقد تمّت هذه البيعة في يوم الأحد 13 من ذي الحجة سنة 620هجرية بمراكش[2].

وقد كتب ابن العياش نصّ رسالة بيعة المستنصر وبعث بها إلى أمراء الدولة الموحّدية وفيها قال: "تبايعون أمير المؤمنين عل ما بايع عليه أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، رسول الله، من السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين. هذا ما له عليكم. ولكم عليه ألا بجمر بعوثكم، وأن لا يدخر عنكم شيئا

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص 254.

[2]- ينظر: المرجع نفسه،ج1، ص 254.

مما تعمكم مصلحته، وأن يعجل لكم عطاءكم، وأن لا يحتجب دونكم، أعانكم الله على الوفاء، وأعانه على ما قلد من أموركم."[1]

ومن أضرب رسائل البيعة نجد كتاب الأحقّية بالخلافة، حيث وبعد خلع الخليفة العادل*واغتياله، حاول المعتصم أن يأخذ مكانه من خلال استمالة الناس إليه، وإظهار أحقيته في الحكم، زاعما أنّ أخاه المستنصر كانت له النّية المسبقة في إسناد الحكم له، فكتب هذه الرسالة وهي من تحبير كاتبه أبي الحسن السرقسطي، يقول فيها: " ولما كانت هذه القلادة لم تزل من لدن سيدنا الإمام تنتقل من يد إمام إلى نجله، وكان الأمر من مستحقيه وفي أهله، إلى أن بلغ الأمر إلى المستنصر بالله أمير المومنين، والناس في أمنة وفي تهدين؛ ولو أجّله أجله وساعده الأمل لألقى هذه القلادة إلينا"[2].

ويضيف قائلا: "فكونوا من ذلك على بيّنة ويقين واعلموا أنّ الله قد جاءكم يمن يسهر وأنتم نائمون، ويقوم بما يعود بالأصلح عليكم وأنتم قاعدون، ويقضي لقاصيكم ودانيكم بالدّعة والهدون، فاستقبلوا زمنا جديدا، وتفيّأوا ظلّ الدعة مديدا، واعلموا أنّنا نستقبل المسلمين بنظر يزيدنا محبّة ويعرّفنا ما لنا من الرفق والحُنو عليهم، فإنّ مَقصودنا في

[1]- عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص330.

* - العادل:هو أبو محمد عبد الله ابن المنصور رحمه الله بويع في منتصف شهر صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة، ولقب بالعادل في تطبيقه لشرع الله وأحكامه. (ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ص 231)

[2]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 379-380.

الأمّة جميل"[1]. لغة هذه الرسالة بعيدة كلّ البعد عن الموضوعية، لغة أطلق فيها العنان للعاطفة، وهذا حتى يستميل الناس إليه ويرغبهم فيه، ويدفعهم دفعا لمساندته ومبايعته.

تقلّد يوسف بن عبد المؤمن** الحكم بعد وفاة أبيه، إلّا أنّه لم ينل إجماع العامّة، فلقّب بلقب الأمير لا أمير المؤمنين، لكن لم يدم هذا اللقب طويلا، إذ بعد خمس سنوات وبالضبط "بمراكش في أوائل سنة 563هـ."[2]

جدّدت له البيعة من قبل أهل إشبيلية وغرناطة، وذلك في جمادى الآخرة، فكتب أحمد بن محمد بيعة أهل إشبيلية، يقول فيها:" فإنّه لما اجتمعت طائفة التوحيد، وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءَهم من أهل الحق والتّحقيق، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المومنين أبي يعقوب بن أمير المومنين – خلد الله أمرهم وأعز نصرهم – بالاسم المبارك الكريم، الذي أوّل من دعي به الفاروق رضوان الله تعالى عليه، فعرف الله من يُمنه ما فتح لملة الإسلام شرقا وغربا، وأحال الدول بيد ساقيهم فاستحالت غرب، حتى ضرب الدين بجرانه،...فجدّدنا من بيعته على الاسمية المباركة فرضا أوجبه الشرع وجوب الإلزام، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكّدة على الكمال والتمام، فبايعناه على السمع والطاعة بيعة ايمان وأمانة، وعدل وعبادة، والتزمناها في العسر واليسر"[3].

---

[1] – المرجع نفسه، ج1، ص380.

[2] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1،ص 110.

[3] – المرجع نفسه، ج1، ص111.

إن هذه البيعة بنيت على مجموعة من الشروط أهمّها السمع والطاعة، وهما "ركنان أساسيان من أركان استقرار الحكم والنظام واستمراره، والسّمع والطاعة سبيلان من سبل التّقدم الحضاري على جميع مستوياته الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية."[1]

و رسالة أهل غرناطة أنشأها كاتب مجهول لم تذكر المصادر اسمه يقول فيها: " لما اختص الله تبارك وتعالى طائفة التوحيد، بما هم عليه من العمل السديد، والسبيل الحميد، والسعي السعيد الرشيد، اجتمعت نفوسهم بعد توفيق من الله تعالى لهم، ومستقبل سعد يدّخرون فيه عملهم، أن يجدّدوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المومنين أبي يعقوب ابن الخليفة أمير المومنين...جدّدنا الآن من بيعة سيدنا ومولانا أمير المومنين أبي يعقوب بن أمير المومنين – أدام الله تأييدهم – على الاسمية المباركة العظيمة... فبايعنا سيدنا ومولانا على السمع والطاعة ومنهج الجماعة، بيعة إيمان وأمانة، وعدل وعبادة، تبركا بأمرهم واستنجادا بالله تعالى على ما يجب فيها من طاعتهم ونصرهم، اقتداء فيها ببيعة الشجرة، وبأصحاب رسول الله المومنين البررة، التزمناها في كل الأحوال، وأخلصنا لها الضمائر في كافة الأعمال"[2].إن هذه البيعة بنيت هي الأخرى على السمع والطاعة، وعلى الالتزام بالعدل وقول الحق وإخلاص النوايا في الأعمال، والبر والعبادة.

والرسائل في هذا تكثر لأنّ الدولة الموحّدية كثر حكّامها وتوالى عليها ما يزيد عن العشرة خلفاء، فها هو أبو القاسم العزفي يكتب رسالة إلى الخليفة المرتضي الموحدي لإي

[1]– أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق، ص69.

[2]– أحمدعزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص112-113.

إرسال مجموعة من أعيان سبتة، ليقدموا البيعة إلى الخليفة المذكور، وليبرزوا ما تعانيه سبتة من مشاكل اقتصادية "وهذا من جرّاء المبلغ الباهظ، الذي كان قد فرضه عليهم النصارى، ومن الجفاف الذي أصاب منطقة سبتة"[1] فيقول في هذا الشأن: "وإلى هذا والى الله سعودكم، وحرس وجودكم، فقد تقدّم خطاب معظمهم في هذه الأيام، بذكر ما هدى الله تعالى من الاعتصام، بالدخول في دعوة الحقّ، والركون لحرم الإمامة التي ارتضت الخالق قياما بمصالح الخلق، وتقرير ما كان في تكميل البيعة السعيدة من العمل المرجو بحسبه عموم الصلاح وشموله، والتأسيس لمبانيها على الإخلاص، الذي لا ينفع اللع بعمل ما لم تكن هذه السبيل سبيله، والاعتماد فيها على إقامة رسم الدين، الذي لا يشوبه عرض، ولا يتعلّق بما اتّجه فيه من الأغراض الدينية للدنيا غرض؛ إذ كان أيمن الاعمال فاتحة وعاقبة، وأحراها بأن لا تزال السعادة له مصاحبة ما تمخّضت فيه لإدارة وجه الله تعالى الطويات، ورفضت دونه الأطماع الدنيويات ولا سيما والحضرة الكريمة العلية المرتضية التي سُنّيَ للنفوس من الاعتلاق بحبلها ما ارتجته"[2].

إنّ موضوع البيعة موضوع مهمّ بالنسبة للموحدين فقد علّقوا آمالهم عليها حيث كانوا يطمعون في صلاح البلاد، وتحسين حال الشعب، وهذا لا يتمّ لهم إلّا بالنّية الحسنة للخليفة، والإخلاص والحكم الصائب المستنبط من الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما مصادر التشريع الإسلامي.

1 – طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 167.

2– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 167–168، نقلا عن: القبتوري: رسائل ديوانية من سبتة، ص110.

إنّ هذه الرسالة رسالة اقتصادية بالمقام الأوّل، فأهل سبتة اشتكوا للخليفة الموحّدي ظلم النصارى لهم، حين فرضوا عليهم ضريبة باهضة تقدّر بسبعين ألف دينار، فعاشت سبتة جرّاء هذا الأمر في خوف ورعب من امكانية احتلال النصارى لهم، واستلائها على بلادهم وثرواتها، فجاءت هذه الرسالة في قمّة بلاغتها وجمالها، وهذا على الرغم من صعوبة إبراز العواطف والإفصاح عن المكنونات في مثل هذه الرسائل الرسميّة، كما يتراءى للبعض أنّ الرسائل الرسمية تندر فيها فنون البلاغة المختلفة، إلاّ أننا وجدناها ذات صياغة بليغة، تقوم في الكثير من الأحيان على القالب الفني الأدبي البحت، المكوّن من الأساليب البلاغية المتنوّعة، كالسجع والصور البيانيّة، كلّ هذا ساهم في توضيح المقصود من وراء هذا المكتوب.

وإنّ الإكثار من إيراد الصفات يعود بالأساس إلى رغبة الكاتب في استدرار عاطفة المرسل إليه ألا وهو الخليفة الموحّدي، حتى يرضى عنهم ويمدّهم ما يحتاجون من معونة، وبغية منهم في لفت انتباه الخليفة اتجاههم واتجاه أوضاعهم المزرية التي يعيشونها.

من خلال هذا العرض لهذه الرسائل تبيّن لنا بأنّها قامت على بنية خاصّة، فوجدنا المعاني جلّها دينية، مأخوذة من الذكر الحكيم والحديث الشريف، أمّا جملها وكلماتها وأساليبها المختلفة، منمّقة بفنون البديع، وموشّاة بحسن البيان، فقد جاءت جملهم خادمة للمعاني، وُفّق أصحابها في اختيارها.

هي رسائل سياسة دينيّة حتى لا نكاد نفصل بين هذين المستويين في الرسالة الواحدة، لأنّ الهدف المنشود من وراء هذه البيعات المختلفة أساسه المصلحة الدينية والدنيويّة لأهل الدولة الموحّدية.

واللافت للانتباه إنّ الكاتب كان يحمل في داخله الولاء الكبير للخليفة، فهو ينظر إليه نظرة تقدير واحترام، والدليل على ما نقول كثرة الجمل الدعائية في الرسالة الواحدة، وهذا الأمر له علاقة وطيدة بفرقة الإمامية الشيعية التي ترى طاعة الخليفة أمر واجب، بل "إنّها من أركان الدين كالشهادة، والصلاة والزكاة والصوم، والحجّ، بل لا تقبل تلك الفرائض إلا بطاعة الإمام"[1].

إنّ الملاحظ على رسائل البيعة هذه كانت متعدّدة المواضيع، فوجدنا فيها الدعاء، والتعزية، والتهنئة، والتهديد والوعيد، والمدح والذّم، والتعظيم والاحتقار، وغيرها من الأغراض الأدبية وهذا الأمر هو ما جعل الرسائل تعتبر فنّا من فنون النثر الفنّي الجميل.

لم تكن البيعة تكتب فقط بعد وفاة الخليفة، بل وجدناها أحيانا تكتب في حياة صاحبها، وهذا لما يحسّ الخليفة بالضعف أو المرض، أو يحسّ قرب أجله، وهذا ما فعله المنصور، فلمّا اشتدّ المرض أراد أن يحتاط وهذا بتكليف ابنه عبد الله محمد الناصر الحكم بعده، وهذا في نصّ بيعة رسمية يقول فيها: "فبايعوه بمقتضى أمره العلى، ونصّه الواضح الحلى، بيعة مباركة سعيدة، استقبلوا بها آمالا فسيحة مديدة، وأعمالا من البر والتقوى جديدة،

[1] – طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 172.

أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان، وأسحبت فواضل الإنعام والإحسان، وازدادت بهاء وجمالا معالم الإسلام والإيمان..."[1] هي جزء من رسالة كتبها المنصور، لتبعث بعد موته إلى أهالي البلاد الموحّدية، وهذا ما قام به حلفاؤه بعده.

ومن جملة الملاحظات على هذا الغرض أنّه اتّسم بـــ:

- اللغة المفهومة الدّالة على المعنى بكلّ وضوح غير قابلة للتأويل.

- البعد عن الغلو في التصنّع والزخرف في التعبير، ممّا جعل التعبير صادقا.

- اللغة الموضوعية والبعد كلّ البعد عن الخيال، لأنّها رسالة تخاطب المنطق والعقل لا القلب.

كثرة الجمل الدعائية، وهذا راجع ربّما إلى عامل الولاء الكبير الذي يكنّه الكاتب إلى خليفته.

- **الرسائل الحربية:**

لم تتوقّف الرسائل الرسمية على موضوع البيعة، إنّما تعدّته إلى مواضيع وأغراض أخرى، وهذه المواضيع جدّ مهمّة حيث كانت المرآة العاكسة لحال المجتمع الموحّدي، ومن بينها الرسائل الحربية.

فهذا النوع من المكاتبات يتناول فيه صاحبه الحروب والمعارك موضوعا له، فقد شهدت الدولة الموحّدية العديد من الأيام والمواقع، -كحادثة الإرك*، وثورة العقاب**،

[1] - محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص 190.

* - هي غزوة كبرى وقعت في بلاد الأندلس خلال حكم الموحدين، في عهد يعقوب المنصور بينه وبين الفنش صاحب طليطلة، الذي نهب بلاد الأندلس وخرّبها، لكن سرعان ما قاتله يعقوب المنصور سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.(ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص185).

وغيرهما الكثير- كان هذا بغية محاربة النصارى أو المرابطين، أو حتى محاربة أهل الفسق والكفر.

كلّ هذا لقي صدى وأثرا بالغا في أدب الرسائل، إذ كانت هذه الحروب بمثابة المحفّز الأساسي لمجموعة من الكتّاب، لأجل إنشاء عدد هام من الرسائل الخادمة للخلفاء والمعينة للتواصل بين الجيوش في ساحة الوغى.

ومن أغراض الرسائل الحربية نجد:

- **رسائل الجهاد:**

والجهاد في اللغة القتال في سبيل الحق وهو من أنواع:جهاد النفس وجهاد العدو ومقاومته.

وهذا النوع من الرسائل فيه دعوة للناس إلى الجهاد، مَبينّةٍ أهدافه، و مزاياه، كان هذا من أجل توسيع رقعة الدولة، أو لأجل قمع أوجه الرذائل والحدّ منها.

والمتصفّح للرسائل الديوانية الموحّدية يصادف الكثير من الرسائل الخادمة لهذا الغرض، من ذلك الرسالة المنظمة1،للمهدي بن تومرت التي توجّه بها إلى من يناصره ويؤمن برسالته من الموحّدين "إلى جماعة أهل التوحيد وفقهم الله لما يحبّه ويرضاه... كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتّصلت بنا أخباركم، وقيامكم في نصرة الحق واجتهادكم على إحياء السّنة، وتآلفكم وتعاونكم على إظهار الحق، واجتماعكم على إخماد الباطل والضلال،وجهاد المجسّمين

** العقاب حرب دامية وقعت خلال حكم الناصر ضد الفنش التي نهب وأكل خيرات الأندلس، سنة سبع وستمائة، إذ اجتمع معه ستمائة ألف مقاتل، (ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص 220).

والمفسدين، فحمدنا الله تعالى على ذلك وشكرناه إذ منّ علينا بالإخوان على إظهار الدين وإحياء السنة"[1].

يظهر لنا من بداية هذه الرسالة أنّ المهدي بن تومرت كان صريح الخطاب موجّها حديثه إلى أهل الموحّدين كافة دون تحديد أو تفضيل " إلى جماعة أهل التوحيد "، كما ألفيناه يؤكّد على رابطة الأخوّة التي بين أنصاره، و هذا من خلال تكرار لفظ **الإخوان** وحتى إخوانكم .

يواصل المهدي رسالته هذه بتعظيم أمر الجهاد والمجاهدين فيقول:" فلما كان الحق لا ينصر والدين لا يظهر إلّا بأنصار الحق والمجاهدين عليه، عظم الله أمر المجاهدين وبيّن فضلهم، وأخبر أنّ الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تنجي من عذاب أليم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُهَا الذِينَ آمَنُوا هَل أَدُلَّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيم﴾، فسماه تجارة لما فيه من الأجر الدائم، والثواب الباقي استعارة وتقريبا للأفهام ليفهموا ما فيه ويرغِّبوا فيما ذكر فيه من درجات المجاهدين وما أعدَّ الله لهم، فسمّي الجهاد تجارة لما فيه من البيع والشراء، لأنّ المجاهد باع نفسه وماله من ربه، فاشترى منه ربّه ماله ونفسه بالثمن الباقي الدائم الذي لا زوال له وهو الجنة ونعيمها"[2].

الملاحظ على هذا النّص أنّ صاحبه أراد أن يخاطب القلوب قبل العقول وهذا بتوظيفه لمجموعة من المصطلحات ذات الوقع الكبير على مشاعر الناس وأحاسيسهم، فكنّا

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية،ج1، ص44_45.

[2]- المرجع نفسه، ج1،ص45.

به في مقام يحمّس الناس على الجهاد ويرغّبهم فيه، وهذا من خلال إبرازه لفضل المجاهد وأجره وثوابه ومنزلته عند الله عز وجلّ.

يغلب على هذه الرسالة الاقتباس الديني، ومن ذلك نذكر قوله:"اشترى منهم ما باعوا بالجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، ولا يبلغه الواصفون، ولا يحيط به العقل، قال تعالى:﴿إنّ الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، 'إلى قوله' :ذلك هو الفوز العظيم﴾. ولهذا عظَّم الله الشهادة، وجعل القتل في سبيل الله حياة لئلا يظنّ الظان أنّه ميت فقال تعالى في كتابه﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءً عند ربّهم يرزقون،'إلى قوله' ولاهم يحزنون﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم ولكن لا تشعرون﴾"[1].

الاقتباسات هذه وظّفها ابن تومرت حتى يزيد تأثيره في جماعة الموحّدين، وحتى يلتفوا حوله ويتسابقوا للجهاد معه في سبيل إعلاء كلمة الحق.

ولم يكن هذا الاقتباس الوحيد الذي وجد في هذه الرسالة ، بل وجدنا الكثير من المصطلحات المأخوذة من الذكر الحكيم، ككلمتي الخيل المسوّمة، من يؤمن بالله واليوم الآخر، العاقبة للمتقين[2]، وغيرها من الاقتباسات غير المباشرة التي تكرّرت وبكثرة في هذه الرسالة التي اتسمت بالطول والإطناب غير الممل.

[1]- أحمدعزاوي، رسائل موحّدية، ج1،ص45.

[2]- ينظر: المرجع نفسه ، 47-49.

قد عمل الموحدون على حثّ جيوشهم على الجهاد بغية حماية بلادهم عامة، والأندلس على وجه الخصوص، والذود عنها ضدّ حملات النصارى وضرباتهم وفتنهم، التي طالتها رغبة منهم في جعلها تحت سيطرتهم، وأخذ خيراتها، ففي سنة 564هـ تلقت لشبونة العديد من الضربات من النّصراني ألفونسو هنريكيز[1]، هنا تحرّك الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن نحو جيشه ليحفّزه على الجهاد والقتال، فكتب في هذا الخصوص رسالة جاء فيها: "وما زلنا وفّقكم الله على أتمّ العناية بتلكم الجزيرة مهّدها الله، والحرص على غوثها، والانتواء لنصرتها، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة، والمشاهدة، إشفاقا على ما استضام منها جيرتها الأعداء، وأبناؤها الأغفاء، مجسّمين وروما، وما كادوها به من التّكلّف والتحيف والتنقص، وفغر الأفواه، وكسر الثيوب والأرصاد، لغيض ما فاض فيها من نور التوحيد، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر، والمناصبة للمنحاشين إليه، المتعلقين بأسبابه، المستذمين بذمّته، ممّن صح ولاؤه، وصدقت طاعته، وخلصت على السبك، ونصح على السير، ونجعل لها من الفكر حظًا يستحق الصدق على ما سواه من الأفكار، ويأخذ السبق على غيره من معنييات الأمور"[2].

فقد نجح أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في شحذ الهمم، وجعل الجيش يلتفّ حوله ليخمد نار الحرب، ويقلّل الفتن التي عرفتها الأندلس حينها، ومن الجدير بالذكر أنّ

[1]- ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص 34.

[2]- عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص35.

هذا الخليفة كانت له العديد من المواقف الصامدة اتجاه العدو وله العديد من الانتصارات على النصارى منها انتصاره على ابن مرنديش في حربهم ضدّ قبيلتي غمارة وصنهاجة سنة 559هـ[1].

والعادل حينما تولّى حكم بلاد الموحدين، أوّل عمل قام به تبيان عزمه وعزم جنوده على الجهاد في كلّ وقت ضدّ العدو، فقد كتب بهذا الخصوص كتابا يؤكّد فيه عنايته واهتمامه الفائق بالجهاد في سبيل توطيد الأمن والأمان في بلاده وقد جاء فيها: "ها هم بحمد الله* قد انتظم شملهم، واتصل حبلهم، واجتمعت أهواءهم، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم، وحلوا بدار الموحدين، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين، حيث الجموع وافرة. والأعداد متكاثرة، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة، وذلك حلول استدعاء واستنفار، لا حلول إقامة واستقرار، عازمين على الجهاد، والله تعالى ممضي عزائمهم، ويجبرهم على جميل معتقداتهم، على جهاد أعداء الله الكفار، فاعملوا وفقكم الله على ذلك، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم"[2].

[1]- ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني ، ص14-15.

* - يقصد الموحدون.

[2]- ابن عذارى، البيان المغرب، تح: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد،دار الغرب الإسلامي، تونس،ط1، 2013، القسم الثالث، ص249.

➢ **رسائل طلب الإمدادات العسكرية:**

واجهت الدّولة الموحّدية في سبيل إرساء دعائم دولتها، وتمكين نفسها من بسط نفوذها على السّاحة المغربية والأندلسيّة، العديد من الحروب، كما تصادفت والكثير من الأطماع النصراية التي رغبت في ضربها وتحطيمها من أجل التّمتّع بخيرات البلاد العربيّة، هنا وحينما كان يتأزّم عليها الأمر كانت تستنجد بالدول أو الجيوش المجاورة لها، فتطلب يد العون من غيرها حينما يحدق بالجيش الخطر، ويحسّ الجنود بالضعف والهوان، ومن ذلك ما كتبه صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة الموحدي المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن "في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، يستجيشه على الروم الفَرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية"[1]. يقول في متنها ما نصّه:" ولما مخّض النظرُ زُبده، وأعطى الرأْى حقيقة ما عنده؛ لم نَرَ لمكاثرة البحر إلا بحرًا من أساطيله المنصورة فإنّ عدَدَها واف، وشَطرها كاف؛ ويمكنُه – أدام الله تمكينه – أن يَمُدَّ الشام منه بعدَّ كَثيف، وحدّ رهيف، ويعهَدَ إلى واليه أن يُقيم إلى أنيَرتَبع ويصيف؛ ويمكنه أن يكُفَّ شطرا لأُسطول طاغية صِقلِّيَّة ليحُصَّ جناح قلوعه أن تطير، ويَعقِل عُبابَ بحره أن يُغير، ويعتقله في جزيرته، ويجرى إليه قَبل جريرته، فيذهبَ سيدنا وعقبُه بشَرَفِ ذِكرٍ لا تُردُّ به المحامد على عقبها،... وما رأينا أهلا لهذه العَزمة إلا حضرة سيدنا أدام الله صِدق محبة الخير فيه، إذ كان منحه عادة في الرضى به وفدرةً على الإجابة، ورَغبةً في الإنابه، ولاية لأمر المسلمين، ورياسة للدنيا والدين، وقياما لسلطان التوحيد القائم

[1]– القلقشندي، صبح الأعشى ، ج6، ص526

بالموحّدين"[1].إنهذه الرسالة من إنشاء القاضي الفاضل كتبها نيابة عن ملكه صلاح الدين الأيوبي.

والمتتبّع لبداية هذه الرسالة يجدها تبدأ بالدعاء من صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة المنصور، وهذا عمل دأب على ترسيخه كلّ كتاب الدولة الموحّدية فلا نكاد نعثر على رسالة تخلو مقدمتها من الدعاء للخليفة والدليل على ما نقول؛ قول القاضي الفاضل على لسان ملكه:" فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين، وسيد العالمين، وقسيم الدنيا والدِّين، أبواب الميَامِن، وأسبابَ المحاسن، وأحله من كفايته في الحرم الآمن، وأنجزه من نُصرة الحق ما الله له ضامن، وأصلح به كلّ رأى عليه الهوى رائن، ومكّن له في هذه البسيطة بَشكه، وزاده بالعلم غبطه، حتى يكون للأنبياء بالعلم وللأرض بالعزم وارثا، وحتى يشيِّد بحادثٍ قديما من مجده الذي لا يزال بغضِّ الحديث حادثا"[2].

امتازت هذه الرسالة بطولها وهذا لأنّ السياق يتطلّب من صلاح الدين الأيوبي التصوير الدقيق للأوضاع، فالحادث كلّما كانت فيه دقة في التصوير كلّما تطلّب إطالة في الكلام، وموضوعية وبعدا عن الخيال.

- **التقريع والعتاب:**

وفيها يتوجّه الخليفة إلى لوم المسؤول عن الجيش على هزيمته وخسارته في ساحة المعركة ومن ذلك ما كتبه ابن المبشر من لوم وعتاب للجيش الموحّدي إثر انهزامه في إحدى

[1]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص530.

[2]- المصدر نفسه، ج6، ص527

المعارك غير المعروفة في عهد المأمون يقول فيها:"إلى أمَّة نجَهت أفئدتُهم و قلوبهُم، وركنت إلى الخفَض و لَيان العيش جُنوبهم، وظهر عُدولُهم عن سَنن الرجال والأشدّاء ونُكوبهم، الذين ارتسموا من الجُبُن والفشل بأقبح النعوت والأوصاف، وتشبّهوا بفزعهم وخَوَرهم بنبات الماء أو حُمرِ لَصَاف، صرفهم الله عن طريق رعبهم وفزعهم، وتاب عليهم من سوء منحاهم الذميم ومَنزعهم، سلام على من جاهد الله حق جهاده، ولم يَنكِس بعد الإسلام ارتداده...فانزلوا – حطّكم الله– من الفرس النهد إلى صهوة المهد، وكونوا كبارا في الخِلقة صِغارا، والحقوا بالخوالف والقواعد"[1].

في هذه الرسالة خطاب شديد اللهجة، يدعو فيه الكاتب إلى التّمسك بالجهاد والانتصار فيه، فالجهاد ركن أساسي من أركان الدّولة الموحّدية. وفي الرسالة هذه لا يوجد دعاء للمرسل إليه، لأنّ العتاب فرض نفسه قبل كل شيء.

وقد لعب هذا النوع من الرسائل دورا بارزا في تبليغ أوامر الحكام أو الخلفاء أو الولاة أو قادة الجيش، وهي بهذا مكاتبات اقتضتها الضرورة.

- **رسائل الفتوح:**

وهي نوع من أنواع الرسائل الرسمية الحربية، فيها بعث للهمم وحشد لها، فيها حديث عن القوّة والاستبسال، بلغة تذكِّر بهمة الموحدين في سبيل نشر الاسلام والدعوة إلى عبادة الله تعالى، والإخلاص في توحيده وطاعته كما يتمّ فيها الكلام عن الحوادث التي جرت بين الفريقين من قتل وجهاد، إلى أن تختتم بالكلام عن النصر وأصحابه وزمانه ومكانه.

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص88.87

لما ترأّس عبد المؤمن بن علي الدولة الموحّدية وصارت زمام الأمور بيده، أراد فتح مراكش، لكن ظهر أمامه رجل يسمى محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي، الذي ادعى المهدوية، وتمكّن من جمع عدد من الناس ودعاهم للالتفاف حوله[1].

ولما سمع عبد المؤمن بهذا بعث له جيشا من الموحّدين ليقاتلوه، لكنهم انهزموا، ولم يستسلم عبد المؤمن بن علي، وبعث له الشيخ أبا حفص الهنتاني، وتمكّن هذا الأخير من قتله والانتصار عليه، وفتح مراكش[2].

وبعد أن تمّ له الفتح بعث لخليفته رسالة يخبره فيها بفتحه لمراكش:"كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم، ونصره تعالى المعهود القديم، وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم، فتح بهر الأنوار إشراقا؛ وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقا، ونبه للأماني النائمة جفونا أحداقا، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب.فتح تفتح أبواب السلام له وتبرز الأرض في أثوابها القشبوتقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما، واقتطعوا الكفر معنى واسعا"[3].

---

[1]- ينظر:أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص110-111.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص ن.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص111-112.

هذه الرسالة من تحرير أبي جعفر أحمد بن عطية وهي"رسالة بليغة أورثت منشئها الرتبة العلية، والمنزلة السّنّية، فإنّ عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعا كبيرا، فاستكتبه أوّلا، و استوزره ثانيا"[1].

ومن رسائل الفتح نجد رسالة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مخبرا حكّام المغرب و الأندلس بفتحه لمدينة قفصة من تحرير كاتبه أبي الحكم بن عبد العزيز بن المرخّي*، يقول في إحداهما "من أمير المؤمنين – أيّده الله بنصره و أمدّه بمعونته – إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بمدينة إشبيلية أكرمهم الله بتقواه، وعرّفهم عوائد حسناه، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وإنا كتبناه إليكم...من داخل قفصة حرصها الله؛ والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه، واليقين بأن هذا الأمر العظيم هو أمر الله الذي جعله الله الحرم الآمن لمن تمسك بسببه المتين...وخُلِّصت للموحدين – أعانهم الله – هذه المدينة العتيقة، والقاعدة الوثيقة التي جمعت من جمال الوضع، وحصانة الصنع، واتساع الخِطة، وشرف البقعة، واعتلاء الذروة، وامتناع الصهوة ما لا يوجد إلا فيها، لأنّها من عتاقة

[1] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج2، ص113.

* - هو علي بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز...اللخمي القرطبي من أهل إشبيلية، ولد سنة 519، في كنف عائلة استهرت بعلمها وأدبها وكتابتها الرسمية، اشتغل كاتبا ليوسف بن عبد المؤمن حتى وافته المنية سنة584 (ينظر للمزيد: أحمد عزاوي، مجموع رسائل موحّدية، ج1، ص24-25).

البناء، وسَعة الفِناء، قد عُمر خارجها من جميع الجهات بسواد يجمع النخيل والأعناب والزيتون والرمان، وفواكه ذات ألوان"[1].

كتبت هذه الرسالة سنة 576، وهي السنة نفسها التي فتحت فيها قفصة[2]، وامتازت بطولها وهذا الأمر اقتضته الضرورة، فمعظم رسائل الفتوح إلا و وجدنا فيها إطنابا، لأنّ صاحبها يبدأ بالدعاء والحمدلة، ثم يذكر الجهة المستقبلة لهذا المكتوب فيدعو لهم ومن ثم يدخل إلى صلب الموضوع.

وهنا تتمّ الإطالة لأنّ الكاتب يذكر الحوادث التي قام بها الجيش في سبيل هذا الفتح، ثم يؤكد الكاتب الديواني الفتح فيصف المدينة المفتوحة بأجمل الصور، ومن بعد يؤكّد على طاعة أمر الخليفة والتذكير بفضل الجهاد، ويختم في الأخير رسالته بالدعاء كذلك.

وله رسالة في نفس السياق، لكنها من نظم طبيبه أبي بكر بن طفيل*، يشيد فيها بالفتح وبالجيش الموحدي[3] وفيها يقول:[4]

مّا انقَضَى الفَتْحُ الذِّي كَانَ يُرْتَجَى أَصْبَحَ حِزْبُ اللهِ أَغْلَبُ غَالِبِ

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 144-149.

[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص143.

* - ابن طفيل: طبيب الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فيلسوف كبير وشاعر وأديب وطبيب وفلكي أندلسي في الوقت عينه، رجل موسوعي الفكر (للمزيد ينظر: حسين أحمد أمين، المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، دار الكرمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2019، ص64).

[3] - ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص108-109.

[4]- المرجع نفسه، ج2، ص ن.

وَسَاعَدَنَا التَوفِيقُحَتَّى تَبَيَّنَـــــــتْ مَقَاصِدُنَا مَشرُوحَةٌ بِالعَوَاقِـــبِ
وَأَنْجَزْنَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ صَـــــــادِقٌ كَفِيلٌ بِإِبْطَالِ الظُّنُونِ الكَوَاذِبُ
وَهَبُوا كَمَا هَبَّ النَسِيمُ إِذَا سَـــرَى وَلَمْ يَتْرُكُوا بِالشَّرْقِ عَلْقَةَ آيِـــبٍ
وَأَذْعَنَمَنْ عَليا هِلَالُ بنُ عَامِـــرِ أَبَى وَلَبَّى الأَمْرَ كُلُّ مُجَـــانِـــبٍ

والملاحظ على هذه الرسالة التي فضّل فيها صاحبها أن يبدأها بمجموعة من الأبياتالشعرية، اللغة السهلة المفهومة الدّالة على غرض الافتخار بالنصر والقوّة، ففيها أشاد بالدور الكبير الذي لعبته الجيوش الموحّدية في سبيل تحقيق هذا الفتح الكبير.

- **رسائل الفرح بالنّصر والإخبار به:**

وهي نوع من أنواع الرسائلالحربية، فيها فرحة وغبطة وسرور، كون صاحبها يسرد لخليفته وأهله انتصاره في الحرب والأسباب المؤدية به لذلك.

تحضرنا هنا رسالة الخليفة يوسف إلى والي غرناطة حول انتصاره على قوات جيرالدو*، إذ ومنذ "القضاء على ثورة غمارة تزايدت الامدادات الموحدية إلى الأندلس لمواجهة تهجمات بن مرنديش ولإضعافه، وفي هذا الوقت أيضا كانت الجماعات النصرانية تحت قيادة القائد الجليقي جراندة جاليدو تُغير على الأراضي الموحدية حتى وصلت إلى وادي آش، فاعترضتهما عساكر من غرناطة وافتكت منها الغنائم، فكتب الشيخ أبو عبد الله والي غرناطة إلى الخليفة مخبرا بهذا الانتصار"[1]

* - غيرالدوقائد النصارى في الأندلس الذين أغاروا على الأراضي الموحّدية وأرادوا نهبها وقتل سكانها.

[1] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص118.

يقول في مجملها: "وقد وصلنا كتابكم من غرناطة – حرصها الله – بما سنّاه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش – فتحها الله – من الفتح الذي عرّفهم به قدر اغترارهم ومكان جهلهم، وموضع الإملاء لهم بما كانوا اعتادوه من التّسحّب على أطراف تلكم الجهات بالاختلاس والاختطاف على ما ذكرتم، فيسّر الله لكم من أسباب العون عليهم، ومكيفات الإنجاد في الأخذ بالثأر مما شرحتموه في كتابتكم، وبينتموه بإعلامكم مما وقفنا منه على ما سر موقعه وحسن مطلعه، وجرى على معلوم هذا الأمر في نصرته وتأييده، والصنع الجميل له، وإخزاء أعدائه وادحار معانديه؛ والذي منح الله الموحدين في هذه الغزوة المباركة خير كثير، وأثر جميل، وله في تمهيد تلكم الجهات وتأنيس أهلها وبسط آمالهم وتسكين نفوسهم ومثابة من فت أعضاد الكفرة وتوهين أمرهم، وإشعارهم الإدبار في أحوالهم، و الارتكاس في حوليهم مواقع ظاهرة الآثار، بيّنة المنافع"[1].

ومن الرسائل التي تدخل ضمن هذا الحيّز رسائل التهنئة بالفتوح، والفرح بهذا الأمر العظيم ومن ذلك ما كتبه أبو مروان عبد الملك* على لسان أبي إسحاق** حينما سمع بفتح قفصة:[2]

خَيْرُ البَشَائِرِ صَوَّغَتُ حَمْـلَ المنَى بِقُفُولِ خَيْرُ خَلِيفَةٍ وَإِمَـــامُ

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 119.

* – ابن صاحب الصلاة صاحب تاريخ المن بالإمامة.

** – ولد الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ووالي إشبيلية في عهد أبيه.

[2] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص109.

وَافَتْ كَمَا ابتَسَمَ الأَمَانُ لخَائِفٍ وَانهَل أَثَرَ المحلِ سَكْبُغمـــامُ

هي مقطوعة قصيرة تحمل الكثير من الفخر والغبطة والسرور، فالفتح أمر عظيم وانتصار كبير يدلّ على المنظومة العسكرية المنظّمة التي كانت تحوز عليها دولة الموحدين.

- **رسائل الاتفاقيات على السلم والهدنة:**

هي نوع آخر من أنواع الرسائل الحربية. ومن بين الاتفاقيات التي عقدها الموحدون اتفاقية للسلام والتجارة بين المنصور وحكومة بيشة. هذه الاتفاقية كانت صالحة لمدة 25 سنة، أرّخت في رمضان من سنة 582 .[1]

ويقول نص الاتفاقية: "هذا ما أمضاه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته ...و عقد لهم السلم إلى مدّة من خمسة وعشرين عاما من تاريخ هذا الكتاب، على الأمنة التامة، والمعدلة الشاملة العامة، وأذن لهم... في الوصول إلى بلاد الموحدين أعزهم الله للتجارة فيها والتجهز منها، وقصرهم على أربعة بلاد من جملتها وهي سبتة ووهرا وبجاية وتونس."[2]

ومن رسائل الاتفاقيات رسائل الهدنة، فمن الأمثلة على ذلك ما كتبه وزير المستنصر أبو يحي بن أبي زكريا، إلى ملك قشتالة لما قدم إلى مراكش سنة 618هـ، طالبا من الموحدين السلم والسكينة والمهادنة،[3] وفيها يقول بقلم كاتبه ابن العياش: "وقد انقلب إليكم رسول

[1]- ينظر: أحمد عزاوي، رسائل موحّدية ، ج1، ص173.

[2]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية ،ج1، ص174.

[3] - ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص342.

منكم، بما تعرفونه في السلم المنعقد، النير شهابه، المتقد بين الموحدين وبينكم، وبالمخاطبة الكريمة، التي حملها إليكم، وحمل نحوكم، من الإتحاف ما يبلغكم على يديه، الذي هو عنوان المخالصة، وثمرة المواصلة، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم، ينبغي أن يكون متقبلا، وعلى أحسن المتأولات متأولا، إن شاء الله، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم، وتحافظون عليها، وتعاقبون كلّ من همّ بإذاية المسلمين، فإنّ الوفاء شعار الملوك، وكتب في سادس رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة."[1]

والملاحظة على هذا الكتاب لغته الواضحة، فهي غير قابلة للتأويل، وهذا يعتبر شرطا من الشروط الواجب توافرها في الكتابات الرسميّة، وسبكه الرصين الدقيق، البعيد كلّ البعد عن التّكلّف والتعقيد.

إنّ الرسائل الحربية وباختلافها أغراضها تقوم على الدّمج بين الحقائق والوقائع السياسية الحربية وبين المواقف الوجدانية، فكلّ رسالة من هذه الرسائل إلّا وفيها إظهار للحب والولاء من المرسل إلى المرسل إليه.

والولاء ظاهر في الرسائل الرسمية وهذا من خلال الدعاء للخليفة في أكثر من موضع، كما يظهر كذلك من خلال تكرار بل تعدّد الصفات ففي الرسالة الواحدة يمكن لنا أن نجد

[1]- ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الثالث، ص246.

أكثر من خمس صفات والدليل على ما نقول: الأجلُّ، الأعزُّ، الأمير، الطاهر، الملتزم، المعصوم، المعلوم، مبتسما[1].

- **الظهائر:**

و هي من المكتبات الرسمية التي تصدر عن الطبقة الحاكمة للبلاد أو من ينوب عنهم، تشمل كل مرسوم يتم بموجبه تعيين المهام في الدولة، من تولية أو تنصيب في مجلس القضاء، أو تعيين كاتب في الديوان، ما شابه ذلك من المناصب الهامة في الدولة.

إن هذه المراسيم تشمل كذلك تقديم المساعدات المالية و الهبات و الإعلانات للغير، سواء أكانوا أبناء الدول أم أجانب عنها.

لهذه الرسائل شروط وجب على الكاتب أن لا يتجاوزها أثناء كتابته لهذه الظهائر، كأن يذكر الكاتب الأسباب و الدوافع الرئيسة التي أدت به إلى صياغة هذا الظهير، فيذكر الفئة المستفيدة من هذا المرسوم أي المرسل إليه، و في الأخير يذكر الكاتب المرسل إليه بضرورة تقيده بمضمون المرسوم و تطبيق شروطه تطبيقا حرفيا، على أن يلتزم الكاتب اللغة السهلة المفهومة التي لا تقبل التأويل و لا تقبل معنى ثان.

ومن الظهائر الموحّديّة التي اطّلعنا عليها وجدنا موضوعها يدور في غالب الأحيان على حق الأندلسيين في التجارة والسكن، أو حقّ أهل الذّمة في الإسكان أو التنقل أوالتجارة دون تكليفهم بدفع الضرائب، أو حتى تمكينهم من ممارسة دينهم بكلّ حرية،

1 – ينظر: طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 271.

خصوصا مع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، الذي نزع عنهم تلك الملابس التي كانت تفرض عليهم، حتى تفرّق الناس بين المسلم وغيره.

ومن الأدلة على هذا الغرض، ظهير الخليفة الرشيد، الذي يهدف من ورائه إلى "إسكان المهاجرين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد المشرق في مدينة رباط الفتح،"[1] وفيها يقول ابن عميرة على لسان خليفته ما نصّه: "هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، أيّدهم الله تعالى بنصره، وأمدّهم بمعونته ويسره، للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، ومن جرى من ساير بلاد المشرق مجراهم، وعراه من عبر الأيام ما عراهم، حين أنهى ذو الوزارتين الشسخ الأجلّ الأكرم...أبي جعفر بن خلاص...ويلتمس لهم مكانا للقرار ... وعنه ذلك أذن لهم... في النقلة إلى رباط الفتح عمره الله تعالى...وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم، ويعمرو منه بلدا..."[2]

لقد كفل الرشيد للأندلسيين حقّ الإقامة واكتساب الرزق في بلاد الرباط، بلغة سهلة مفهومة لا يتخلّلها غموض أو لبس، يغلب عليها الجمل الدعائية التي تجاوزناها مخافة الإطناب في النّص المقتبس، وهذا دأب ابن عميرة في رسائله، فكلّها تحمل الصبغة الدينية لأنّ ابن عميرة فقيه في المصاف الأوّل.

[1] – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص737.

[2] – المصدر نفسه، القسم الثاني، ص737.

ومن الظهائر ما يثبت فيه الخليفة أجر وراتب أحدهم ومثالنا على ذلك الظهير الذي "منحه الخليفة الرشيد للشيخ أبي بكر بن المشرف أبي الحسن بن غالب* يحدّد فيه راتبه" وفيه يقول ما نصّه: "هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، ويسّره للشيخ القائد الأكرم أبي بكر بن الشيخ المشرف أبي الحسن بن غالب...يُرتّب له أربعون دينارا في كل شهر مع مُدَّيْن من القمح وأربعةِ أمداد من الشعير، مائتي دينار اثنين في كلّ سنة، وكلّ ذلك مطرَّد له حيثما حلّ من بلاد الموحّدين...كتب في العشر الأولى لجمادى الآخرة عام سبعة وثلاثين وستمائة"[1]

نلحظ على هذا الظهير أنّه كتب بأمر من الخليفة الرشيد، إلّا أنّ كاتب ديوانه الذي اعتنى بتحرير هذا المرسوم لم يُعرف، لأنّ كُتّاب الرشيد كثيرون هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد وجدنا الشروط السالفة الذكر حاضرة فيها؛ فقد ذكر الكاتب المرسل وهو الخليفة الرشيد ودعا له، ثمّ ذكر المرسل إليه وهو أبي بكر بن الشيخ المشرف أبي الحسن بن غالب ودعا له هو الآخر، بعدها ذكر موضوع الظهير وهو راتب الشيخ، فقد حدّده وضبطه ضبطا تاما، وأمر بالالتزام به، وهنا كانت كلّ شروط كتابة الظهير متوفّرة، إلّا أنّه وفي هذه الرسالة قد حدّد التاريخ وهو أمر مختلف فيه فمنهم من ذكره ومنهم من أهمله، أو لربّما الكتب التي وصلتنا لم تعتمد على مخطوط كامل دقيق، بينما اعتمدت على مخطوط مبتور الآخر لظروف

* – صاحب كتاب اليقين، وهو إمام الصوفية (ينظر: أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص391).

[1]- المرجع نفسه، ج1، ص391.

مختلفة وهو تماما ما ألفينا عليه كتاب رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة الموحّدية لليفي بروفنسال الذي عيب عليه اعتماده على المخطوطات المبتورة الآخر.

إنّ الظهائر جزء لا يتجزّأ من الرسائل الديوانية، لها صوغ فنّي جميل، حيث ابتعد أصحابها كلّ البعد عن التكلّف في تنميق وتزويق رسائلهم، كانت تحمل أسلوبا مباشرا بعيدا كلّ البعد عن الخيال لأنّ هذه المكاتبات تخاطب العقل لا القلب، وهذا إن دلّنا على شيء فإنّه يدلنا على حنكة كتّاب الدولة الموحّدية ومقدرتهم اللغوية والفكرية في التأليف في مختلف المجالات والأغراض.

- **رسائل التوقيعات:**

بما أن الرسائل الديوانية هي الوسيلة الرسمية التي كانت تستخدمها الدولة الموحّدية في إرساء قواعدها وضبط نظمها وطرح انشغالاتها، هذا ما جعل مضامينها وأغراضها تتعدّد وتتنوّع، ومن ذلك نجد رسائل التوقيعات.

والتوقيع في اللغة من وقّع يوقّع توقيعا، فـ"الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدلُّ على سقوط شيء. يقال: وَقَعَ الشيء وقوعا فهو واقع... ومنه التَّوقيع: ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه."[1] والتوقيع في المعجم الوسيط يعني "ما يعلّقه الرئيس على كتاب أو طلب برأيه فيه. و توقيع العقد أو الصّك ونحوه: أن يكتب الكاتب اسمه في ذيله إمضاءً له أو إقرارا به."[2]

[1]- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص 133-134 .

[2]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص1050.

أمّا في اصطلاح القلقشندي فيعني به "اسم لما يكتب في حواشي القصص بخط الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدم، وخط كاتب السر الآن"[1]. والتوقيع عند ابن خلدون يقصد به "أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفضله، ويوقّع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفضل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه."[2]

إنّ رسائل التوقيعات هذه تمتاز بقصرها وإيجازها، كما قد تكون آية أو حديثا نبويا، أومثلا أو حكمة ، أو بيتا شعريا، وهي بهذا تمتاز بقوة لغتها وبلاغتها الراقية وبراعة التعبير، ويجب أن يراعي صاحب التوقيع مناسبته لكل مقام.

ومن التوقيعات الموحّدية ما كتبه عبد المؤمن بن علي لأبي جعفر بن عطية وزيره وكاتبه، حينما استعطفه هذا الأخير وطلب منه العفو بعد أن أمر بقتله بسبب الوشايات التي كانت تزعم بتقرّبه من البلاط المرابطي، فكتب أبو جعفر بن عطية الأبيات الشعرية الموالية ، وبعثها إلى عبد المؤمن:

عطفًا علينا أميرَ المؤمنينَفَقَـــــــدْ ... بَانَ العَزَاءُلِفِرطِ البَثِّ وَ الحَــزَنِ

قَـــدْأَغْرَقَتْنَا ذُنُـــــــوبٌ كُلُّـــهَا ... وَرَحْمَةٌ مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّفُـــنِ

وَصَـــادَفَتْنَا سِهَـــــــامُ البَيْنِعَن ... وعطفَةٌ منكم أنجى من السُّفن

هَيهَاتَ لِلْخُطَبِ أَنْ تَسْطُو حَوَادِثُهُ ... بِمَن أَجَارَتْهُ رَحْمَاكُمُمِنَ المِحَــنِ

[1]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص 53.

[2]- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أخبار العرب و العجم و البربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992/1413، ج 1، ص200.

ولما بلغت هذه الرسائل عبد المؤمن وقّع عليها بما نصّه: "الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين،"[1]وهذا التوقيع مقتبس من الذكر الحكيم من سورة يونس الآية رقم 91.

ومن أهمّ ما تذكره كتب التاريخ توقيع يعقوب المنصور، إذ يحكى أنّ المنصور أراد تعليم ولده، فطلب من قاضيه أن يتخيّر له رجلين للقيام بهذه المهمة ، فوصف له أحدهما بأنّه بحر في علمه، والآخر بر في دينه، لكن بعد أن اختبرهما المنصور، ظهر له العكس، فوقع الرسالة التالية: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر و البحر"[2]. وهذا التوقيع مقتبس من سورة الروم الآية رقم 41، ولقي هذا التوقيع استحسانا من قبل النقاد، فقال عنه ابن الخطيب: "وهذا من التوقيع العريق في الإجادة والصنعة"[3].

يذكر أنّ الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس كتب يوما كتابا إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يهدّده ويتوعّده بحرب نكراء، يقول فيه ما نصّه: "باسمك اللهم فاطر السماوات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب؛ ولا ذي عقل لازب، أنّك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل،

[1]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص134.

[2]- المصدر نفسه ، ج2، ص201.

[3]- المصدر نفسه، ج2، ص 201.

وإهمال أمر الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار؛ وأسبي الذراري وأمثل بالرجال..."[1].

لما قرأ أمير المؤمنين يعقوب المنصور هذا المكتوب مزّقه، وأجاب عنه بالتوقيع التالي: "اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا ولِنُخْرِجَنَّهُم مِنهَا أَذِلَّةً وهُم صَاغِرُونَ".. والجواب من صورة النمل الآية رقم 37، ثم "كتب الجواب ما ترى ما لا تسمع فهو أوّل من تكلّم به فأرسله مثله، وأنشد متمثلاً:

وَلَا كُتُبٌ إِلَّا المشْرِفِيَة وَالقَنَى وَلَا رُسُل إِلَّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ

ثم أمر بالاستنفار، واستدعاء الجيوش من الأمصار"[2].

وقد عُرف الخليفة المنصور بجواباته البارعة، ولغته المتينة وحبكته في التصرّف في الآيات القرآنية وجعلها جوابا على الرسائل الواردة إليه.ومن بديع التوقيعات وأجملها صياغة، ما رواه ابن سعيد المغربي* عن أبي إسحاق ابراهيم بن عامر النحوي** "من أنّ ابن زُهر وقّع

[1]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج2، ص186.

[2]- المصدر نفسه، ج2،، ص186-187.

* - صاحب المغرب في حلى المغرب.

** - هو والي بجاية، شاعر أديب، اسمه الكامل أبو ربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي توفى سنة 604هـ. (ينظر: المقري، نفح الطيب، ج4، ص103-104).

له على ورقةِ شعرٍ، كتب له به، فلم يُرضِه: وما أتيتم من الشعر إلّا قليلا"[1] هو توقيع بليغ موجز دقيق يبرز حنكة صاحبة ومقدرته اللغويّة الكبيرة.

إنّ التوقيع فن وأدب لا يتأتّى لأي كان، فهو يتطلّب من قائله امتلاكه لناصية البلاغة واللغة، وأن يكون صاحب عقل حكيم، ومثالنا على ذلك توقيع الخليفة المأمون إدريس بن يعقوب المنصور على شيخ كتّاب الأندلس وكاتبه الخاص أبى بكر بن هاشم*** لما أنشده قصيدة يقول فيها:

"مُولَاى إنّ بَلِيَتِي مَعَ خِدمَتِي خَصمَانِ فَاحْكُمْ بِالتِي هِيأَقْوَمُ

ثم أكثر عليه الرِّقاع في ذلك، فوقّع له: يا هذا قد أكثرتَ علينا من الرقاع، وقد أمضينا لك حُكمَ ابن الرِّقَاع"[2].

مما سبق يظهر لنا أنّ التوقيعات أدب أنتشر وشاع في هذا العصر لحاجتهم له، وقد "برعوا في مراعاة مقتضى الحال فألبسوا لكل مقام لبوسه، وازدان هذا اللون بدقة الفكرة وقوتها، وحسن التعليل والتأثر بأسلوب المتكلمين والاقتباس من القرآن الكريم والحديث

[1]- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، ج2، ص260.

*** – كتب عن المأمون بن إدريس أيام قرطبة فكان سهل الطريقة توفى سنة 640هـ (ينظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص74).

[2]- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج1، ص74.

الشريف والشعر، وانتقاء اللفظ الذي يرمز الأديب من خلاله إلى إيحاءات التعبير"[1] وبهذا فقد تماشى التوقيع مع متطلبات عصرهم، وحقّق لهم غاياتهم وأهدافهم.

- **رسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

إذا ما تصفحنا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، نصادف عددا هائلا من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تتضمن نصحا وإرشادا للبشر، ودعوة للمسلمين إلى القيام بالمعروف والابتعاد عن المنكر.

ومن هنا كان من الواجب على المسلم أن يواصل هذه الرسالة فيذكر بما أمر به الله عز وجل في كتابه الحكيم. والأمر هذا هو الذي قام به المهدي بن تومرت حينما بدأ يؤسس لدولته الموحدية فكان من الأمور المعظمة عنده، بل وجعل دولته تقوم على هذا الأساس الديني ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث كان " لا يمر بمنكر إلا عمد إلى تغييره، وقد رأينا في رحلة رجوعه مشاهد كثيرة من تكسير دنان الخمر، وتحطيم آلات الطرب، وتشتيت الجموع اللاهية باختلاط الرجال والنساء، ووعظ الأمراء والتخشين لهم في القول، ثم سل السيف في وجه السلطان"[2].

لقد تشرّب المهدي ابن تومرت هذه الفكرة بعد أن حفظ القرآن الكريم و علم بتفسيره واجتهد في حفظ الأحاديث النبوية الشريفة، كما لا ننسى أن هذه الأفكار وغيرها

[1] – رضا عبد الغني كساسبة، النثر الفني في عهد الموحدين، ص 184.

[2] – عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت حياته وآراءه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، ص277.

قد كانت للمهدي بعد أن اختلط بمجموعة من الأساتذة على رأسهم الغزالي الذي كان من بين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر .

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن فقط للمهدي بن تومرت بل عمل عليه كلّ الخلفاء الذين جاءوا بعده، فكلّهم بنوا رسائلهم على هذا الأساس ونجد منهم من أمر بإقامة الصلاة مع الجماعة، ومنهم من دعا إلى إيتاء الزكاة، وغيرها من الأمور التي أمر بها الله عز وجل ونهى عنها.

فها هو المهدي بن تومرت يوجّه رسالة إلى المرابطين يأمرهم فيها بتقوى الله واتباع سنة نبيه الكريم، فيقول: "قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وأنّ الدنيا مخلوقة للفناء، والجنّة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتلكم، حتى نمحو آثاركم، ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خاليا، والجديد باليا، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر."[1]

في هذه الرسالة تهديد ودعوة و وعيد، تهديد بالقتل والحرب، ودعوة للدخول تحت لواء الدولة الموحّدية وطاعة الله ورسوله، وإنذار أخير للمرابطين حتى يلتفوا حول المهدي ويدخلوا تحت عصمته.

[1] – مؤلف مجهول (مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح: سهيل زكّار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979، ص 111.

هي رسالة قصيرة لكنها تحمل معاني عديدة، بأسلوب سهل ممتنع، ولغة صريحة دقيقة، لا وجود للمقدمة الدعائية فيها، استبدل المقدمة المتضمنة الدعاءبذكر صفات المرابطين قائلا: " إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية والشرذمة الطاغية، اللمتونية"[1] .ومن هنا ولج إلى محور دعوته مباشرة.

عمل ابن تومرت على إحياء "الحق و أعلى مراسمه، وأقام أسواق العدل ومواسمه وخضد* الباطل وقطعه، وقمع شرذمة وشيعة، حتى علا منار الهدى وارتفع وبهر نوره وسطع...فكلّ حركاته وسكناته أمر بمعروف ونهي عن منكر، وفضل وعدل"[2].

بعد وفاة المهدي بن تومرت، خلفه في الحكم عبد المؤمن بن علي، وسار هذا الأخير على دربه، وعمل على توطيد أساس هذه الدولة، فذكّر هو الآخر بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كتب عبد المؤمن في يوم السادس عشر من ربيع الأوّل سنة 543 للهجرة رسالة يأمر فيهاالناس بالعدل، ويمنع تنفيذ حكم الإعدام دون علمه ورضاه. هذه الرسالة كتبها أبو جعفر بن عطية، يقول فيها: "إنّ الله تعالى قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه، فالسعيد من لقي ربه مبرّءا من اتباع الهوى سليما، والشقي

[1]– الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، 111

* – يعني هنا بكلمة خضد حَضَر.

[2]– ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1990، ص 187.

من أتى مليما باكتساب الكبائر ملوما، (وَمَن يَكسِب إِثما فَإِنَّمَا يَكسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيماا)، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين، ويحب الرفق ويحل به كتفه الأمين، وفي الحظ على ذلك يقول وهو أصدق القائلين: (وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)، وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء، وبرأفته كشف عنهم العماء "[1].

وفي هذا النص دعوة إلى اتخاذ اللين والرحمة والرفق منهجا في الحياة، مستشهدا في ذلك بآيتين من القرآن الكريم، أوّلهما من سورة النساء الآية رقم 111، والثانية من سورة الشعراء الآية رقم215.

ومن ثم يواصل أمره بالمعروف فيقول في الرسالة ذاتها: "أن من لا يتقي الله تعالى ولا يخشاه، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاه، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار. وينتشرون بالقتل بأعراض الناس أقبح الانتشار، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها،... ويتسببون في قتل المسلمين فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبيسات ينشؤونها"[2]، في هذا الجزء من هذه الرسالة تذكير بضرورة الابتعاد عن قتل الأنفس وهتك الأعراض، لأنّ الله عزّ و جل قد حرمها من قبلُ في كتابه الحكيم.

ويضيف ناصحا الناس بالتزام العدل فيقول:"ولا شكّ والله أعلم في أنّ أسباب تلك المنكرات، ودواعي تغير الأحوال المتغيرات، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس، ويقولون ما لا

[1] – ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، ص190-191.

[2] – المصدر نفسه، ص 191.

يفعلون ذهابا إلى التدليس عليكم والإلباس، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العدل والقول الجميل"[1].

هنا ربط عبد المؤمن بين الظلم وتفشي المنكرات في المجتمع، فالظلم أساس المهالك وسببها الكبير، به تتفكّك الأسر وتتشتت، به تسلب الحقوق من أصحابها، فتعدل الأمّة عن طريق الحق والصواب، ويكون هلاكهم في الدنيا والآخرة أمر محتوم.

ذكّر عبد المؤمن في هذه الرسالة بتحريم الله عزّ وجل للخمر فهو مفتاح المهالك والشرور، ورأس الكبائر ومخزيات الأمور.[2]

كثرت في هذه الرسالة النصائح والتوجيهات لأبناء الدولة الموحّدية، والأمور المذكورة سابقا لا تشكّل سوى القليل من الأوامر التي قدّمها عبد المؤمن لشعبه.

وامتازت هذه الرسالة بطولها، ولغتها الراقية، وأسلوبها البليغ، وكثرت اقتباساتها المباشرة، سواء من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، فيها لغة موضوعية، لغة تخاطب العقول، وتقرع باب القلوب.

وفي رسالة أخرى من رسائل عبد المؤمن بن علي، المعروفة برسالة الفصول[3]، وهي من إنشاء الوزير أبي جعفر بن عطية، وجّهها عبد المؤمن بن علي لأهل بجاية يوصيهم فيها

[1]- ابن القطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،، ص 195.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص 197.

[3]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب، 1941، ص126.

بمجموعة من النقاط أوّلها التوحيد بالله فيقول: "وأبتدئ بأول مباني الإسلام فآخذ الناس بعلم التوحيد الذي هو أساس الدين ومبناه، وروحه ومعناه، والقاعدة التي لا يثبت عمل دون تأصيلها، والرابطة التي لا يقبل دين دون تحصيلها؛ فلا سبب لمن لم يتمسّك بسببه"[1].

وهذا الأمر تطرّق إليه المهدي بن تومرت في رسالته المعروفة بصيغة التوحيد التي كتبها لأتباعه فيقول:"لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات، وشهدت عليه المخلوقات، بأنّه جلّ وعلا، وجب عليه الوجود على الإطلاق، من غير تقييد ولا تخصيص، بزمان ولا مكان، ولا جهة ولا حد، ولا جنس ولا صورة ولا شكل، ولا مقدار ولا هيئة ولا حال، أول لا يتقيد بالقبلية، آخر لا يتقيد بالبعدية، أحد لا يتقيد بالأينية، صمد لا يتقيد بالكيفية، عزيز لا يتقيد بالمثلية، لا تحده الأذهان، ولا تصوره الأوهام، ولا تلحقه الأفكار، ولا تكيفه العقول، لا يتصف بالتحيز والانتقال، ولا يتصف بالتغيير والزوال"[2].

ثم يضيف بعد هذا الأمر ضرورة إقامة الصلاة كونها عماد الدين وركيزته الأساسية فيقول في هذا الصدد: "وآخِذوا بإقامة الصلاة التي هي الكتب الموقوف على المؤمنين، والحكم المثبوت على كلّ من آمن بهذا الدين، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ما ورد في الكتاب المبين؛ ولا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة فهو ممحوٌّ من ديوان المؤمنين؛ ومن ضيّعها فهو لما سِواها أَضيع من الوظائف والقوانين، وتاركها ميّت في عدد الأحياء"[3]،وهذا

[1]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية ، ص 131.

[2]- المهدي ابن تومرت، أعز ما يطلب، طباعة الحجر الشرقي، فونتانا، دط، 1903، ص239-240.

[3]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية،ص133.

الأمر من الأمور المهة على العبد المسلم، فلا حياة لمن لا صلاة له، كونها من الأمور الأولى التي يسأل عنها المرء عند موته.

واصل عبد المؤمن بن علي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر في رسالته هذه، فحرص على تذكير الأمة بضرورة إيتاء الزكاة وإخراجها في وقتها ولمن يستحقها، حيث يقول: "وخُذوا بإيتاء الزكاة وبالكشف عن معانيها وتشخيص ممسّكيها أو النزر اليسير منها: فالزكاة حقّ المال والجهاد وواجب على من منع منها قدر المقال؛ فمن ثبت منعُه للزكاة فهو لاحقٌ بمن ثبت تركه للصلاة."[1]

الملاحظ على هذا النص أنّ صاحبه قد قرن الزكاة بالجهاد وهذا أمر واضح، فالجهاد أنواع: جهاد بالنفس وجهاد بالمال، والزكاة تعتبر جزءا من هذا النوع.

كما أمر عبد المؤمن بن علي في رسالته هذه بضرب بائع الخمر والهجوم عليه وتكسير كل ما له من لوازم الخمر[2]، وهذا ما طالب به الخليفة الأوّل عند تأسيسه للدولة الموحّدية.

والنصائح نفسها وجدت في رسالة الخليفة المأمون، جيث وجدناه آمرا هو الآخر بالمعروف ناهيا عن المنكر، يقول فيها: "وأوّل ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها وشهودها إطهارا لشعائر الإيمان في جماعتها، فقد قال عليه

[1] -ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية ،ص133.

[2] - ينظر: المصدر نفسه، ص 133.

الصلاة والسلام: أحب الأعمال إلى الله الصلاة لأوقاتها...وهي الركن الأعظم من أركان الإيمان، والسور الأوثق لأعمال الإنسان."[1]

في هذه الرسالة أمر بإقامة الصلاة، وهي رسالة فيها إثبات لأسس المهدي بن تومرت التي أقرّ بها في بداية تأسيسه لهذه الدولة.

إنّ من عادات خلفاء هذه الدولة وفور تلقّيهم التكليف الرسمي للحكم، وعند إتمام بيعتهم الرسمية، أن يتّجه إلى الناس ليأمرهم بالإعتصام بحبل الله، لأنّ لا عصمة للنّاس في الأرض ولا في السماء دونه الحيّ القيوم، وكذلك لإرساء قواعد وأسس الدولة المحّدية الرامية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما قاله الخليفة المستنصر لشعبه في كلّ من المغرب والأندلس.

فقد جاء في رسالته ما نصّه: "فقد علمتم أنّ الدين هو الأساس الوثيق، والبناء العتيق، والفسطاط المضروب، والعلم المنصوب، والتجر الذي لا يبور، والطريق الذي لا يجور، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن تحصّن به فقد تحصّن بالمعقل الأحصن الأرقى، فإذا وقفتم على كتابنا هذا، فجدّدوا للناس به الذكرى، وعرفوهم أنّ الدنيا مطية إلى دار الآخرة، وحضوهم إلى العمل الصالح، والتجر الرابح، عسى أن يجعلهم الله تعالى في الدارين، من الذين لهم البشرى، وبثّوا في جهاتكم كلها، الأمر بالمعروف والنهي عن

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص382-383

المنكر...واستحفظوا الكافة صلواتهم، فإنّها الكتاب الموقوف على المؤمنين، وسيد المرسلين، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمياجد والأسواق، فإنّه الخير المألوف، والشعار المعروف."[1]

إنّ هذه الرسالة لها وقع كبير على قلوب متلقيها، لما تحمله من صدق الرأي، ودقّة الحجة، فقد اعتمد صاحب هذه الرسالة على الصورة التشبيهية حتّى يتسنّى لسامعها أن يرسم صورة في ذهنه لما يُقال له، هي رسالة دقيقة اللفظ، ذات سمات وخصائص فنّية جميلة تعود جمالياتها لما حملته من فنون بديعية كالسجع والطباق وبلاغية كالتشبيه الطاغي عليها.

من خلال هذا العرض لأغراض الرسالة الديوانيّة في العصر الموحّدي –أو كما يروق للبعض تسميتها بالرسالة الرسمية– نخلص إلى القول بأنّ هذه الرسائل تدلّنا على أنّ هذه الدولة عمّرت طويلا، دولة تركت بصمتها على كافة الأصعدة والمستويات، دولة اتّسم حكمها في بداياته بالعدل والانضباط، دولة أسهمت كلّ الإسهام في فكّ الخناق عن الأدباء والفلاسفة، وأعطتهم كلّ التحفيز في سبيل الإبداع ولذا وجدنا الرسائل الرسمية تكثر على هذا العهد.

إنّ الرسائل الرسمية هذه اتّسمت بتعدّد المواضيع وتنوّع الأغراض، كما وجدناها تحمل قيما فنّية وجمالية تضاهي بها نظيرتها الإخوانيّة الأدبية، كما وجدنا جلّ الرسائل الرسمية التي ذكرناها لها بدايات واحدة اتّفق فيها جلّ الأدباء على مقدّمة واحدة، إلّا أنّهم تفوتوا فيما بعضهم البعض في الأسلوب والجودة الفنّية.

1 – ابن عذارى، البيان المغرب،القسم الثالث، ص245-246.

يتبيّن ممّا سبق بأنّ الرسالة الديوانية قد اشتغلت بالحديث عن كلّ الأمور السياسية وما يرتبط بها من وظائف إدارية، كترقية الناس من منصب إلى منصب، أو تكليفهم بولاية منطقة ما، أو إقامة اتفاقيات تجارية، والدعوة إلى بيعة أحدهم ليجعل على رأس الحكم، وتنظيم الرّعية من خلال نصحهم وإرشادهم، وإلزامهم بتطبيق الأحكام الشرعية وغيرها من المواضيع السياسية الهامّة.

كما يتّضح لنا من خلال هذه المواضيع أنّ الرسالة اكتست الطابع الديني هذا لكثرة الاقتباس من الكتاب والسّنة، وهذا الأمر طبيعي جدا لأنّ هذه الدولة بنيت على أسس عقائدية محضة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان أغلب كتّاب الدولة الموحّدية من حفظة القرآن الكريم.

كان هذا عن الرسالة الديوانية وأهمّ أغراضها، فماذا عن الرسالة الإخوانية؟

المبحث الثاني: الرسائل الإخوانية:

-تعريفها:

الرسالة الإخوانية أو الاجتماعية -كما يروق للبعض تسميتها-؛ هي تلك المكاتبات التي تغيب فيها الشروط السالفة الذكر، وهي كلّ كلام مرسل يصوّر عواطف الناس وأحاسيسهم الصادقة، لأنّها تدور بين الأحبّة والخلّان، فهي قلب يفيض بالمشاعر الصادقة، وهي "شعر غنائي منثور، يجد فيها كاتبها متنفّسا حرّا عن عواطف، لا يقيّده فيها وزن ولا

قافية؛ وهي من أقرب فنون النثر إلى الشعر، وهي تعبير عن عاطفة شخصيّة"[1] لقد شبّه أحمد بدوي في هذا النّص الرسالة الإخوانيّة بالشّعر الغنائي، هذا لما تحمله من أحاسيس وخلجات ومشاعر صادقة، يعبّر عنها صاحبها في نصّ مسترسل، لا يقيّده شرط ولا يحدّه ضابط، والذي جعله يشبّهها به –في نظرنا– هو اعتماد كاتب الرسالة الإخوانية على بعض من الظواهر البديعية كالسّجع والجناس والتي تتفاعل معا لتحدث في النّص أثرا موسيقيا جميلا، أو لربّما قارب بينهما لاعتماد كاتبها على المزاوجة بين فنّي المنظوم والمنثور للتعبير عن أفكاره ومكنوناته.

والرسائل "الشخصية التي كانت تحبّر بعيدة عن الديوان إلى أحد الإخوان في أمور خاصّة لا تتعلق بشؤون الملك، لا بسياسة الدولة، أو تتعلق بها بصفة غير رسمية. كالتهنئة والتعزية والشكوى والعتاب والاستعطاف وغير ذلك ممّا يصوّر العواطف الخاصة بقدر ما بين الأفراد من روابط وصلات"[2]، نستنتج من هذا النّص أنّ هذه الرسائل تدور حول موضوعات شخصية ذاتية يغلب عليها الشوق والحنين.

وينبغي على الكاتب هنا أن "يجمع لها فِكره، ويُظهر فيها صناعته، ويأخذ في إنشائها مأخذا من اللطافة والرّقة يدل على تمازج الأرواح، وأتلاف القلوب، وما يجري هذا المجرى، وأن يستخدم لها أعذب لفظٍ وألطف معنى، ويذهب فيها مذهب الإيجاز والاختصار، ويعدلَ

[1]– أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، 1996، ص580.

[2]– محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب، السعودية، ط2، 1986، ص101.

عن سبل الإطناب والإكثار"[1] إضافة إلى التهاني في المناسبات المختلفة أوالتعازي وحتى رسائل العتاب يجب أن تحمل كلّ هذه الأنواع معاني واضحة ذات عاطفة صادقة. وأمّا رسائل الشكر فيجب "أن تكون مودعة من الاعتراف بأقدار المواهب وكفاية الاستقلال بحقوق النعم... وينبغي للكاتب أن يتفنّنّ فيها ويقرّب معانيها وينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطها بالقلوب"[2].

وكلّ المكاتبات الإخوانية هدفها الإبلاغ والتعبير الصادق عن المضامين النفسية والفكرية، حتى أنّها تحقّق الاتصال والتواصل بين الناس فكريا وجماليا، كما لها وظيفة جمالية أدبية فنّية تكمن فيما تقدّمه اللغة من معان تروق القلوب و تبهر العقول.

تختلف الرسالة الإخوانية عن نظيرتها الديوانية في كونها تضبط بمعايير معينة كوحدة الموضوع وعدم احتمال المعاني للتأويل، وكذا البعد عن الذاتية، غير أنّنا نلاحظ كاتب الرسالة الإخوانية يطلق العنان لمشاعره وعواطفه، وعليه فالرسالة "فن نثري يتراوح بين الوجداني الإبداعي والوظيفي الرسمي، أصبحت لها قيمة فنّية حيث تبرز فيها قدرة الكاتب على نقل المشاعر وتبليغ الفكرة إلى المرسل إليه، ولها بنيتها التي تخرج فيها من خلال ثلاثة محاور: الأوّل المقدمة و هي افتتاح يعتمد على وضوح المعنى وجودة الصياغة وإيجاز العبارة،

[1]- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص142.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص183.

والثاني العرض يفصّل فيه الكاتب غرضه من الكتابة والمراسلة، والثالث الخاتمة ويوجز فيها خلاصة قوله، وقد يستغني عنها"[1].

وعليه فالرسالة القديمة لها بناء خاص يكاد يطلب على كلّ الرسائل بشتّى أنواعها، فجلّها لها بداية يتوخّى فيها الكاتب تجويد مطالعه لأنّها أوّل ما يصل إلى أذن القارئ، ويصافح عقله، لذا وجب على الكاتب هنا أن يتأنّق "في أوّل كلامه ويأتي بأعذب الألفاظ، وأجزلها وأرقّها وأسلسها وأحسنها نظما وسبكا، وأصحّها مبنى، وأوضحها معنى، وأخلاها من الحشو والركاكة والتعقيد."[2]

و يجب أن يكون أوّل الكلام دالا على ما يناسب حال المتكلّم، متضمنا لما سيق الكلام لأجله من غير تصريح، بل بألطف إشارة يدركها الذوق السليم. والشيء نفسه يجب أن يكون في متن الرسالة، إذ يجب على صاحبها أن يختار من الألفاظ ما يخدم موضوعاته وأفكاره.

ولا يمكن للكتابة أن تأتي من فراغ، فحبذا أن يكون صاحبها موهوبا مثقفا متقنا لتخصّصه، عارفا بعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، وعلى اطلاع بالأمثال العربية والحكم والشعر وأخبار العرب ومواقعهم وأيّامهم، حافظا للقرآن الكريم والحديث النبوي

[1] – نواري بالة، الخطاب النثري في مجلة الشهاب الجزائرية 1929-1939، أطروحة دكتوراه علوم تخصّص الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2016-2017، ص 219.

[2] – السيّد علي صدر الدين بن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، بغداد، العراق، ط1، 1968، ج1، ص34.

الشريف كونهما يمدانه بأسلوب مميز، وهذا ما أكده الأعشى في قوله: "الإسلام، الذكورة، الحرية، العدالة، التكليف، البلاغة، وفور العقل وجزالة الرأي، العلم بمواد الأحكام الشرعية وقوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس والكفاية "[1]كلها شروط وجب توافرها في الكاتب.

-أغراضها:

عرف الموحدون الرسائل الإخوانية، وتفنّنوا في إنشائها، بل برعوا فيها، فهي تلك المكاتبات الشخصية الذاتية التي تتبادل بين الأحبة والخلان، يترك فيها العنان للغة، فيسترسل صاحبها استرسالا، تعبيرها راق، تترك فيه الحرية للمشاعر والأحاسيس.

وهنا تجدر الإشارة إلى نقطة مهمّة وهي أنّ للرسالة الإخوانية مصطلحات موازية لها، فالبعض أطلق عليها الرسالة الأدبية والبعض الآخر يمّاها بالخاصّة ومنهم من سمّاها بالاخوانية، فما الفرق بين كلّ هذه المسميات؟ وأيّهما الأصح؟

أما تسميتها بالرسائل الأدبية فهذا يعود إلى ما تحويه هذه الرسائل من خصائص فنّية وجماليّة وأغراض متعدّدة من شكر ومدح وذم وشوق ووصف وغيرها من الأغراض.

أما تسميتها بالخاصّة فهذا يعود إلى الفئة المحرّرة لهذه الرسائل، فهذه الرسائل تكون خاصّة غير عامة بين الطبقة العاديّة للمجتمع، تحوي على مواضيع اجتماعية شخصية لا يحقّ للجميع معرفتها.

[1]- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص62-67.

أما الإخوانية فلكونها تدور بين الأحبّة والأصدقاء والإخوان، كان هذا جوابا عن السؤال الأوّل.

أمّا السؤال الثاني والمتمثّل في أيّهما الأصحّ؟ هنا لا يمكن لنا أن نرجّح كفّة مصطلح عن الآخر، لأنّ كلّ هذه التسميات تكمّل بعضها بعضا، وكلّها إذا ما جمعناها مع بعضها البعض فإنّها تعطينا تعريفا واحدا للرسالة الإخوانية.

وعليه فالرسالة الإخوانية رسالة خاصّة، تدور بين الأشخاص العاديين الذين تجمعهم صلة المحبّة أو القرابة، وهي رسالة ذات خصائص أدبية مثلها مثل بقية الرسائل الأخرى.

تعدّدت مواضوعاتها وتنوّعت، منها: رسائل العتاب، الاعتذار، الشكوى والاستعطاف، المودة، الهجاء، بل وقد اعتبرها القلقشندي سبعة عشرا غرضا، وكلّ هذا التّنوع نتيجة حتمية لطبيعة الظروف الاجتماعية المحيطة بالكاتب، و هذه الظروف هي التي ولّدت هذا النوع من الرسائل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالدولة الموحّدية دولة اتسعت رقعتها، وطالت مدّتها الزمانية، ومن هنا بات من الضروري التواصل بين أفراد المجتمع، وتبادل العواطف والأحاسيس بينهم، وهذا لا يتأتّى إلا بواسطة الرسائل الإخوانية، والتي سنذكر بعضا من أغراضها في هذا الجزء من البحث.

➢ رسائل الشكوى والاستعطاف:

جاء في معجم مقاييس اللغة أنّ "الشين والكاف والحرف المعتل أصل واحد يدلّ على توجع من شيء، فالشكو المصدر؛ شكوته شكوا وشكَاةً وشِكايةً. وشكوت فلانا فأشكاني، أي أعتبني."[1] وعليه فالشكاية من المصدر الشكو وهو يعني في المقاييس اللوم والعتاب.

وفي لسان العرب يقول ابن منظور: "شكا الرجل أمره-يشكو- شَكُوا- على فَعلاً...وشكوتُ فلانا أشكوه شكوى وشكيَّة وشَكَاةً، إذا أخبرت عنه بسوء فعله بك"[2].

يتفق ابن فارس وابن منظور على أن كلمة الشكوى تعني الإخبار عن أمر يحز في نفس الشخص، وهذا الأمر غالبا ما يحمل لوما وعتابا وتوبيخا.

وممّا يحضرنا في هذا الضرب من الرسائل رسالة ابن عميرة يشكو فيها حظّه السيء في الكتابة والقضاء بمدينة سلا فيقول:

"قَدْ نُسَبْنَا إِلَى الكِتَابَةِ حِينًا وَأَتَتْ نِسْبَةُ القَضَاءِتَلِيـــهَا
وَبِكُلٍّ لَمْ يَبْقَ لِلْحَـــظِّ إِلَّا مَنْزِلًا نَابِيًا وَمَرْعَى كريـــها
نِسْبَةٌ بُدِّلَتْ فَلَمْ تَتَـــــغَيَّرْ مِثْلَ مَا يَزْعُمُ المهَنْدِسُ فِيهَا

وإنّما القلم كليل في معناه، كلٌّ على مولاه، إن حملته الأذن شان، أو أمسكته اليد بلد الأذهان، وإن مشى على القرطاس ظهر عثاره، أو خلي والقول لم يؤمن إكثاره...فأما القضاء وهو ثاني الرتبتين، وإحدى النسبتين فقد خلعت الأولى لمطرفه، وبيعت الدرع في

[1] – ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3، ص207 .

[2] – ابن منظور، لسان العرب، مج4، ج25، باب السين والشين، ص2314.

مخرفه، فكان التوسد لأرطاه، والتحول إلى مطاه، وظن أن سلا سلوّ عن الأنكاد، وعلوّ على الأضداد، وساحة فيها أرب..."[1].

ومن رسائل الاستعطاف رسالة أبي جعفر بن عطية التي خاطب بها عبد المؤمن، حيما زعم هذا الخليفة الموحدي تقرب ابن عطية من البلاط المرابطي، يقول فيها: "تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم السجود، وقلت: إن الله تعالى لم يوح، في الفلك لنوح، وبريتُ لقَدَارِ ثمود نَبلًا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلًا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدَار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العُدوَة، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كلّ حبشي، ... وقلت: تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر، وغادرت الوَجه من الهامة خَضيبا، وناولت من قَرَع سَنَّ الحُ سَين قضيبًا، ثم أتيت حضرة المعلوم لائذًا، وبقبر الإمام المهدي عائذًا...فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا بردِّقلوبٍ هدّها الحفقانُ"[2].

لقد أكثر الكاتب في نصّه هذا المدح إلى درجة الغلو فيه، إلّا أنّ هذا المدح لم يجد نفعا ذلك أنّ ابن عطية قد قُتل بعد هذا بمدة قليلة من الزمن، وهذا المكتوب "ممّا خاطب به

[1]- أبو عبد الله اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، تح: محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص204-205.

[2]- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج5، ص184-185.

الخليفةَ عبد المؤمن مستعطفا له من رسالةٍ تغالى فيه فغالته المنية، ولم ينل الأمنية، وهذه سنَّة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية، ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم."[1]

وكتب له رسالة أخرى في الغرض نفسه يقول فيها:[2]

عَطفـــًا عَلَينَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَفَقَـــد ... بَان العَزَاء لفَرط البـــــَث والحَزَنِ

قَدْأَغرَقَتنَا ذُنُوبٌ كُلُّـــهَا لُجَـــــجٌ ... وَعِـــطفةٌ مِنكُم أَنْجَى مِنَ السُّفُـــنِ

وَصَادَفَتنَا سِهَـــام كُلُّـــهَا غَـــرَضٌ ... وَرحمَةٌ مِنكُم أَوقى مِنَ الجُـــــــــنن

هَيهَاتَ لِلخطبِ أَنْ تَسطُو حَوَادِثُهُ ... بِنَصرِهِ لَم يَخَف بَطشًا مِنَ الزَّمَـــــنِ

مَن جَاءَ عِندَكُم يَســـعَى عَلَى ثِقَةٍ ... والطَّرف ينهَص بعد الرَّكضِ في سَنَنِ

أَنتُم بَذَلتُم حَيَاةَ الخَـــلقِكُلَّـــهم ... من دون منّ بها كلّا ولا ضَـــــنَـــن

وَنَحنُ مِن بَعضِمِن أحيت مَكَارِمَكُم ... كِلتَا الحَيَاتَينِمِن نَفسٍ وَمِن بَـــــدَنِ

وَصِبيَةٌ كَفِـــــرَاخِ الوَرَقِ مِن صِغرٍ ... لَمْ يَأْلَفُوا النَّوحَفي فَرْعٍ وَلا فَنَـــــــنِ

فَقَد أَوجَدتُهُم أَيَادٍ مِنكَ سَـــالِفَةٍ ... والكلُّ لَولَاكَ لَم يُوجَد وَلَم يَكُـــــن

والملاحظ على هذه الرسالة أنّ أبا جعفر بن عطية أخطأ في حق عبد المؤمن، فندم وتحسّر على فعلته هذه، فأراد التكفير عن ذنوبه من خلال هذه الكلمات الرنّانة، والتي أراد بها عطف ابن المؤمن، فيها مدح وذكر الخلال الحسنة لعبد المؤمن، فيها تعظيم وتأكيد لمنزلة المرسل إليه، كما نلمس فيها الأسلوب الراقي الممزوج باللغة الواضحة الخادمة للمعاني المنوط التعبير عنها.

[1]- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مج5، ص 184.

[2]- المصدر نفسه، مج5، ص185.

ومن بين الرسائل الهامّة في غرض الشكوى والاستعطاف رسالة ابن الأبار لابن عميرة المخزومي، يشكو له فيها، سقوط بلاده الأندلس في أيدي الإفرنج، فلنقتبس منها الأهم، بل نأخذ منها وكما قال المقرّي نور البلاغة: "سيدي وإن وجم لها النادي، وجمجم بها المنادي، ذلك لصغرها عن كبره في المعارف الأعلام، وصدرها يوغر صدور الصحائف والأقلام، وأعيذ رَيحَانة قريش، أن تروح من حفيظتها في جيش، قد هابتها مَغَاوير كل حي، وأجابتها الغطاريف من قُصَي، تدلف بين يديها كتيبة خالد، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزَند صالد، أو تنصف من غامطها، وتقذف به وسط غُطامطها، لا جرم أني من جريمتي حَذِر، وعما وضحت به قيمتي للمجد معتذر، إلا أن يصوح من الروض نبته وجَنَّاته، ويصرح بالقبول حلمه وآناته، الحديث عن القديم شُجُون، والشأن بتقاضي الغريم شؤون، فلا غرو أن أطارحه إياه، وأفاتحه الأمل في لُقياه، ومن لي بمقالة مستقلّة، أوإخالة غير مخلّة، أبت البلاغة إلّا عمادها..."[1]

هي رسالة جوابية على رسالة ابن عميرة المخزومي، حيث بعث هذا الأخير رسالة في نفس الغرض، يشكو فيه الأمر نفسه، أي يشكي له سقوط بلنسية في أيدي النصارى، فردّ عليه ابن الأبار بهذا الخطاب الفنّي الرائع، هي رسالة فيها إحساس بالغربة، وألم الضياع طاغ، إنّ الكاتب في هذا الخطاب يتّكأ على مصطلحات فيها أسى وحزن وخيبة أمل بارزة.

وجملة القول في هذا الغرض أنّه شاع وانتشر في هذا العصر لأسباب مختلفة منها :

[1]- المقري، نفح الطيب، ج5، ص 382- 383.

- الرغبة في التكسّب عن طريق التّوسّل إلى الخلفاء وأكابر البلاد.

- بحث الكاتب عن احتلال مكانة في ديوان الإنشاء، جعل الكاتب يكون من أحدق الكتّاب وأبلغهم في هذا الغرض.

- سقوط دولة المرابطين وما نجم عنها من تشرّد وتحوّل في الانتماء، فالعديد من الكتّاب تودّدوا إلى خلفاء الدولة الموحّدية، ليتمكّنوا من العيش معهم وتحت ظلّهم بسلام وفي أمان.

- وصل الاستعطاف أحيانا إلى حدّ التذلّل لأنّ الكاتب كان في موقف مليء بالخوف والتوتّر، فكانوا يبالغون نوعا ما في التعبير إلى حدّ المذلّة والهوان.

- **رسائل الاعتذار:**

يعدّ الاعتذار رمزا من رموز المحبة والوفاء وصفاء القلوب، وهو أمر ضروري حتى تستمر العلاقة وتقوى، يعتذر الكاتب هنا عن تقصير بدر منه، أو فعل مشين فعله لشخص معين، فيقرّ له بتقصيره معه، كما يبرز عطفه وحبّه له.

ومما أنشأه ابن عميرة المخزومي في الاعتذار رسالته المشهورة التي يقول فيها: "سيدي وعمادي، وذخيرتي من أهل ودادي، كفاكم الله عوادي الزمن، ورزقكم سلامة الإقامة والظعن، كتبته والود بقلبي رسوخ، وبنفسي حكم لا يجوز أن يقال هو منسوخ...هذا اعتذار يوجب النظرة إلى ميسرة، ويحطّ التكليف إلا عند مقدرة، وأنتم تنوبون عنّي فيما يجب لفلان من إبلاغ سلام وإنباء بعذري وإعلام، وذهاب بما يسبق إلى الوهم من عتاب أو ملام"[1].

[1] - أبو عبد الله اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص157-158.

- **رسائل اللوم العتاب:**

وهي رسائل يوجّهها الكاتب لأخيه بعد ما رأى أمرا ساءه وحزّ في نفسه، يكون الحديث في مثل هذا النوع من الرسائل عن العلاقة التي كانت تجمع المرسل والمرسل إليه، وما اكتنفها من لهو وفرح وحب، يتخلل هذا المكتوب مجموعة من التساؤلات التي لم يجد محرّر الرسالة لها جوابا.

فالعتاب بهذا المعنى يصبح "شكلا من أشكال التعبير عن المودة بين المتصافيين، وحارسا لها يحميها من الذبول والتلاشي. وتفسير هذا التأويل الإيجابي للعتاب هو أن يأتي نقيض الإهمال واللامبالاة، فالإنسان لا يعاتب من لا تربطه به علاقة صداقة أو قرابة."[1]

يستهل كاتب هذا النوع من الرسائل نصّه بالمدح والإطراء، كي يتمكّن من الولوج إلى موضوعه، فيذكر دوافع العتاب وأسبابه، ومن ثم يستفسر عن بعض الأمور التي جعلت المستقبل يصدر منه هذا الفعل.

كتب ابن عميرة المخزومي رسالة عتاب لصديق له، يلومه فيها عن تأخر مكاتباته فيقول: "...أبطأت عنّي كتبكم في هذه المدة أبطأ للنفس به شغل، وللظنون فيه سبل، فليت شعري ما حدث أسلو المغيب فقد تكون من أجله، أم تيه على الغريب من مقيم في أهله، أم تأنّ من جنس التغافل، أم تجنّ يخدش وجه التواصل، ولا شكّ أنّ سيدي إذا رأى عتابي، وانتهى إلى هذا الفصل من كتابي، آسى بجوابه وواسى، وأنصف في أنّه نسي وتناسى، ولاءم

[1]- علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج1، ص378-379.

بين الأوراق لكتاب، وبوّب للأخبار ألف باب"[1]، إنّ هذا العتاب الذي حملته هذه الرسالة هو نوع من الحبّ وصفاء المشاعر، وتعبير عن التمسّك الشديد من ابن عميرة بصلة الصداقة، ورغبة منه في الحفاظ عليها ودوامها، ولو لم يكن يكنّ له الحب العميق لما عاتبه، فاللوم والعتاب لون من ألوان الحب، وهو ضدّ الخيانة والتّفكك.

إنّ خطاب العتاب كثيرا ما نجد فيه الأساليب الإنشائية الطلبية التي تأتي غالبا بصيغة الاستفهام، وهذا الاستفهام يطرحه الكاتب بغية البحث عن استفسارات للدوافع التي جعلت الصديق يبعد أو يقطع الاتصال بصدقيه مثلا، وفي هذا يقول ابن عميرة لأصدقائه في سبتة: "لم هذه الجفوة؟ أنقمتم أمرا؟ أم استبدلتم زيدا وعمرا، أم تغيرتم بتغيّر الزمان."[2]

إنّ هذه الأسئلة هي نوع من إلحاح الكاتب ورغبته وتمنيه في عودة صلة الصداقة كما كانت، فهو شخص وَفِيٌّ ودود.

إنّ أغلب رسائل ابن عميرة في العتاب رسائل حبّ ومودّة، رسائل فيها عتاب عن القطيعة والبعد والجفاء، معظمها تحمل نبرة اللين واللطف، لكنّه أحيانا يبالغ في الوصف، ويغيّر لهجة خطابه حتى يصل به إلى درجة اللوم الشديد والتهديد والهجاء، ومن ذلك قوله: "أيها الخلّ الذي بحبّه عذيت، وفيه وفي أبيه أذيت، أرى وفاءك عمّاريا، وجزاءك سنماريا، وعهدك لخصيب البنان، وتمايلك من قضيب البان، أملأ سجلك وتريق رشحي، وأُبري سهمك فتعمد به كشحي، وأنصح لك وقد غششتني، واسترقي لك وطالما نهشتني، فمهلا

[1] – أبو عبد الله اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص167.

[2] – المصدر نفسه ، ص215.

أيّها الظلوم، وحسبي منك هذه الدناءة واللّوم...لقد آن أن أبدي تهجّمي، وأفوق أسهمي، وأمنع لامسي لين الصّفوح، وأطرح على لابسي حلّة ذي القروح، فأشفي صدرا طالما أوغرته، وأرفع حقا بجفائك صغّرته، فاذهب بالذي أغمدت قد سللته، وما كنت أجمدته فإنّي أسلته"[1].

ومن هنا يمكننا القول بأنّ "للعتاب درجات، وأنّها مرتبطة ارتباطا كليا بنوع علاقات الأفراد والأخلاء،فمثلا إذا كانت العلاقة جيّدة وممتازة أو متجذّرة بين هؤلاء كان العتاب هنا رقيقا رفيقا، وإذا كانت تلك العلاقة متّسمة بالتوتر والتأزم بين هؤلاء كان العتاب شديدا وشبيها بغرض الهجاء."[2] وهذا فعلا ما لمسناه في رسالة ابن عميرة هذه، فكأنّ به يهجو لا يلوم.

ومن رسائل العتاب ما كتبه أبو مدين شعيب رسالة يعبّر فيها عن شوقه وحنينه لصاحبه أبي محمّد عبد العزيز بن أبي بكر* الذي طال غيابه عنه، يقول فيها: "أما بعد فإنّه من اتّقى الله سبحانه وقاه؛ ومن توكّل عليه حقّ التوكل كفاه؛ ومن استعاذ به نجاه، ومن شكره والاه؛ ومن أقرضه جازاه؛ واجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك؛ فإنّه لا عمل لمن لا نيّة له ولا أجر لمن لا خشية له... ضاق صدري حين أتت المراكب ولم نر لك فيها كتابا،

[1]- أبو عبد الله اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص196-197.

[2]- طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج2، ص72.

* - واحدا من أصحاب الشيخ أبي مدين بن شعيب، إمام وأديب له الأشعار الحسنة، فقد كان دائم التراسل مع أبي مدين، وافته المنية سنة 621هـ (ينظر: ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، تح: محمد الفاسي وأودولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، دط، دت، ص97-98).

فرأيتك في النوم وأنت تقول لي: إن كنت تريد بسلامك على الدنيا، فلا تسلّم عليّ، ولا نسلّم عليك؛ وإن كنت تريد الآخرة فسلامك يبلغني وإن كنت لم تكاتبني، وسلامي يبلغك وإن لم أكاتبك. فزال عن قلبي ما كنت أجده من القبض. فالله سبحانه لا يقطعك عني يقظة ولا نوما والسلام"[1].

يتجلّى لنا من خلال هذه الرسالة الصوغ الفني البليغ، ففيها عبّر أبو مدين عن حبّه لصديقه وشوقه الكبير له، حتّى وصل به هذا الحبّ للومه وعتابه عن عدم بعث مكاتباته إليه، كلّ هذا كان بواسطة الأسلوب المسجّع الذي يهدف إلى لفت انتباه السامعين.

وممّا نستنتجه من هذا الغرض أنّ:

1. رسائل اللوم هي من المكاتبات التي يحاول بها صاحبها أن يعيد العلاقات الاجتماعية إلى أصلها الأوّل التي كانت عليه، ورغبتهم في إعادة ربط الناس بعد أن فرّقتهم الظروف والأقدار وأبعدتهم عن أحبّتهم.
2. تتراوح لغة اللوم والعتاب بين الليونة أحيانا والقساوة أحيانا أخرى، وهذا يتعلّق بالأساس إلى الحالة النفسية لصاحب الرسالة.
3. يعتمد الكاتب في هذا الغرض على علم البديع، حتى يكسب نصّه جمالا ورونقا يمكّنه من التأثير في المتلقي ويستميل قلبه نحوه.

[1] – ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، ص 99.

- **المودة والصداقة:**

هي غرض من أغراض الرسائل الإخوانية، التي فيها حديث عن العواطف المشحونة بالحب والودّ، والتي تجمع بين المرسل والمرسل إليه.

يحمل هذا النوع من الرسائل معان تدور في مجملها حول صفاء النفس، وصفاء الود، والإخلاص للطرف الآخر.

ومن بين ما دبّج في هذا الغرض رسالة أبي الحسن بن مروان الرباطي إلى صديقه ابن الربيب، يطلب منه أن يعيره نسخة جليلة من كتاب غريب " يا أخي سدَّد الله آراءكّ، وجعل عقلكَ أمامكَ لا وراءك، ما يلزمني من كونك مضيِّعاً أن أكون كذلك، والنسخة التي رمتَ إعارتها هي مؤنسي إذا أوحشني الناس، وكاتم سري إذا خانوني فما أعيرها إلا بشيءٍ أعلم أنك تتأذى بفقده إذا فُقد جزء من النسخة وأنا الذي أقول:[1]

أُنْسُ أَخِي الفَضلُ كتــابٌ أَنيقْ ... أو صاحبٌ يُعنى بودٍّ وثيـــقْ

فـــــــــإنْ تُعِرْهُ دون رهنٍ به ... تخسرْهُ أو تخسرْ وِدادَ الصديقْ

وربَّما تخســـــــــــــرُ هَذَا وَذَا ... فَاسمَعْ رَعَاكَ الله نُصحَ الشَفِيقْ "

هي رسالة فيها تعزيز وتوطيد للعلاقات الأخوية الجامعة بين أبي الحسن الرباطي وابن الربيب، مفرداتها قليلة، لكنّ معانيها كبيرة، قيّمة عميقة، ومشاعرها صادقة.

ومن الرسائل الأخرى التي تردنا في مجال الحب والمودّة والصداقة رسالة ابن عميرة إلى صديقين له، فيخاطبهما قائلا:

[1]- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط2، ج2، ص460-461 (لا يوجد معلومات إضافية عن الكتاب، ما عدا الطبعة والجزء).

تحيَّةٌ مِنكُمَا أَتَـــــــتنِي طَابَـــت كَمَا طَابَمُرسِلاَهَا
وَيَالَهَا أذكرَت عُهُـــودًا قَلبيَ وَاللهِ مَا سَـــــــلَاهـَـا
حَلَلتُمَا فِي البِلَادِ أَرضًـــا ريحُ صَبَاها عني ســلاهــا
لَمْ يَصبْ قَلبِي إِلى سِوَاهَا يومًا ولم يَسلْعَنْ سَلَاهَـا

كتابي أيّها الأخوان اللذان بودّهما أقول، وعن عهدهما لا أحول -أنزلكما الله تعالى خير منزل، وجعلكما من النوائب والشوائب بمِعزِل- من رباط الفتح، ولبّي قديما ملكتما رقّة، وقلبي تعلّما وتعليما عرفتما صدقه، كيف حالكما من سفر طويتما خبره، حين تجشتما غرَرَه؟"[1]

هي رسالة كتبها ابن عميرة إلى صديقين له، فقد وجدناه في بداية الرسالة يحييهما تحية حارّة مملوءة بالودّ والحب وهذا ظاهر من خلال الأبيات الشعرية التي نظمها في حضرتهما.

وفي هذا الخطاب محافظة "على عهود صداقة صديقيه اللذين استحوذا على شخص ابن عميرة كلّه، بل ملكا قلبه، وعرفا صدقه"[2].

لقد عبّر ابن عميرة في هذه الرسالة عن حبّه الكبير لصديقيه وعن اشتياقه لهما، وفي الوقت نفسه رسالة يظهر فيها حنينه الجارف إلى وطنه الأندلس، وتحسّره للأوضاع التي آلت إليها بلاده، يقول: "كيف سخت نفوسكما بأمّ الحصون، وذات الظلال والعيون؟ تربة الآباء، ومنزلة الجمحيين النجباء، حتى صرمتما حبلَها، وهجرتما حَزنَها وسهلَها، وخضتما عُبرَ

[1] - المقري، نفح الطيب، ج 1، ص312-314.

[2] - الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج2، ص12.

الفِجاج، وخُضرَ الأمواج؟ ما ذاك إلّا لتغلّب الحادث النكر، وتألّب المعشر الغدر، ومن أجل الداهية النكداء، والحادثة الشنيعة على البلاد، أزعجتكم حين أزعجتنا، وأخرجتكم لما أخرجتنا، وطوّحت بنا طوائحها، واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحها، فشكرا لله تعالى على قضائه، وتضرعا فيما نرفعه من دعائه، وهنيئا لنا ولكم معشر الشرداء، المنطوين من الشجن على الشرّداء"[1]

نجد ابن عميرة في هذه الرسالة، صادق الإحساس، قويّ الشعور، دقيق الوصف، استخدم ألطف الألفاظ للتعبير عن أبهى المعاني وأجملها.

- **رسائل التهاني:**

تعتبر التهنئة بالمولود أو بالزواج أو بالمنصب أو الترقية فيه أو بأية مناسبة سارة واحدة من المظاهر الاجتماعية الهامة، فيها التعبير الصريح والمباشر عن المشاعر والعواطف والانفعالات التي يكنّها أحدهم اتجاه الآخر، خلالها تظهر مقادير الحب والمودّة، وبواسطتها تُشكر النعم، وتقوى العلاقات الإنسانية وتتوطد حيث "لا تكتمل سعادة الإنسان بحادث سار طرأ عليه إلا إذا وجد من يقاسمه هذه السعادة من جموع الإخوان والأصدقاء المقربين"[2]، وعليه فهي من المواضيع الموغلة في تاريخ البشرية.

[1]- المقري، نفح الطيب، ج1، ص313.

[2]- حكيمة ايملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم-العهد الموحدي نموذجا-، ص100.

وممن طرق هذا الباب الكاتب الموحدي ابن عميرة المخزومي، إذ أنشأ حينما كان قاضيا بشاطبة رسالة تهنئة لـ"أمير المسلمين ابن هود* المستولي على الأندلس آخر دولة الموحدين بوصول الكتاب العباسي الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس"[1] يقول فيها: "أما بعد، فكتب العبيدُ –كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدا إلا تخطته؛ ويدا علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته– من شاطبة وبركاتُ الأمر المجاهدي المتوكليّ، والعهد الواثقي المعتصمي، تنسكب كالمطر، وننسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الوِرد والصَّدر،...وصل الكتاب الكريم متحلّيًا بِرُواء الحق، ناطقا بلسان الصدق، واصفا من التشريف والفَخار المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان، ولا يوم كذلك اليوم تبدَّى نظره للعيان، أو تأدى خبره في أخبار الزمان، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحَصَر، ويهدي سواده سواد القلب والبصر"[2].

والواضح من خلال هذه الرسالة أنّ ابن عميرة المخزومي قد جعل من السجع وسيلة لتزيين كلامه وإعطائها نغما موسيقيا رنّانا، فكلّ فاصلة من فواصل كلامه إلّا واختار لها حرفا

* – محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي رجلا من سوقة كان أبوه سمسارا يبيع الكنابيش بسلا، كان ممن بايع عبد المؤمن، فشهد معه فتح مراكش، لكن سرعان ما تركه وذهب إلى ناحية السوس مدعيا المهدوية، فقاتله عبد المؤمن إذ كلّف أبا حفص الهنتاني بقيادة الجيش فتمكّن هذا الأخير من الإطاحة به. (ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2،ص145 وما يليها).

[1] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص 319.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص 319-320.

تنتهي به، والجميل في الأمر أنّ سجعه يختلف من فاصلة لأخرى، فكتب بالميم وكتب بالنون وحتى الفاء، وهذا يدلّ على قدرته التعبيرية الرائعة، وحسن استخدامه لفنون البديع المختلفة.

وحتى الجناس ظهر في كمّ من موضع، منه قوله "وممّا أفاد الكتاب المبهج بطب أنبائه، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه"[1]، ومنه قوله كذلك "وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحَصر، ويهدي سواده سواد القلب والبصر"[2]، والجناس واضح في كل من أنبائه آبائه والحصر والبصر.غير أنّ الطباق تكرّر هو الآخر في كم من موضع، منه قوله حيّا ميتا[3]، باديهم حاضرهم[4]، وكل هذا أعطى للنص رونقا وجمالا.

كما يظهر في هذه الرسالة تأثر ابن عميرة الكبير بالقرآن فجلّ المفردات دينية، حتى ألفيناه كم من مرة يقتبس إما اقتباسا مباشرا أو غير مباشر، فيقول في موضع من مواضع هذا الكتاب:"وهبة من مواهب الكشف يجدها من مثل قوله ﴿فَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ﴾[5] ، فكان من أهل الاستقامة"[6].

كما وجدنا هذه الرسالة تحمل اللغة الجزلة والمعاني الواضحة، فهو يخاطب ابن هود بعبارات ترفع من شأنه وتعلي من قيمته مثل قوله (كتب للمقام العلي المجاهدي المتوكلي)، ثم

---

[1]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، ص320.

[2]- المصدر نفسه، ج1،صن.

[3] - المصدر نفسه ، ج1، ص320.

[4]- المصدر نفسه، ج1، ص ن.

[5]- سورة هود الآية رقم112

[6]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج1، ص ن.

ينتقل إلى وصف الأندلس وأهلها بأبهى الأوصاف، بعدها يفرغ إلى الحديث عن بني العباس ونسبهم الرفيع، ثم يبرز الغرض من هذه الرسالة، ومن ثمّ يختم كتابه هذا بتعظيمه للأمة الإسلامية، من خلال المزج بين الأجناس الأدبية النثر منها والشعر، وهذا الأمر تكرّر بكثرة في كتاباته، فتارة يبدأ بالشعر وتارة أخرى يختم به، وأحيانا يتخلّل الشعر نصّه المنثور.

وله رسالة أخرى يهنّئ فيها أحد أصدقائه المقربين*، بتوليه منصبا رفيعا، فيقول: "كتابي إلى سيدي الذي أوده عن بصيرة، واعتده أنفس ذخيرة، أبقاه الله وفضله معلوم أوّل، وكماله نصّ ما فيه متأوّل، من فلانة وبركة الإمامة السعيدة شمس الظهيرة ظهورا، ومنبع جودها هو الماء الذي خلقه الله طهورا،...وكنت خاطبته أوّل ما قرع سمعي هذا الخبر الذي نعمت به بالا، ووجدت به لحياة المرح شبيبة واقتبالا، ووفيت حق التهنئة التي أخذتُ سهمي منها مبدأ، ولم يكن أحد قبلي بها مهنّأ، وقلت للدّهر أما وقد أسعفت فيمن نحب ونكرم"[1]، هي رسالة جليلة تحمل لغة سهلة ومعان راقية، معاني واضحة وضوح العبارات.

وممّا نورده في هذا الباب كذلك تهنئة ابن عميرة المخزومي لصديقه ابن الأبار بمناسبة تولّيه لمنصب الكتابة للخلافة الموحّدية، ومما جاء فيها قوله:

"على قَدرِ حُبِّي قد أَتَتكَ بشَارَتِي وَحَسبُكَ مَا أجملتُهُ منَ إشارَتِي

هَنِيئًا هَنِيئًا قَد رَفَلتَ مِنَ المـــــنَى بِأَفخَرِ مَلبُوسٍ وَأَجمَلِ شَـــــارَةِ

* – لم يذكر في الرسالة من هو، حتى محمد بن معمر حينما جمع رسائله الأخوانية وحقّقها لم يعلق على هذه الرسالة بفك الإبهام عن هذا الصديق.

[1]– أبو عبد الله محمد اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص274-275.

أنعمت الخلافة العزيزة العلية المنصورة أيد الله أوامرها، وأخلد مفاخرها بقدومكم على حضرتها السعيدة المباركة التي هي مركز راية الحق، ومجتمع وفود الخلق، أمرت عبدها أعلى الله جدها، وأمضى حدّها أن نخاطبكم بذلك فاعزموا بحول الله على الحركة، وبادروا إليها على الخير والبركة، فقد تعن لكم الزاد الكريم واستقبلكم من خير النظر ما به يبرأ السقيم ويسعد الظاعن والمقيم، والله يوزعنا —معشر عبيد المقام الكريم– شكر نعم لولا فضله لم نكن أهلها، ويحمل عنا حقوقها، فإنّا لا نستطيع حملها، وهو تعالى يديم عزّتكم، ويحفظ مودتكم بمنه والسلام الكريم يخصّكم به مجل قدركم، وموجب بركم أخوكم الحافظ لعهدكم، المقيم على ودّكم، ابن عميرة ورحمة الله وبركاته، كتب بتاريخ كذا سنة سبع وخمسين وستمائة"[1].

إنّ رسائل ابن عميرة الإخوانية لا تكاد تخلو من الأبيات الشعرية، وقد ألفيناه يحافظ على الولاء والطاعة للخلافة الموحّدية وهذا ظاهر من خلال الجمل الدعائية الكثيرة، ومن ذلك قوله: " أنعمت الخلافة العزيزة العلية المنصورة أيد الله أوامرها، وأخلد مفاخرها بقدومكم على حضرتها السعيدة المباركة التي هي مركز راية الحق"[2]، بعد الدعاء غلى الخلافة الموحّدية وتمجيدها وتخليدها ينتقل إلى حمد الله عزّ وجلّ على آلائه، حتى تدوم نعمه عليهم، فيقول:

[1]– أبو العباس أحمد بن محمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، ط2، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص251–252.

[2]– أبو العباس أحمد بن محمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية ، ص 251.

"والله يوزعنا –معشر عبيد المقام الكريم- شكر نعم لولا فضله لم نكن أهلها، ويحمل عنا حقوقها، فإنَّا لا نستطيع حملها"[1].

وفي خضمّ هذا الخطاب الشائق نجد ابن عميرة يعبّر عن حبّه ومودّته لصديقه وهذا ظاهر في الأدعية المخصّصة له "وهو تعالى يديم عزّتكم، ويحفظ مودتكم بمنه والسلام الكريم يخصّكم به مجل قدركم"[2]، وهو هنا يلجأ إلى الخالق عزّ وجلّ ليديم انتصارات صديقه، وأن يحفظه ويصونه، وأن يديم الودّ والمحبّة بينهما.

إنّ الكاتب يستند في التعبير عن تهنئته لابن الأبّار إلى معاني الفخر والمدح والحبّ، والدّعاء، ولعلّ معاني الدعاء هي الغالبة في هذه الرسالة، وهذا راجع إلى أنّ الكاتب كان فقيها وشيخا جليلا.

وعليه يمكننا القول بأنّ لخطاب التهنئة مصطلحات خاصّة، لا يمكن لنا أن نجدها في رسائل أخرى كالاستعطاف مثلا، ومنهاتلك المتعلّقة بالتهنئة،في قوله: هنيئا، أجمل، أفخر، الزاد الكريم، العز، المودّة، القدر، الودّ، الملبوس –ويقصد به هنا شارة منصب الكتابة-، والمصطلحات هذه لها علاقة كبيرة بغرض المدح لأنّ الكاتب كان غرضه تهنئة صاحبه وفي الوقت نفسه يمدحه ويفتخر به.

وتحضرنا رسالة أخرى من كتابة صفوان بن إدريس هنّأ بها أبا القاسم بن بقى بمناسبة تولّي خطة القضاة سنة 592، يقول فيها: "حُسنُ الأيام وجمالها، ومآل الآمال وثمالها، وبَصرُ

[1] – أبو العباس أحمد بن محمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، ص 251.

[2] – المصدر نفسه، ص251.

المعارف وسَمعها، وواحدُ الفضائل وجمعها، أبو القاسم بن بقى بن مخلد، بُورِكَ في والدٍ وما ولد:

نسبٌ كأن عليه من شمس الضُّحى نورًا ومن خلق الصّباحا عمودا

...نفع الحقّ به علله، ونقع غُلَله...عمادى الأكرم، وملاذى الذي أنفخ من حَدِّه في ضَرم، وأحلَّ من الاختصاص به محلٍ الحرَم، وتخيّرتُ عُلاهُ ومن أخصب تخيرَّ وما كنت إلّا كنت كالغريب ارتاد الجوار، والمحلّى انتقى المِعصَم حين صاغ السِّوار...والله –تعالى- يديم مدة قاضي الجماعة الأسرى، ونعمُ الله سبحانه عليه تَترى، وما يريه من نعمة إلا هي أكبر من الأخرى"[1].

ومن رسائل التهاني قول أحدهم في تهنئة صاحبه بتوليه منصب القضاء: "أدامه الله حليا يتنزّل من مشاهد المعارف، تنزلُّ الرُقم من أرداف المطارف، وهذا شيئٌ سألتُ الله فيه وقد فعل، فإيّاه أسأله، كما جعله حيث جعل، أن يهنئ الأحكام ما تأتى له من توليه وافعل، لأنّ قدره دام عُمرهُ، وامتثل نهيه الشرعي وأمرهُ لأعلى رتبهُ وأكرم محلا، من أن يتحلى بخطة هي به تتحلى... فقصاراهُ أن يتولى الأحكام للأجر، لا للتعنيف والزجر، لا لقبح الاستهزاء...وما كنت إلّا كالغريب إرتاد الجوار والمحلّى انتقى المعصم حين صاغ السوار فأمّا

[1]– تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص432، نقلا عن الذيل والتكملة، السفر الرابع، تح: إحسان عباس، ص141.

وقد حمى انتهاضك، أعطانى الله ما أعطانى، وحين وردت هذه البشائر العامة أوطاني، فاليوم يا عزى ويا سلطاني."[1]

واللافت للنظر في هذا النّص لغته البرّاقة التي تحمل شحنة كبيرة من المشاعر والانفعالات الصادقة الممزوجة بين الفرح بهذا المنصب للصديق وبين التهنئة والدعاء له بدوامها عليه.

- **رسائل التعزية والرثاء:**

هي رسائل فيها كآبة وحزن وخطاب دامع، وألم فقدان الأعزاء جلي، فهي نوع من أنواع المرثيات، فيها يبرز الكاتب شعوره الحزين اتجاه من يفقد، كأن يكون المفقود صديقا أو ولدا أو أخا أو حتى ملكا أو خليفة.

ومن الرسائل التي تحضرنا في هذا الغرض تعزية ابن عميرة المخزومي للمستنصر الحفصي بوفاة والده أبي زكرياء، يقول فيها: "ورد الخطاب العليّ الكريم مفصحا بالدّاهية الكاشفة عن ساق، الكاسفة للبدور والشموس عن تمام وإشراق، فأيّ رزء دهم الأنام، وعين أصابت الإسلام، وسهم للرّدى كسر النّصال وحطم السّهام، بالحدث في مولانا المقدّس المجاهد المرتضى ألحقه الله بسلفه الأطيبين"[2] .

لقد ارتكزت هذه الرسالة على معان عديدة أوّلها؛ معاني الألم والتّحسّر "ورد الخطاب العليّ الكريم مفصحا بالدّاهية الكاشفة عن ساق، الكاسفة للبدور والشموس عن تمام

[1]- المراكشي، الذيل والتكملة، ج4، ص141.

[2]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص361-362.

وإشراق، فأيّ رزء دهم الأنام"[1]، وثانيها معاني الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم لأمره حيث يقول: "وأمِرَ العبد ببسط الآمال، وضبط الأحوال وإشعار الناس بما لهم عند المقام الكريم من القبول والإقبال، والعبد مشمّر لذلك عن ساعد، موكل به طرف ساهد مشاهد، والناس والحمد لله إلى هذا الخير سراع، ولهم على صدق الطاعة إجماع، يعرفون قدر النعمة، ويتصرفون بهممهم كلّها إلى ما تقتضيه من الخدمة"[2]، ومعان أخرى تدور في نطاق التخفيف من أثر الوفاة على الشخص الحي.

إنّ نبأ الوفاة هنا كان قويا وصادما على نفسية المرسل، لأنّ هذا النبأ "وكما هو معلوم وبديهي ليس بذلك الشيء الهيّن على النفوس وخاصّة إذا كان الفقيد من أقارب الدرجة الأولى، أو من أعزّ الأصدقاء، أو ممّن كان يقدّم خدماته لكلّ من يستحقها من ذوي الفاقة والاحتياج، أو ممّن كان يرغب فيها"[3]، والدليل على صعوبة هذا الموقف المفردات التالية: فأيّ رزء، عين أصابت، أظلمت الدنيا، البكاء.

وبهذا يمكن لنا القول بل التأكيد على أنّ الشعور كان صادقا وقويا، فيه تعبير عن قسوة البعد وحرارتها، ترجمها ابن عميرة نثرا مسجوعا، فلو نتأمّل الرسالة تأمّلا جيدا نجد الكاتب كثير الاعتماد على هذا المحسن البديعي ومن ذلك قوله: "وهو تعالى يزيد أنوار المقام الكريم وضوحا، ويبقى نظره لجسم البلاد روحا، ولا يخليه من فتوح تعقب فتوحا، ونصر يعود

[1]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص 361-362.

[2]- المصدر نفسه، 362.

[3] - طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج2، ص44.

ما كان منه ممنوعا ممنوحا"[1]، وعليه فجلّ رسائل التعزية ما هي إلّا تعبير ووصف دقيق للحالة النفسية التي يمرّ بها الكاتب في لحظة تحريره لذلك الخطاب.

وإذا ذهبنا إلى خطاب آخر لابن عميرة، خطابا أشدّ ألما من الخطابات الأخرى، لأنّ الكاتب يعزّي في أعزّ الناس على وجه الأرض ألا وهو الأمير أبي زكرياء الحفصي الذي حمى البلاد وأبناءها من الضياع، وفقدانه "لا يؤثّر في البشر فحسب وإنّما يؤثّر حتى على العقيدة نفسها، بحيث إنه كان في خدمتها وحمايتها من خصومها وأعدائها"[2].

وهذا يظهر بجلاء في قول ابن عميرة: "كتب العبد كتب الله للحضرة الأميرية العليا الطاهرة المباركة السُّنّية اليد الطولى،...من بجاية كلأها الله حين ورد الكتاب العلي الكريم بالخطب الذي أنسى الخطوب، وقلقل الجنوب، وعلم دمع الجفون أن يصُوب، وأعشار القلوب أن تذوب، وهو الحادث في مولانا المقدّس المجاهد المرتضى كرّم الله مثواه، وجعل جنّة المأوى مستقرّه ومأواه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون تسليما للأمر، وانطواءً على أحرّ من الجمر، وتفجعا للطارئ الذي أظلمت له الأيّام، وشُدِهَ به الأنام..."[3]، إنّ وفاة االأمير الحفصي حادثة قاسية، ومصيبة كبيرة أصيبت بها الدولة الحفصية، وهي مصيبة لها وقعها العظيم على العباد كافّة، والبلاد على وجه الخصوص، فلولا القيمة العظيمة للفقيد، ومكانته لدى المرسل، ولولا المكانة القيّمة للمفقود لما كتب ابن عميرة بهذه الرسالة.

[1]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص363.

[2]- طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج2، ص50.

[3] - المصدر السابق، ص367.

إنّ الدافع من وراء رسائل التعزية هذه هي رغبة الكاتب في تأبين الميت، وحبّا في التخفيف عن الحزن الكبير الذي يصيب أهل المفقود اتّجاه هذا الخطب الشنيع، إضافة إلى هذا فإنّ الكاتب لرسالة التعزية يريد بها إثبات حقيقة الموت وترسيخها لدى النفوس، والتسليم لهذه الحقيقة، لأنّ كل نفس ذائقة للموت.

ومن رسائل الرثاء رسالة الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنان* في رثاء زميله وصديقه المقرب سهل بن محمد بن سهل بن مالك** ، يقول فيها:

"إِذَا أَذهَبَ الله العُلُومَ وأَهــلَهَا فَمَا الله لِلدَهرِ الجَهُولِ بِتَــــارِكِ

هَل العِلمُ إِلَّا الرُوحُ وَالخَلقُ جُثةٌ وَمَا الجِسمُ بَعدَ الرُوحِ بِالمتَمَاسِكِ

حديث الأشجان شجون... لنعي الجليل السعي ورزية الجميل السجية ووفاة الكريم الصفات وفقد الصميم المجد وذهاب السمح الوهاب، وقبض روحاني الأرض ...وانكساف شمس العلم وانتساف قدس الحلم...فأنا أبكي عالما كبيرا وعَلما شهيرا."[1]

* – هو الشاعر الأندلسي أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المشهور بابن الجنان، نشأ بمرسية، حافظ للقرآن الكريم، له من العلوم الدينية والأدبية ما له (للمزيد ينظر: ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط2، 1989، ص123).

**–سهل بن محمد بن سهل بن محمد بن مالك أبو الحسن الأزدي الغرناطي، خطيبا بليغا، وشاعرا وفقيها (للمزيد ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص103).

[1]– ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج4، ص108–120

رسالة الرثاء هذه فيها مزاوجة بين النثر والشعر فقد استهلها بمقدّمة مشكّلة من واحد وثمانون بيتا، كتبها ليبيّن حبّه وولعه الشديد بأخلاقه وسلوكياته الطّيّبة، فقد أجاد الكاتب في المنظوم كما أجاد في فنّ المنثور، وهذا دليل على حنكته ومقدرته اللغويّة.

كما كتب عبد الرحمن بن عذرة* رسالة تعزية ورثاء في الوقت عينه، في وفاة صديقه الكاتب أبي محمد بن أبي العباس، يقول فيها: "سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد حمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا يشكر على نزول الفواجع إلّا إيّاه، والصّلاة على محمّد نبيّه ورسوله ومجتباه...والأنوار كلّها في العيون ظلمٌ وأكدار أسفا على ما جرى به القدر السابق، والقضاء اللاحق في وفاة الشيخ الفقيه، الحافظ الكاتب، الأجل الأوحد علم الأعلام وسراج الأيّام وتاج الكمال والتّمام، فعلى مثله تبكي المجالس والمحاضر، وتندب المحافل والمنابر، وترثي الدفاتر والمحابر، وتنوح المآثر والمفاخر، فلقد أصبحت آثاره بعده دراسة"[1] نلحظ على هذه الرسالة نبرة الصوت الحزينة، فصاحبها انتقى كلّ الكلم التي فيها كآبة وحزن حتى يبيّن حزنه، ويعبّر أدقّ التعبير عن نفسيته الحزينة جراء فقدان صديقه، فقد جاءت هذه السالة في قالب فني جميل، زاده جمالا النغم الموسيقي الذي اكتسبته الرسالة

* – هو "أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر بن عذرة الأنصاري القاضي، من أهل الجزيرة الخضراء...خطيبا مفوّها، توفي سنة ست وستمائة" للمزيد ينظر: ابن الأبار، تحفة القادم، ص145-146.

[1] – طبيش حنينة، صور السخرية في الرسائل الأندلسية عصر ملوك الطوائف والمرابطين، أطروحة ماجستير في الأدب الأندلسي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حاج لخضر باتنة، الجزائر، 2009/2008، ص51.

جرّاء توضيف السجع فمثلا في هذه الجملة "فعلى مثله تبكي المجالس والمحاضر، وتندب المحافل والمنابر، وترثي الدفاتر والمحابر، وتنوح المآثر والمفاخر"[1]

اختار حرف الراء ليشكّل به وصلة موسيقية حزينة.

المبحث الثالث: الرسالة الوصفية

–تعريفها:

ركّز دارسي أدب الرسائل في عهد الموحدين على الرسائل الديوانية، وأغفلوا نوعا مهمّا، يحمل زادا لغويا وفكريا وتاريخيا هامّا، ألا وهو الرسالة الوصفية.

إنّ هذه الرسائل لم يخصّصوا لها بحثا مستقلا، كما أنّهم وفي دراستهم العرضية لهذا النوع جعلوه جزءا لا يتجزّأ من الرسالة الديوانية باعتبارها غرضا من أغراضها، لكن –وفي رأينا الخاص– فإنّنا نعدّ هذا الفن نوعا مستقلا لا علاقة له بالرسالة الديوانية أو حتى الإخوانية، فهي تختلف عنها وتبعد بخصائصها كلّ البعد عنهما.

وربّما يتساءل أحدهم ويقول: أولم تعتمد الرسالة الديوانية أو الإخوانية على الوصف؟ نجيب ونقول: بلى، فإنّ الوصف المستعمل في هذه الرسائل كان أسلوبا فيها وليس غرضا من أغراضها، فهذه الرسالة تعتبر نوعا مستقلا مثلها مثل بقية الأنواع المذكورة لها خصائصها وأغراضها.

[1]– طبيش حنينة، صور السخرية في الرسائل الأندلسية عصر ملوك الطوائف والمرابطين، ص51..

إنّ الرسالة الوصفية من أقدم فنون النثر العربي فيها يتمّ الحديث عن الأحداث والوقائع والمناظر المشاهدة، فيها يتمّ نقل الحادثة نقلا حرفيا، متتبّعين خصائصها ومميزاتها، كما أنّهم يسردون فيها أقوالهم وأفعالهم ورحلاتهم، وهذا كلّه ممارسة سردية تستعين باللغة البسيطة المفهومة، والأخيلة والصور المحقّقة للمتعة الفنّية الجمالية.

هي مكاتبات يغلب عليها دقّة التصوير، وحسن التعبير، وجمال الأسلوب، فيها يقوم الكاتب بوصف ما أثار حفيظته من مناظر طبيعية، وأماكن أثرية وبلدان زارها، فالوصف يقوم على "نقل صورة العالم الخارجي أو العالم الداخلي من خلال الألفاظ، والعبارات، والتشابيه، والاستعارات التي تقوم لدى الأديب مقام الألوان لدى الرسّام، والنغم لدى الموسيقي"[1].

والوصف بعبارة أخرى "تعبير عفويٌّ عن المشاعر التي يُحسُّ بها الأديب أمام الأحداث، والمشاهد المحيطة به، أو العوامل الفاعلة في وعيه، وفي لا وعيه."[2]

وللرسالة الوصفية أغراض متعدّدة منها: وصف الطبيعة سواء أكانت جامدة أو حيّة، وصف المدن وعمرانها، ولنا في هذه الأغراض تفصيلا فيما بعدُ.

[1] – جبور عبد المنعم، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص293.

[2] – المرجع نفسه، ص293.

-أغراضها:

- **وصف الطبيعة:**

سحرت الطبيعة المغربية والأندلسية كُتّاب الدولة الموحّدية، وكان من سمات هذا السحر والانبهار، إعجابهم وولعهم الشديد بمظاهرها المختلفة، وهذا الإعجاب ترجموه لنا نثرا، في رسائل وصفية طويلة، مملوءة بالحسّ الرفيع، والتذوّق الجميل.

وهنا نجد الكاتب يُعنى بوصف الطبيعة وما تحويها من مناظر خلابة، وصفا يجعلك تتخيّل الصورة وكأنّها أمامك، ومن ذلك ما وصفه ابن عميرة في رسالته التي كتبها حول رحلته إلى مدينة قسنطينة، فيقول في حضرتها: "وحتى كأنّ الأيّام وفت لها على خلاف عادتها، وأرادت أن تبلغ بها ألوان سعادتها، وذلك لأنّ تبوّأ المولى منزلها مناخا بذي طواه، ومستقرا لإجمام قواه، واختار هواءها الخالص من الأقذاء، وماءها المصلح للغذاء"[1]

وفي هذا النّص وصف للطبيعة الجامدة التي تتوافر عليها مدينة قسنطينة، من ماء نقي، وهواء صاف يريح قلب الباحث عن الاستجمام فيها.

ومن رسائل ابن عميرة الوصفية، تلك الرسالة التي كتبها في رحلته من بلنسية إلى غرناطة*، وفيها يقول: "وسرت بجلد منصرم، في هجير مضطرم، إلى الحمّة** فإنّ الهواء مثل

[1] – ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج4، ص 138.

* – في أواخر سنة 635هـ وبداية سنة636هـ، كان ابن عميرة المخزومي مقيما في مرسيّة حينما كانت في أيدي زيان بن مرنديش، لكن هذه الإقامة لم تدم مطوّلا، وإنّما اضطرّ إلى الرحيل إلى غرناطة وهذا بسبب الهجمات الأرغونية والقشتالية عليها، وقد كتب هذه الرسالة الوصفيّة في طريقه إلى غرناطة، (ينظر: ابن عميرة المخزومي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص232).

مائها، والظهيرة نارٌ لا حيلة في إطفائها، فكان النزول في مكان جوّه يتعسّرُ."[1]

لقد وصف الكاتب جزءا من الطبيعة التي تتوافر عليها البلاد بين مرسية وغرناطة، فالهواء فيها صاف، مثله مثل مائها، وقد نفهم من خلال هذا النّص بأنّ رحيله من مرسية كان أمرا اضطرّ إليه، فلولا اضطراره لما ذهب للسفر في الظهيرة، أين الحرّ مشتد، صعّب رحلته، وزاد من عنائه.

لقد كان الوصف في هذه النصوص المقتبسة وصفا جزئيا اقتصر فيه على وصف الهواء والماء، لكن إذا ما واصلنا النظر في الرسائل الأخرى الوصفية لابن عميرة، نجده يغيّر الأسلوب، فاختار التفصيل في الوصف حتى تصبح الصورة جليّة للقارئ، والشاهد على ما نقول، قوله في مدينة قابس ما يلي: "ووجدته غوطي البساتين، طوري الزيتون والتّين، فأمّا النخل فجمع عظيم وطلع هضيم، وسكك مابورة ونواعم في الخدور مقصورة. وبالجملة فبقعته وارفة الظل آمنة الحرم والحل، جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل"[2]فقد أعجبته قابس وما تحويه من شجر التين، والزيتون، والنخيل، هذا الذي يُوفّر الظلال والهواء النقي فيها، فقد أصبحت قابس بهذه الأشجار تبدو وكأنّها غابة كثيفة للناظر لها من بعيد، لكنها

** – حصن قريب من لورقة، (ينظر: أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص232).

[1]– المصدر نفسه، ص232.

[2] – علي بن محمّد التَّمَكْروتي، النفحةُ المِسْكيَّةُ في السفارةِ التُّركيَّة، تح: محمد الصالحي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2007، ص94.

ورغم وجود هذه الغابة إلّا أن الهواء فيها معكّر، كما أنّ الكاتب أعاب عليها ماءها الملوّث الذي لا يصلح للشرب.

والذييبغي أن نستخلصه من هذه الرسائل المذكورة، أنّ مضمونها جاء متّصلا بالواقع المعاش، ذو علاقة وطيدة به، فوجدناها تدلّ على هواء البلدان ومائها النقي، كما ألفينا الكُتّاب يربطون سفرهم المتعب بالجو الغالب على تلك المناطق.

والملاحظ على رسائل وصف الطبيعة أنّها جاءت طويلة فيها إطناب وهذا أمر طبيعي اقتضته عملية السّرد.

- **وصف المدن وعمرانها:**

وصف ابن عميرة بلنسية، وبجاية، وقسنطينة، وبعض المدن التي سافر إليها كقابس وغرناطة وغيرهم الكثير، فقد كان في وصفه يركّز على المناظر الطبيعية التي تؤثّر فيه ويعمل على نقل الصورة الحسّية في شكلها المرئي معتمدا ما أمكنه من الأخيلة والصور البيانية اللازمة،إلّا أنّ رسائله لم تقتصر على وصف الطبيعة وفقط بل تعدّاها إلى وصف الحواضر والأبنية الشاهقة، والمناطق الأثرية لهذه المدن.

و قد تحدّث في كم من مرّة عن العمران التي تتوافر عليها هذه المناطق، وهذا إن دلّنا على شيء إنّما يدلّنا على حسّه الفني الرائع، وعلى اطلاعه على الأرصدة الثقافية للدول، وهذا هو حال الكاتب، فكلّ كاتب إلّا ويشترط عليه أن يكون واسع الإلمام مطّلعا على علوم شتّى منها التاريخ والحضارة والفنون والعلوم على اختلافها.

ومن الشواهد التي نذكرها في هذا الصدد قوله في حواضر قسنطينة ما يلي: "وقسنطينة مدينة عتيقة، وعقيلة في قصائر القياصر عريقة، وفيها كلّ آية بنيت بريعها، وصنعة حبيت ببديعها، وكلّ أثر لا يدرى أأيد بنت الإيوان صنعته، أم جنّ سخّرت لسليمان اخترعته، وحتى كأنّ الايام وفت لها على خلاف عادتها، وأرادت أن تبلغ بها أوان سعادتها."[1]ويضيف قائلا: "وقصرها الذي نجدنخ الهمم العالية، وأوجدته الأمم الخالية، وأبقوا منه أثرا نالو منه بعد اختزام القرون، وخرائب المدائن والحصون، ذكرا هو البقاء الثاني، وفخرا لم يكن في حساب الباني، ولو على قدر هذا الساكن رفع سمك بنائِه، وتولّى توسعة فنائِه، وتولّى توسعه فنائِه، لتمنّى أن يرفع سقفه مع السقف المرفوع، ويجعل نجومه أجر الصانع وأجر المصنوع، ولقد وقفت على تلك الجُدرَات مرارًا، وأطلت النظر إليها اعتبارًا، فأحدث لي منظرها طربا ما معه ضربن ونقرٌ"[2].

والملاحظ على الاستشهادين الأخيرين، قيمتهما الفكريّة والثقافية، فالكاتب ذكر الآثار الرومانية التي كانت تحوزها قسنطينة، مدينة الجسور المعلّقة، من عجائب مدن العالم وأبهاها، كما أنّ "الخطاب الأدبي في الوصف لهذه المدينة دل على أنّ الكتّاب كانوا يتمتعون بتلك الثقافة العامة والمتعلّقة بذلك الرفيع، وهذا ما تذكره الشروط وتؤكّده، والتي من خلالها كان يتم اختيار الكتّاب، وبالإضافة إلى الفائدة الحضارية للنّص، فإنّه لا يقل أهمية من

[1] – أبو عبد الله محمد بن هانئ اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، ص139.

[2]– المصدر نفسه، ص138-139.

الجانب الأدبي المتمثّل في هذا الإعجاب والرجوع إلى تخيّل الماضي، وهؤلاء البُناة الذي شيّدوا الدور والقصور وبمنتهى الجمال والإتقان."[1]

نستشفّ كذلك من هذا النّص حبّ ابن عميرة للإتقان والتفاني في العمل، وهذا ظاهر من خلال إشادته بالأعمال التي قام بها صانعوا هذه القصور.

لم يصف ابن عميرة فقط قسنطينة، بل راح يصف جامع الزيتونة في رسالة أخرى، فيقول فيها: "وكان الجامع استقى لقومه، واقتضى حقّ أمسه ليومه، ورأى ما يوعبه بسبب الخلق، من سيل الودق فشفع للظماء في معين الماء واستغاث يد الجود، للرّكع السجود، ولجأ في إسباغ الطهور لسابغ الكرم المشهور، فلم يلبث أن سمع النداء لبيك وهذه السقيا تنهي إليك، وتسيل حواليك لا عليك"[2]، إنّ الملاحظ على هذا النّص تشبّعه بالمعاني الدينية، وهذا ظاهر من خلال اقتباس العبارات الوالية الذكر: " للرّكع السجود، إسباغ الطهور، فشفع للظماء".

وإذا انتقلنا إلى كاتب أندلسي آخر، ألا وهو ابن جبير، نجده في رحلته إلى دمشق يصف حمص قائلا: "وتجد هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضعها، بعض شبهٍ بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس، يقعُ للحين في نفسِك خيالُه،

[1]– الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج2، ص84-85.

[2]–حسن حسني، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسني عبد الوهاب، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار العربية للكتاب، مصر، 2001، مج3، ص295.

وبهذا الاسم سُمِيَت في القديم، وهي العِلة التي أوجبتْ نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يُذكر. وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته، لمحةٌ من إحدى جهاته."[1]

كما وصف دمشق حينما حلّ فيها، فقال في حضرتها: "جنّة المشرق، ومطلعُ حُسنه المؤنقِ المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرّ بناها، وعروسُ المدن التي اجتلبناها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين وتجلّت في حلل سُندسيّة من البساتين، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكان، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين."[2]

كما أنّه لم يغفل عمران دمشق وحواضرها، فوصف جامعها المكرّم بما يلي: "من أشهر جوامع الإسلام حُسنًا، وإتقان بناءٍ، وغرابة صنعةٍ، واحتفال تنميق وتزيين، وشُهرته المتعارفة في ذلك تُغني عن استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه أنّه لا تنسجُ به العنكبوتُ ولا تدخله... انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله."[3]

والملاحظ على هذه النّصوص أنّ صاحبها ذو ذوق رفيع، وحسٍّ جميل، وهذا حينما اعتمد في وصفه لمدينة حمص ودمشق، الأسلوب المنمّق، والتعبير الحسن، و الأفكار البسيطة، والألفاظ السهلة التي خدمت غرضه وهدفه.

لم يصف الكتّاب فقط المدن التي زاروها بغية التّنزّه، أو طلبا للعلم فيها، إنّما راح بعضهم إلى المفاضلة بين عدد من المدن، حيث تقوم هذه المناظرة على ذكر أوصاف ونعوت

[1]- محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ص272.

[2]- المرجع نفسه ، ص273.

[3]- المرجع نفسه، ص284.

هذه البقاع، فقد برع ونبغ في هذا النوع من الكتابات أبو بحر صفوان بن إدريس الذي كتب رسالة إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقد جعل موضوع رسالته مناظرة بين عدد من المدن الأندلسية وهي بلنسية إشبيلية غرناطة مالقة وقرطبة.

قبل أن يشرع الكاتب في وصفه هذه المدن راح يدعو للأمير ويمدحه "مولاي، أمتع الله ببقاءك الزمان وأبناءه، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه، ووصل لك ما شئت من اليُمن والأمان، كما نظم قلائد فخرك على لبّة الدهر نظم الجمام فإنّك الملك الهمام، والقمر التمام أيّامك غُرر وحُجُول."[1]

إنّ هذا الدعاء هو شكل من أشكال الاحترام والولاء والإجلال للأمراء والخلفاء.

بعد هذا المدح راح يسرد أوصاف بلاد الأندلس فقد قال في غرناطة على لسانها ما نصّه: "لي المعقل الذي يمتنع ساكنه من النجوم، ولا تجري إلّا تحته جياد الغيم السَجوم، فلا يلحقني من مُعاند ضَرَرٌ ولا حيف، ولا يهتدي إليَّ خيالٌ طارق ولا طيف، ... لي بطاح تقلدت من جداولها أسلذاكا، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا، ومياه تسيل على أعطفي كأدمع العشاق، وبرد نسيم يردُّ ذَماءَ المستجير بالانتشاق"[2]، وفي هذا النّص التعبير البليغ الموجز الدقيق عن جمال غرناطة وما تحويه من مواقع جغرافية خلّابة، تبهر الناظر لها،

[1] - المقري، نفح الطيب، ج1، ص170.

[2] - المصدر نفسه ، ج1، ص172.

فهي بلدة تحوي على العديد من المنتزهات والأماكن التي تريح الإنسان الباحث عن الراحة، فمن منتزهاتها حُور مُؤمِّل ومنتزه نجد[1] وغيرهما من المواضع الصالحة للنزهة والإقامة.

بعدها وصف بحر وطرق وجنان مالقة بقوله: "لي البحر العجاجُ، والسُّبلُ الفجاج، والجنات الأثيرة، والفاكهة الكثيرة، لديَّ من البهجة ماتستغني به الحمامُ عن الهديل، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشي إلى تعويض عنه ولا تبديل"[2] وقد اعتمد الكاتب هنا على السجع في بناء فواصل جمله، فقد تخيّر لكلّ فاصلتين حرفا واحدا وبهذا أعطى لنصّه رونقا وجرسا جميلا.

وقد نسب لمرسية "الروض النظيرُ، والمرأى الذي ما له من نظير، وزنقاتي التي صار مثلها في الآفاق، وتبرقع وجه جمالها بغُرَّة الإصفاق، فمن دَوحات، كم لها من بكور ورَوحات، ومن أرجاء، إليها تُمدُّ أيدي الرجاء، فأبنائي فيها في الجنة الدنيوية مُودعون، يتنعمون فيما يأخذون ويَدعون، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدَّعون... فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم (وما يلقاها إلّا ذو حظ عظيم)"[3] نلحظ على هذا النّص فاحة اللغة وجزالتها، فقد اعتمد الكاتب في وصفه لمرسية على الاقتباس القرآني، الذي زاد نصّه جمالا وبهاءا.

---

[1]- ينظر: مريم قاسم طويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص35-36.

[2]- المقري، نفح الطيب، ج1، ص173.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص173-174.

ومن ثم ختم رسالته بوصف بلنسية وحسن عمرانها بقوله: "فلي المحاسن الشامخة الأعلام، والجنات التي تلقي إليها الآفاق يد الاستسلام، وبِرُصافي وجِسريَ أعارض مدينة السلام"[1]والملاحظ على هذه الرسالة الوصفية، دقّة التصوير وبهاء التمثيل، ولغتها الراقية، فقد زاوج فيها بين المنظوم والمنثور، كما استند في وصفه على الاقتباس بكافّة أشكاله.

وعليه فقد اعتمد الكاتب في هذه الرسالة الوصفية على فنّ المناظرة فقد وصف هذه البقاع معتمدا على نمطي الحوار والحجاج الذي يخدمهما الأسلوب الإنشائي الطلبي الذي جاء مرّة بصيغة الاستفهام ومرّة أخرى بصيغة الأمر، كما راح كذلك يبني هذه الرسالة على التشخيص والتخييل، فقد أعطى لرسالته هذه جمالا ورونقا وبعدا فكريا جذّابا وهذا كان للتأثير في "شعور المتلقين وإظهار حماستهم، فالصورة الخيالية تؤثر في النفس أكثر مما تؤثره الصورة الحقيقية"[2] في العقول والقلوب.

وإذا انتقلنا إلى ابن صاحب الصلاة صاحب كتاب المنّ بالإمامة، نجده يصف جامع قرطبة، وهو من المساجد العظيمة التي شيّدها المسلمون في بلاد الأندلس، فقد أتقنوا صناعته، وتفنّنوا في زخرفته، فيقول: "وإنِّي شخّصتُ إلى حضرة قرطبة –حرسها الله– منشرحَ الصّدر، لحضور ليلة القدر، والجامعُ –قدّس الله– بقعته ومكانه، وثبّت أساسه وأركانه، قد

[1]– المقري، نفح الطيب ، ج1،ص174.

[2]– دنيا ملكاوي، النثر الخيالي في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين التشكيل والتأويل، الآن ناشرون وموزعون، الأردن، دط، 2018، ص124.

كُسِيَ بردةَ الازدهاء، وجُلى في معرِض البهاء، كأنَّ شرفاتهِ فلولٌ في سنان، أو أشرٌ في أسنان، وكأنّما ضُرِبت على سمائِه كِلل، أو خُلعت على أرجائهِ حُلَل، وكأنَّ الشمسَ قد خلَّفت فيه ضياءها، ونسجت على أقطارِهِ أفياءَها، فترى نهرا قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوة سيل، ليلٌ دامس، ونهارٌ شامس..."[1]

نلحظ على هذه الرسالة تفنّن صاحبها في ذكره لأوصاف الجامع، فقد نعته بأبهى وأجمل النعوت التي تنمّ على مقدرة هذا الكاتب والمؤرّخ على التعبير الفصيح.

- **وصف الكاتب لأبناء مجتمعه من المثقفين والناس العاديين:**

كانت هذه الرسائل الوصفية متناثرة هنا وهناك، وجد أغلبها في كتب الرحلات، فابن جبير مثلا كتب إلى أصحابه سنة 580هـ، رسالة يصف فيها الحالة المزرية التي آل إليها مسلمي صقلية، في عهد الملك وليام، هذا على إثر زيارته لهذه المنطقة، فقد لاحظ على أبناء بلدته الهوان والضياع، والظلم والاستبداد من قبل النصارى، حيث فرض عليهم ضرائب باهضة.[2]

ومن هنا فقد تغلّب عليهم الفقر والمذلّة، فقد بدت حالة المسلمين صقلية له كأنّها "رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بآذان مسموع ولهم أرياض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا

[1]-فوزي سعد عيسي، رسائل ومقامات أندلسية، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص66-67.

[2]- ينظر: عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص 279.

جمعة لهم بسبب الخطبة المحضورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعائهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض، يرتفعون إليه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه. وأمّا المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين، تحت ذمّة الكفّار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم، ولا في أبنائهم، تلافاهم الله بصنع جميل."[1]

إنّ هذه الرسالة صورة دقيقة لحالة المسلمين، فكاتبها رسم حالتهم وكأنّها لوحة أمامنا، فيه صدق للعاطفة ونقل واقعي للأحداث.

كما راح عبد الواحد المراكشي يصف قصيدة ابن عبدون في رثاء بن المظفر فقال فيها ما نصّه: "وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع؛ ذو الوزارتين أب محمد عبد المجيد بن عبدون؛ من أهل مدينة يابرة؛ قصيدته الغراء لا بل عقيلته العذراء؛ التي أَزرَت على الشعر، وزادت على السِّحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت عن أن تساما، وأَنِفَت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثير إليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها باقل وجرير، فلله هي من عقيلة خدر، قربت بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، وأوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذي رسمته؛ مخل بالتلخيص الذي شرطته، لصحة مبانيها، ورشاقة ألفاظها، وجودة معانيها، سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق

[1]- عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، ص 279-280

إليها، وورد شريعة لم يزاحم عليها، فلذلك قل مثلها، لا بل عدم، وعز نظيرها، فما توهم ولا علم..."[1]

وفي رسالة رثاء أخرى كتب أبو الخطاب ابن دحية يرثي بعض الخلفاء العبّاسيون الذين وافاهم أجلهم، فقد قال فيها: "وأخذت من طريق خوزستان؛ إلى طريق حلوان، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان، ومررت على مدائن كسرى أنو شروان وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلّم الزاهد العابد، المعمر: سلمان، وأعملت منها السير والأغذاذ، إلى مدينة بغداد، فنظرت إليها معالم وربوعها وأقمت مرة عاما؛ ومرة أسبوعا وأسبوعا، وأنا أبدي في ندائهم وأعيد، والتراب قد علا على منازلهم والصعيد، وأسأل عن الخلفاء الماضين وأنشد، ولسان الحال يجاوبني وينشد:

يا سائلَ الدَّارِ عَن أُنَاسٍ لَيسَ لَهُم نَحوَهَا مَعَــادُ
مَرَّت كَمَا مَرّت الــلَّيَالِي أَينَ جَدِيسُ وَأَينَ عَادُ؟

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال؟ أين الأنبياء من ولده والإرسال، أهل النبوة والرسالة، والوحي من الله ذي الجلالة...أين ملوك همدان، أين أولو الأبلق الفرد أو غمدان، أين أولو التيجان والأكاليل..."[2]

نلمح لهذه النصوص الوصفية أثر البيئة المغربية والأندلسية الجميلة في تشكيل العبارات والمصطلحات، فقد غلب عليها الدّقة والوضوح والتشخيص، فقد رسموا لنا "لوحة أدبية رائعة

[1] – عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص53.

[2] – المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص115-116.

الجمال بلفظ شفّاف موشى بالسجع والجناس والمزاوجة ووفرة التشابيه والإستعارات تضفى جمالا إلى جمالها وتجسد الصورة وتنطقها وتشوق لرؤيتها."[1]

كان هذا بعض من الرسائل الوصفية التي أثبتت لنا "شغف كتّاب الرسائل الأدبية في وصف المحسوسات والمعنويات واندفاعهم العجيب في تصوير مل ما يلمون به في ترسلهم، ومكاتباتهم الشخصية، واستقصاء جوانبه المختلفة، والوقوف عند جميع جزئياته، وتحليل أطرافه سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأمور المادية المحسوسة أم فيما يتصل بأمور الوجدان والخواطر وسواها من الأمور المعنوية"[2] وهذا جزء من الرسائل التي استشهدنا بها في هذا الصدد يمثّل النزر القليل من تلك المتناثرة بين طيّات الكتب القديمة، وهذا ما أمكننا الوصول له.

بعد جولتنا في البّحث عن مفهوم الرسالة وأنواعها ومعرفة دورها، وتطوّرها عبر العصور الأدبيّة المعروفة بدءا بالعصر الجاهلي ثم مرورا بالعصر الإسلامي وصولا إلى غاية العصر الحديث، تبيّن لنا أنّ هذا الأدب أدب ثري تعدّدت أشكاله وأنواعه، فكانت الرسالة صورة عاكسة لتلك الأزمان، بدأت في التغيير والتّجديد من عصر للآخر، وبالخصوص في عصر صدر الإسلام، الذي غيّر لغتها وهذّبها، وأكسبها أسلوبا دينيا، يغلب عليها الاقتباس

[1]– رضا عبد الغني كساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، ص 223.

[2]– غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبيّة النثرية في القرن الرابع العراق والمشرق، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة العراق، 2005، ص327-328.

من القرآن والحديث النبوي الشريف، فأصبحت بهذا ذات لغة قويّة متينة، إلى أن أصبح يغلب عليها التّصنّع والتّكلف في كلّ من العصر الأموي والعباسي، ومع الرّجوع إلى البيئة المغربية الأندلسيّة، وجدنا أصحابها مولوعين كلّ الولع بآثار من سبقهم من المشارقة، فراحوا يقلّدون أساليبهم تارة، وتارة أخرى راحوا يكتبوا لأنفسهم خصائص جعلتهم يتميّزون عن غيرهم، فحاولوا المزج بين المنظوم والمنثور في رسائلهم، وهذا ما سنكتشفه في الفصول الموالية.

كما يمكننا الاستناج بأنّ عهد الموحّدين عرف تطوّرا ونموا لأدب الرسالة، فتعدّدت أضربها، وجدنا منها الإخوانية والديوانية والوصفيّة

وقد لاحظنا في هذا الفصل أنّ كتّاب الرسالة في العصر الموحّدي قد كثروا، وهذا راجع إلى الامتداد الزماني الطويل الذي عرفته دولة الموحّدين، إضافة إلى شساعتها الجغرافية الكبيرة التي فرضت عليها استعمال الرسالة للتواصل مع ملوكها وأمرائها في مختلف الأرجاء.

كما يمكننا أن نستنتج بأنّ الرسائل الديوانية كثرت في هذا العهد، وهذا للحاجة السياسيّة لها، فتعدّدت أضربها وأغراضها، منها تلك المتعلّقة بالحروب، ومنها رسائل الفتوحات والانتصارات ورسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمّا الإخوانية فمن أغراضها التهنئة والتعزية والشكوى والاستعطاف، غير أنّ الوصفيّة فوجدنا أغلبها يقوم على وصف البلدان وما تحويه من مناظر طبيعية ومناطق أثريّة جميلة.

وقد جاءت كلّ هذه الرسائل عاكسة للبيئة التي كتبت فيها، ذات صياغة حسنة وأسلوب جميل بديع منمقة.

الفصل الثالث

مقاربة فنّية تحليلية للرسالة الموحّدية

المبحث الأوّل: البناء الفنّي للرسالة الموحّدية ولغتها.

المبحث الثاني: الرسالة الموحّدية وعلم المعاني

المبحث الثالث: الرسالة الموحّدية وعلم البديع

المبحث الرابع: الرسالة الموحّدية وعلم البيان

الفصل الثالث: مقاربة فنية تحليلية للرسالة الموحدية:

التمهيد: عرفنا فيما مضى بأنّ الرسالة فنّ أدبي نثري يعبّر فيها الكاتب عن أغراض عديدة، فهي تحمل تسميتها من موضوعها العام الذي تعالجه، فإذا كان الموضوع العام لها سياسي، فهي بهذا رسالة ديوانيّة سلطانيّة، وإن كان الغاية منها معالجة أمور شخصيّة ذاتيّة، فهي بهذا إخوانية، وإن كان صاحبها يصف فيها الطبيعة والمدن والرحلات التي قام بها، فهي بهذا رسالة وصفيّة، ولكلّ نوع من هذه الأنواع أغراضه الخاصّة.

وقد عرفت الرسالة الموحّدية تطوّرا ملحوظا، وحملت في كُنهها خصائص ومميزات عديدة، وفي هذا الفصل سنعنى بالبحث عن هذه الخصائص، إذ سنحاول وضع مقاربة فنّية تحليلية لبعض من الرسائل على اختلاف أنواعها وأغراضها، قصد الكشف عن جماليالتها وتبيان سحر أساليبها.

وهذا لا يتأتّى إلا بالبحث في بناء الرسالة الموحّدية من حيث البدء والعرض والختام، بعدها نظرنا إلى صياغتها وتركيبها، فتناولنا قضية التقليد والتجديد في الرسالة الموحّدية، ثم بحثنا في قضية التضمين والاقتباس التي شاعت وكثرت في مثل هذه الرسائل، بعدها انتقلنا إلى ذكر علاقتها بكل من علم البيان والبديع، كما تتبعنا بعض الظواهر الأسلوبية الرائجة في الرسالة الموحّدية كالتكرار، وأسباب اعتماد الكاتب على الأساليب الإنشائيّة والخبرية، ومن ثم ارتئينا في البحث عن سبب الإطالة والإطناب في الرسائل الموحّدية.

وفي أجزاء أخرى من هذا الفصل اهتممنا بالنظر في الدوافع التي جعلت من النّص الموحدي مترابطا متماسكا.

المبحث الأوّل: البناء الفنّيُّ للرسالة الموحّدية ولغتها:

1/ أقسام النّص: البدء والعرض والختام

➢ **البدء:**

تنقسم الرسالة الموحّدية إلى ثلاثة أقسام، هي البدء والعرض والختام، يمكننا أن نسمّيها بالأركان الثلاثة، لكن يجدر بنا الإشارة إلى أمر مهم ألا وهو؛ أنّنا حينما نقول الأركان الثلاثة للرسالة الموحّدية، لا نعني بها أنّها شروط حتمية، أو أركان ضرورية لا بدّ من توافرها في كلّ رسالة ومهما كان نوعها، وأنّها وإن خلت من هذه الأركان ستخلّ وتغيّر جنسها الأدبي، إنّما هي أركان اقتضاها التقسيم الفني للرسالة على العموم.

لقد عمل الموحدون واهتموا بالبدايات تماما كاهتمام المشارقة بها، فمطلع الرسالة هو الأساس عندهم، فكانت مقدمة الرسائل تختلف من نوع للآخر، فالرسالة الديوانية لها مقدمتها تميّزها عن غيرها، والإخوانية كذلك انفردت عن قريناتها بمقدمات تخصها، والوصفية كذلك كان لها طابعها الخاص. وقد ظهر هذا الاهتمام بمقدمات الرسائل كسبب من أسباب حرصهم برونق وجمال الرسالة كاملة، ونظرا لاعتقادهم القاطع بأنّ صيغة المقدّمة والهيئة العامة للرسالة تضفي على الكاتب تميّزا أدبيا، وتستحوذ على إعجاب القرّاء، ممّا يجعلهم يثنون عليهم ويستوعبون محتوى الرسالة بشكل متميز،

وبفضل هذا التميز نلاحظ أن مقدمات الرسائل الموحدية انفردت عن غيرها من العصور الأخرى. فرأينا الكاتب في هذا الجزء يهيّء القارئ على الرسالة وما سيأتي فيها، وهذا انطلاقا من ذكره للبسملة فالتصلية على خير الأنام، ثمّ المرسل والمرسل إليه وبعد كلّ هذا يلقي التحية، وهذا "تماما ما ألفيناه في الرسائل المشرقية التي تبدأ غالبا بالبسملة، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم"[1].

ولنبدأ بصيغة الافتتاح الدّالة على المرسل، وفي هذه الصيغة يقول أبو جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن: "من أمير المؤمنين أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته –إلى الطلبة الذين بسبتة– وفّقكم الله وأدام كرامتكم بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته."[2]

هذه الرسالة كتبت في السادس عشر من ربيع الأوّل سنة 543 هجري، بعث بها عبد المؤمن إلى ولائه يأمرهم فيها باتّخاذ رأيه في تنفيذ حكم الإعدام، إضافة إلى نهيه عن التمييز بين أبناء دولته وحرصه على إقامة العدل في دولته.

وإذا انتقلنا إلى رسالة أخرى بعث بها محمد بن الخليفة يوسف إلى أهل مرسيّة شرق الأندلس، يخبرهم فيها ببطولات الموحّدين أثناء حرب النصارى البرتغاليين ومحاصرتهم لبلنسية سنة580، نجد نفس الصياغة تقريبا تتكرّر حيث يقول "من محمد بن سيدنا أمير المومنين بن سيّدنا أمير المومنين –أدام الله تأييد أمرهم– إلى الطلبة والشيوخ والأعيان

[1]– فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، الأردن، 1989، ط1، ص315.

[2]– ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، ص10.

والكافّة من أهل مرسية وجهاتها، أطلع الله عليهم كواكب الفتوح نيّرة الإشراق، وأجناهم ثمر البشائر المعسولة حلو المذاق، وهزّ أعطافهم سرورا من اهتزاز السُمر والبيض الرقاق، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"[1].

أمّا صيغة الاستهلال الدّالة على المرسل إليه فنجدها عند ابن عبد الحميد حينما بعث برسالة عتاب إلى ابن توندونت، الذي تمرّد وأغار على بعض من البلدان الموحّدية وفي هذا يقول: "إلى أبي بكر، أيقظ الله بصيرته من نَومَة ضلاله، وفاء به إلى كنف التوحيد وظلاله، من المبتهل إلى الله في صلاح حاله وسلامة مآله: ابن عبد الحميد."[2]

وهناك صيغة أخرى تدلّنا على المرسل إليه، وهي تلك الصيغة الخاصّة بالخلافة أو الخليفة، والدليل على ذلك ما نصّه "الحضرة الإمامية، القدسية المؤيّدة المنصورة العلية، خلّد الله أيّامها، ونصر أنصارها وأعلى أعلامها، ووصل إعلاءها وإظهارها وإعزازها وإعظامها، وأمدّ بمواد التمكين والفتح المبين مقامها."[3]

ومن الصيغ الدّالة على المرسل إليه تلك الصيغ التي تعتمد على ذكر الصفات وتعدادها، وفي هذا نذكر الرسالة التي كتبها أبو القاسم البلوي عن الخليفة الناصر وفيها

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص168.

[2]- المرجع نفسه، ج1، ص75.

[3]- المرجع نفسه، ج1، ص310.

يقول: "الشيخ الأجلّ الأعزّ الأكرم الأسنى الولي الأثير الأودّ الأخلص الأزكى الأفضل أبو سعيد بن الشيخ الأجل أبي محمد بن الشيخ الأجل المرحوم أبي إسحاق أدام الله عزّته."[1]

إنّ اسم المرسل والمرسل إليه كانا بمثابة عنوان للرسالة، فهما من العناصر الرئيسة الواجب توافرها في المكتوب حتى لا يصبح مجهول الهوية.[2]

من الملاحظ على هذه الاستهلالات المتعدّدة أنّ أصحابها التزموا الإطلالة المشرقة الدّالة على مضمون الرسالة، فمقدّمة الرسائل هي عتبة نصّية هامّة لها دورها الكبير في التأثير على جمالية العمل الإبداعي ككلّ.

لم تكن هذه الافتتاحيات الوحيدة التي وجدناها في الرسائل الموحّدية، بل ألفينا بعضها يبدأ بالبسملة والتصلية على الحبيب المصطفى، وفي هذا الصدد يحضرنا نصّ المهدي بن تومرت إلى الموحدين، وهي الرسالة التي اصطلح عليها باسم الرسالة المنظّمة، فيها يفضح المهدي بن تومرت سياسة المرابطين، ويبرز نقاط زيغهم وعدولهم عن الدين – حسب نظره- فيقول : "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله وسلم، إلى جماعة أهل التوحيد وفّقهم الله لما يحبّه ويرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته."[3]

[1]-أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص316.

[2]- ينظر: الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح: محمد الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1966، ص52.

[3]- المرجع نفسه، ج1، ص44.

وهذا تماما ما قال به القلقشندي، فقد اشترط أن تبتدأ الرسالة بمقدمة خاصة كأن تكون مفتتحة بالبسملة فقال: " يجب تقديمها في أول الكلام المقصود من مكاتبة أو ولاية أو منشور أو إقطاع أو غير ذلك تبركا بالابتداء بها. "[1]

وبدء الحديث بالبسملة أمر طبيعي جدا، ذلك أنّ الرسول –صلى الله عليه وسلم– قال في حديثه "كلّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه باسم الله فهو أبتر وأجذم"[2]، إذن فاختيار البسملة كمقدمة لمكاتباتهم دليل قاطع على اطلاعهم الواسع على الحديث النبوي الشريف ومحاولة منهم الامتثال لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا لا يعني أنّ تارك البسملة رسالته ناقصة واهية، لا جمال ولا حسن يشوبها، بل كانت ذات قدر وقيمة عالية، إلّا أنّ أصحابها تركوا البسملة لأنها كانت عادة عند بعضهم فأهملوها هم.[3]

ومن الكُتّاب من فضّل حمد الله في بدايات رسائله، فكما تعوّدوا على ذكر المرسل والمرسل إليه والبسملة اعتادوا على حمد الله، فالحمد أمر ضروري لبسط البركة في الأمور وامتثالا لقوله تعالى: "قال يا موسى إنِّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين"[4]ففي إحدى رسائل أبي القاسم القالمي وجدناه يقول: "الحمد لله

[1] – القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص213.

[2]– مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ج14، ص329 رقم الحديث 8711.

[3]– ينظر: الصولي، أدب الكاتب، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص144.

[4] – سورة الأعراف، الآية 144.

الذي قدّم لأوليائه أمره فيما يرمونه من تدويخ العدوّ وقهره يومًا على الكافرين عصيبا"[1]، وقد افتتح القالمي هذه الرسالة بحمد الله ليبارك له الله ويؤجر عليها على حد تعبير الصولي[2].

لقد نبّه النقاد إلى هذه النقطة واعتبروها ركنا أساسيا وجب على الكاتب التطرق له فها هو أبو هلال العسكري يذكر أهمية حمد الله في قوله: "إذا كان الابتداء حسنا بديعا، وملمحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، لهذا جعل أكثر الابتداءات بحمد الله لأنّ النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع."[3]

أمّا ابن الأثير فيقول عن حمد الله في بدايات الرسائل ما نصّه "من الحذاقة في هذا الباب أن تُجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب، وإنّما خصّصت للكتب السلطانية دون غيرها لأنّ التحاميد لا تصدر في غيرها، فإنّها تكون قد تضمّنت أمورا لائقة بالتحميد كفتح معقل أو هزيمة جيش أو ما يجري هذا المجرى"[4] نفهم من خلال هذا الشاهد بأنّ ابن الأثير جعل حمد الله مقتصرا على الرسالة الديوانية دون سواها، لأنّ مضامينها أليق بالتحميد، ففتح الدول مثلا يتطلّب من الكاتب أن يحمد الله على ما أوتي به من نعم، بينما رسالة الشوق والحنين للخلان والأحبّة لا تقتضي من الكاتب أن يحمد الله عزّ وجل.

---

[1]- رسائل أبو القاسم القالمي، جمعها: عبد الوهاب بن منصور، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، ط1، 1951، ص28.

[2]- ينظر: الصولي، أدب الكاتب، ص32.

[3]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص131.

[4] - ابن الأثير، المثل السائر، ج3، 108.

ومقارنة بهذا فقد كانت بعض الرسائل الرسمية تخلو من المقدمات هذه المذكورة، فيبدأ فيها صاحبها بقرع باب الموضوع مباشرة، من ذلك رسالة والي بلنسية إلى الخليفة الناصر يخبره فيها بقرب انتهاء الهدنة، فيقول: "وبعدُ وصل الله للحضرة الإمامية ما عوّدها من نصر أعلامها، وإعلاء مقامها"[1].

إنّ المتأمّل لهذه الافتتاحيات يلحظ أنّها اقترنت بالدعاء دائما، وهذا الدعاء الموجود في هذه البدايات جاء خادما للغرض العام للرسالة،متناسبا معه.

كما أنّنا لاحظنا بأنّ الكاتب الموحّدي حاول "استهلاك الكلم بمقدّمة شائقة رائقة سوف يكون لها أبلغ الأثر في نفس السامع، بل وتكسبك أذهان الحضور وتركيزهم منذ الملاحظة الأولى"[2]، كان هذا عن صيغ الاستفتاح في الرسائل الديوانية.

أمّا الرسائل الإخوانية الموحّدية تكاد تخلو من المقدمات السالفة الذكر فمنها ما يبدأ بالشعر ومنها ما يبدأ بلفظة "كتبته" أو "الجليل الفقيه، أو "سيّدي"، وللتدليل على ذلك نذكر بعضا من استهلالات الرسائل الإخوانيّة والتي من مطالعها ما يلي: "كتبته والودّ كما تدري، والوق مما يجيش به صدري"[3]، ومن هذه الافتاتاحيات كذلك جواب ابن

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص262.

[2]- بدر عبد الحميد هميسه، الجمال في براعة الاستهلال، دط، 2011، ص1.

[3]-أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص215.

عميرة على رسالة أحد أصدقائه فيقول فيها "أهلا بتحيّة الأخ، الذي أعرف له حق الإكبار، ولحمة الجوار، وحرمة الشرب من نهر يهجر له برد ماء الأنهار"[1].

أمّا من الرسائل الإخوانية التي يستفتحها الكاتب بأبيات شعرية من إبداعه الخاص والخادمة للمضمون العام للخطاب، قول ابن عميرة في إحدى رسائله الموجّهة إلى أبي العباس بني أمية يندب فيها سقوط بلنسية:[2]

"أَلَا أَيُّهَـــا القَلـــبُ المصَـــرَّحُبِالوِجدِ أَمَـا لَـكَ مِـن بَـادِي الصَـبَابَة مِـن بُـدِ
وَهَـل مِـن سَـلو يُرتَجَـــــــى لِمُتَـيَّمٍ لَـهُ لَوعَـة الصَـادِي وَرَوعَـةُ ذِي الصَّـدِ
يَحِنُّـــإِلَى نَجـــدٍ وَهَيهَـــاتَ حَرِّمَـــت صُـرُوفَ اللَّيَـالِي أَن يَعُـودَ إِلَى نَجـــــدٍ
فَيَـا جَبَـلَ الرَيَّـانِ لَا رَيَّ بَعـدُ مَـا عَـدَت غَـيرَ الأَيَّـام عَـن ذَلِـكَ الـوَرِدِ
وَيَـا أَهـــلَ وَدِي وَالحَـوادِثَ تَقتَضِـي خَلـوِي عَـن أَهـلِ يُضَـافَ إِلى الـوَدِّ
أَلَا مُتعَـة يَومًـا بِعَارِيَـةِ المـــــــنَى فَإِنَّـا نَرَاهَـا كُـل حِـينٍ إِلى الـــــرَّدِّ
أَمِـن بَعـدِ رِزءٍ فِي بَلَنسِيَّـــــــةَ ثَـوَى بِأَحنَائِنَـا كَالنَّـارِ مُضـرَمَـةٍ الـوَقـــدِ

لكن لم تكن هذه الرسالة كلّها شعرا بل استفتح صاحبها مكتوبه بهذه الأبياتليبرز فيها قدرته في التعبير، وهناك ما بنيت كاملة شعرا مثالنا على ذلك رسالة ابن عميرة المخزومي إلى أبي الحسين بن مفوّز في رثاء شُقر فيقول:[3]

مَـا طُـولُ وُجـدِي مِـن نَسِـيمٍ نَـافِحٍ كـــــلَا وَلَا لِغـــــزَال أُنسِسَانِـــــــحِ
لَكـــن لِعَهـــدِ مَـا لَنَـا مِنهُسِـــــــوَى ذِكـــرَى لَهَـا زَنـد كَزَنـدِ القَـــادِحِ

[1]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية ، ص218

[2]- المصدر نفسه، ص220-221.

[3]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص226.

يَـا نَازِحًـا لَا أَوبَـةَ تُرجَـى لَـــــــهُ أَبــدًا وَقَــد يُرجَــى الإِيَــابُ لِنَــازِحِ
أَبقَيــــتُ فِي كَبِــدِي عَلَيــكَ حَــرَارَةً هَيهَــاتَ أَبردهــا بمــاءِ الماتــــــحِ

هذه القصيدة تطول لكننا لم نذكرها كاملة في هذا المجال خشية الإطالة والإطناب.

هذا عن بعض الافتتاحيات الإخوانية المقرونة بالشعر، أمّا إذا نقّبنا جيدا في الرسائل الإخوانية الموحّدية نجد منها ما تبدأ بالمدح والافتخار والدعاء للمرسل إليه، وللاستشهاد على ذلك نذكر قول ابن عميرة المخزومي "الوزير الفقيه الأجلّ أبو الحسن ابن الوزير الفقيه المكرّم أبي عيسى أدام الله عزّته، ووصل سعادته ورفعته، مجلّه، الوادّ له، البرّ به..."[1]

وبهذا يمكننا القول بأنّ كاتب الرسالة الإخوانية الموحّدية لم يلتزم ببداية واحدة كما وجدناه آنفا في الرسائل الديوانيّة، والسبب يعود إلى حرّية الكاتب في هذا المجال.

وإذا ما ذهبنا إلى النظر في مقدمة الرسالة الوصفية نجد أصحابها قد ولجوا مباشرة إلى الموضوع المراد التعبير عنه، إلّا أنّ ابن محرز الوهراني قد ابتكر "نمطا أدبيا جديدا، وهو وصف حالة شخص وهمي، لكنها في الواقع تضخيم كاريكاتوري لحالة المخاطب بالرسالة، وهي تعريض ساخر به، ليخلص الوهراني بأنّه مشتاق له أكثر ممّا يكابد صاحب

[1]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية ، ص364.

الشخصية، فيعكس بذلك الاستنتاج المنطقي تماما، ويترك صاحب الرسالة في حيرة من أمره، هل هو المقصود أم لا؟"[1]

للاستهلال الحسن أهمّية بالغة في كلّ مكتوب يُكتب، لأنّ المخاطب الذي يحسن خطاب البداية حتما يحسن الختام، لذا وجدنا الكاتب الموحدي عموما يضبط بداياته حتى يظهر للمتلقي تمكّنه من اللعب باللغة وتراكيبها، ومعرفته التّامة لما يكتب، لذا كان يراعي فيها الألفاظ العذبة السلسة السهلة التي تجذب انتباه السامعين وتأخذ بقلوبهم، والبداية التي نتكلّم عنها هنا هي البداية المولدة، والمهيمنة فهي ليست قوة إشعاع أو تثوير ما للنّص، وإنّما هي الحاضنة لما سيحدث في النّص"[2].

فقد حاول ابن محرز استهلال رسائله الوصفية بقصّة معبّرة دالة على المضمون العام للرسالة، ذات رموز بليغة، فراح يستنطق الجماد ليدلّ أحيانا على رفضه للواقع المعاش، وليجعل كذلك المتلقي يشدّ انتباهه إلى ما يقول.

فالنّص إذن شبيه بالكيان الإنساني له رأس وجسد وأجزاء أخرى، فهو كيان يحمل رسالة معيّنة ومشاعر وأحاسيس وأفكار لا تصل إلى القارئ لو لم يكن فيها إلهاما وجلبا من الوهلة الأولى، فمن "سمات الاستهلال الجوهرية أنّه يعكس جزءا من ميكانكزم العملية

[1] – ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني وحكاياته، دط، 2011، ص30.

[2]– ياسين النصير، الاستهلال فنّ البدايات في النّص الأدبي، دار نينوى، سوريا، 2009، ص18.

الإبداعية، ونعني الكيفية التي يكون عليها المبدع قبل مرحلة الكتابة، الحال القلقة ولحظة تحويل الحدس أو التجربة التخيلية واللاشعور إلى كلمات."[1]

وبهذا يكون لزاما على الكاتب تحقيق وظيفة الاستهلال في رسائله، ووظائف الاستهلال عديدة لعلّ أبرزها وظيفتين هما، جلب انتباه القارئ إلى الموضوع، وهذا حتى لا يضيع انتباهه فتضيع منه فهم الغاية والمقصود من الخطاب، أمّا الوظيفة الثانية فتتمثّل في التلميح بأيسر القول عما يحتويه النّص من معلومات وأفكار .

- **العرض:**

عرض الرسالة أو مضمونها أو متنها، وهو الكلام الذي يتوسّط المقدمة والخاتمة وهو أساس الرسالة بل جوهرها، ففيه عرض للآراء والأفكار المدعّمة بالحجة الدامغة والبرهان النّير.

يتوخّى الكاتب في هذا الجزء الإجادة في التعبير ودقة التصوير، فيستعمل العبارات القصيرة الدالة على المعنى بصورة مباشرة، فمثلا الرسالة المنظّمة للمهدي بن تومرت، بمجرد ما نقرأ السطر الأوّل منها أو السطرين، نفهم المقصود، لأنّ ألفاظها كانت سهلة مفهومة غير غامضة ولا تقبل التأويل والانزياح عن المعنى، ففيها حث على ضرورة اتباع أوامر المهدي والتي في أساسها أوامر مستلة من الذكر الحكيم.

[1]- ياسين النصير، الاستهلال فنّ البدايات في النّص الأدبي ، ص 21.

كما أنّ ألفاظ الرسالة تُختار وفقا للمضمون العام لها، فمثلا إذا كان الموضوع عبارة عن الإخبار بفتح دولة معيّنة يستخدم ألفاظا من مثيل: هذا الفتح، وقد تمّ الأمر بالسيطرة على البلاد، انتصرنا بفضل الله وغيرها من المصطلحات الخادمة للغرض العام للرسالة.

وحتى يبسط الكاتب كلامه، ويبرز أفكاره يجب عليه أن ينتقل من المقدّمة إلى الغرض المنشود من الرسالة، وهذا الانتقال يستوجب من الكاتب استعمال مصطلحات خاصّة تخوّل له هذا التخلّص بسهولة ودون أن يحدث في رسالته شقّ وشرخ، يعني دون أن يشعر المتلقي بذلك الفراغ الحاصل بين المقدّمة والمضمون الأساسي.

ومن بين هذه المصطلحات المساعدة على التّخلص نذكر: وبعدُ، إنّا كتبنا، وكتبنا، وكتابنا هذا أو وهذا كتابنا.

وممّا نستشهد به في هذا الصدد قولهم: "أمّا بعد، فإنّا نحمد الله الذي لا إله إلّا هو حَمدَ من عَلم أنّه الرّب الواحد الذي دلّت على وحدانيته البراهين القاطعة"[1]، فقد كان ابن محشررة من الكتّاب المكثرين في إيراد عبارة "أمّا بعد" في تخلصاته، أمّا عبارة "إنّا كتبناه" فقد حضرت في قولهم: "إنّا كتبناه إليكم كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها، وأكنف كلاءة وأكلأها، وأن تعلموا أنّا نعتد بولائكم الخاص"[2]، ومن النصوص التي تبدأ بصيغة هذا كتابنا، قولهم: "وهذا كتابنا إليكم –أسمعكم الله من البشائر أقومها قيلا، وأعظمها

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، 402.

[2] – المرجع نفسه، ج1، ص406.

تقسيما وتفصيلا، وعرّفكم من الفتوح أصدقها تأميلا"[1]، فإذا ما دقّقنا النظر في هذه النصوص المقتبسة من الرسائل الديوانيّة الموحّدية، نجدها تأتي غالبا مقرونة بالدعاء، وهذا الأمر وجدناه في الرسائل الديوانية بالخصوص، بينما الرسائل الإخوانية لا نجد فيها الالتزام بهذه المصطلحات.

وجب التنويه إلى أمر مهمّ وهو أنّ الانتقال من المقدّمة إلى صلب الموضوع يتمّ على نقطتيين أساسيتين "أحدهما ابتداء الخطاب، والثاني ردّ الجواب، فما توصلوا به من الألفاظ في ابتداء الخطاب إلى غرض الكتاب، قولهم: كتبت، وكتابي، وكتابنا"[2] فالكاتب مجبر على استخدام تلك المصطلحات حتى يتسنّى له ذكر الموضوع من وراء هذا المكتوب.

وهنا وحين الدخول إلى غرض الرسالة يبدأ الكاتب المجيد بالحديث عن هدفه حيث يُظهر في هذا المجال حنكته وإبداعه ومقدرته على استخدام الصيغ اللغويّة المتنوّعة.

فيكون لزاما على الكاتب هنا أن يتحرّى "الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، ويتوخّى من ذلك ما يناسب الحال، ويشاكل المعنى ويوافق الخطاب"[3]، فتتراوح هذه المصطلحات بين السهولة والوضوح أحيانا والتعقيد أحيانا قليلة أخرى، لكنها في الغالب كانت بعيدة كلّ البعد عن الوحشية والغرابة.

---

[1]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، ص250.

[2]- أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين، تح: رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1966، ص69.

[3]- المصدر نفسه، ص73.

وممّا تجدر الإشارة إليه كذلك أنّ الكاتب الموحدي قد أفلح في استخدام الألفاظ المعبّرة عن معانيهم ومضامينهم، فجاءت متناسبة مع مشاعرهم وعواطفهم.

إنّ الألفاظ السهلة الواضحة وجدناها تغلب على الرسائل الإخوانية، كون هذه الأخيرة موجّهة في أغلبها إلى الطبقة العادية من المجتمع، ومن الأمثلة الدّالة على ذلك "أيّها الأخ الذي شيمته أكرم الشيم، وقيمته عندي أعز القيم، لقد كابدت فيك أشواقا، وكنت إلى خبرك تواقا، ووجدت فراقك لا يشبه فراقا"[1]، فقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة دالّة على الغرض العام للرسالة ألا وهو التهنئة لصاحبه أبي الحسن بن هلال العددي بمناسبة تنصيبه معلما على رأس إحدى المؤسسات العلمية، فكانت الكلم معبّرة عن مشاعر الكاتب مليئة بالفرح والسرور.

ونجد مثل هذه الألفاظ السهلة في نصّ ابن عميرة المخزومي حينما كتب إلى أصدقائه رسالة عتاب لهم بسبب بعدهم عنه فيقول فيها: "ولمَ هذه الجفوة، أنقمتم أمرا، أم استبدلتم زيدا وعمرا، أم تغيرتم بتغيّر الزمان، أم تهتم على الغرباء من الإخوان"[2].

ومن الجدير بالذكر أن ننوّه كذلك إلى أنّ الرسائل الدينية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورسائل الجهاد سهلة واضحة المعاني ومن الأمثلة على ذلك رسالة المهدي بن تومرت التي وجّهها إلى المرابطين يأمرهم فيها بتقوى الله واتباع سنة نبيه الكريم، فيقول:

[1]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص213.

[2]-المصدر نفسه، ص215.

"قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وأنّ الدنيا مخلوقة للفناء، والجنّة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتلكم، حتى نمحو آثاركم، ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خاليا، والجديد باليا، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر"[1]، فلقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة المعاني، متّسقة منسجمة مع الغرض العام للرسالة، فانعكست جمالا ورونقا على الرسالة ككل.

وقولنا سهلة الألفاظ في هذا المجال لا ينفي وجود بعض من المفردات الصعبة في الرسائل الديوانية حتى الإخوانية منها ومن ذلك قول ابن عميرة المخزومي: "فمن يلومه على شيء له منه نفس لارتياح الرّياحي وادعة، ويدّ لمارن المرينيّ جادعة. وذكر سيدي رزمة كاغد كان بعثها وقد عرتني لذكرها فترة كما انتقض العصفور، ومن فوتها حسرة مرجلها يفور، فليت شعري هذا الذي أعطيته أَلَهُ اسم في الأسماء..."[2]، إنّ هذا الخطاب يحمل عددا هامّا من الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى تفسير وشرح وهذا بالرجوع إلى المصادر والمراجع المتخصّصة بذلك.

[1]- مؤلف مجهول (مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص 111.

[2]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص217.

وعليه يمكننا الاستنباط بأنّ ألفاظ الرسائل الموحّدية جاءت منسجمة خادمة للغرض العام للرسالة، فكانت تتراوح بين السهولة والبساطة في الرسائل الإخوانية وبين الصعوبة والمتانة والجزالة في الرسائل الديوانيّة.

لقد كان لزاما على الكاتب أن ينتقي من الكلمات ما يخدم معناه ومضمونه العام الذي يرغب مناقشته في رسالته، فمثلا ولما يكون المضمون يفيد نشر خبر الانتصار يستخدم ألفاظا من مثيل النصر المعهود، الجهاد، الجلد، الاجتهاد، الحق، العدل، الاستقرار...

أمّا إذا كان الكاتب يهدف برسالته الإخبار بفتح بلد ما وضمّه تحت لواء الدولة الموحّدية فيستخدم عبارات من مثيل؛ فتح بهر الأنوار، عاد الحقّ إلى أهله...

لقد حقّقت هذه الألفاظ المستخدمة في متن النصوص بلاغة شيّقة، استطاعت أن تعط النصوص مسحة فنّية جمالية جعلت هذه الرسائل الموحّدية تضاهي نظيرتها في المشرق العربي.

عند دراستنا لهذه الرسائل لفت انتباهنا كثرة الجمل الدعائية، فقد أكثر الكتّاب الموحدون من استعمال هذه الجمل في رسائلهم ومنه قولهم "وقد خاطبنا الشيخ الأجلّ أبا حفص –أعزّه الله–... وخاطبنا الشيخ القائد أبا محمّد عبد الله بن خيار –أكرمه الله–... أعزّكم الله خلال النظر في إنفاذ هذا الكتاب إليكم..."[1] ففي النّص الواحد تتعدد الجمل

[1] – ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، ص 98.

الدعائية وهذا راجع إلى أنّ جلّهم كان حاملا لكتاب الله عزّ وجلّ، فكانوا متفقهين "ذلك أنّ هذا اللون من الجمل يعتبر أصلا من أصول التعبير الأدبي لدى الكتّاب في المشرق والأندلس"[1]، وحينما نقول الجمل الدعائية، فإنّنا نقصد بها تلك الجمل التي تحمل تعظيما لله عزّ وجلّ، والتمني للنفس أو للغير العزة والأمن والاستقرار والصون والحفظ، أو أن يدعوا للعدو بالذلّة والفناء والهزيمة.

وهناك أيضا "دافعان آخران، فيما نرى، يجنح بسببهما الكاتب إلى الدعاء والجمل المعترضة هما (الرغبة والرهبة) ففي الرغبة يدعو إلى دوام المنح والعطاء واستدرار العطف والحرص على دفع غوائل الآفات كالنميمة والحشد والوشاية...أما الرهبة كالبطش والتنكيل أو الإعراض والجفاء أو غير ذلك، فكانت شائعة في رسائلهم"[2]، ولعلّ الغرض الذي تكثر فيه هذه الجمل الدعائية هو غرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرسائل التي تحثّ على الجهاد، لأنّ هذه الجمل تأتي خادمة للغرض العام للرسالة، فهي تأتي في سياق الكلام سليقة لا تكلّفا، ومن ذلك نذكر النّص الوالي الذكر: "إلى جماعة أهل التوحيد وفقهم الله لما يحبّه ويرضاه... كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتّصلت بنا أخباركم، وقيامكم في نصرة الحق واجتهادكم على إحياء السّنة، وتآلفكم وتعاونكم على إظهار الحق، واجتماعكم على إخماد الباطل والضلال،وجهاد المجسّمين والمفسدين،

[1]– فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص320.

[2]– رضا عبد الغني كساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، ص205.

فحمدنا الله تعالى على ذلك وشكرناه إذ منّ علينا بالإخوان على إظهار الدين وإحياء السنة"[1].

- **الختام:**

بما أنّ لكلّ كلام نهاية، فلكلّ رسالة كذلك نهاية وخاتمة، وخاتمة الرسالة هي من العناصر الأساسية والثابتة فيها، فلا بدّ من أن تكون متمّمة للمقدمة والعرض، وأن تكون جزء لا يتجزء منها، وأن تكون ذات علاقة وطيدة مع سابقتها، ومن الضروري على الكاتب الاعتناء بها وتجويدها، وتنميقها، حيث أنّها لها أثرا في نفس المتلقي وكما "اشترط النقّاد حُسن الابتداء بالرسالة اشترطوا أيضا حُسن الختام، كونه آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنّها ربما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها، وقد نبّه النُّقاد أيضا على ضرورة ارتباط الخاتمة بالموضوع"[2]، وختام الرسالة الموحّدية جاء على صيغ وأضرب متعدّدة، منها الختام بعبارة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، مثل قولهم: "فانظروا هذا –وفّقكم الله تعالى– نظر أولي الألباب، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته"[3]، والصياغة نفسها نجدها مقرونة

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص44_45.

[2]– رشا فخري النّحال، فنّ الرسائل في العصر المملوكي دراسة تحليلية، أطروحة ماجستير في الأدب والنقد، كلّية الآداب، غزّة، 2014/2013، ص119.

[3]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص71.

بالدعاء، في النّص الوالي الذكر: "والله بعزّته يجعلنا ممن وفّى بعهده، وحافظ على عقده، بمنّه وفضله، والسلام الأعظم الأكرم على الحضرة العليا ورحمة الله تعالى وبركاته"[1].

وأحيانا أخرى يكون الختام بعبارة (السلام)، وهذه العبارة نجدها في النص التالي: "والله سبحانه يجعلكم ممن قبل البشرى، ويُسِّر لليسرى، ويكتبكم في الذين لهم البشرى، في الأولى والأخرى، بفضله ورحمته لا ربّ سواه، ولا نرجوا إلّا إيّاه، والسلام"[2].

أمّا الصيغة الأخرى التي وجدنا أغلب الرسائل الديوانية فتختتم بها هي ذكر تاريخ كتابة تلك الرسالة، وفي هذا يحضرنا النّص التالي: " وخاطبناكم –أعزكم الله– بهذا الكتاب، على جهة الاقتضاب والإلماع بهذا العجب العجاب، والفتوح التي هي محارة العقول والألباب... كُتب في الثامن من شوّال سنة إثنين وخمسين وخمسمائة"[3].

وأحيانا قليلة وجدنا كاتب الرسالة الديوانيّة يُتمم خطابه بذكره الحوقلة وفي هذا نستشهد بقولهم: "بلّغني الله في إنابتك الأمل، وأصلح مني ومنك القول والعمل، والسلام على من أخلص في حب هذا الأمر العزيز واستقام، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم"[4].

---

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية ، ج1، ص164.

[2]– المرجع نفسه، ج1، ص 143.

[3]– ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، ص 93.

[4]– المرجع نفسه، ج1، ص78.

أمّا إذا انتقلنا إلى ملاحظة خواتم الرسائل الإخوانية فإنّنا لا نجدها تثبت على مصطلح واحد، بل وجدنا كلّ رسالة تختتم بأمر معين يختلف عن الرسالة الأخرى، لكنها وفي الغالب كانت تختتم بالدعاء أو بالكلام المنظوم.

2/ الألفاظ في الرسالة الموحّدية دلالتها ومنبعها:

من خلال دراستنا وتتبعنا لبعض من الرسائل الديوانيّة والإخوانية وحتى الوصفية الموحّدية منها، تبيّن لنا بأنّ هذه الرسائل قد بنيت واستوى عودها على اللفظ الجزل الخادم للمعنى، حمل معه شحنة من العواطف والأحاسيس الصادقة، كما دلنا على أنّ الكاتب الموحّدي يتميّز بسعة الفكر والأفق، عميق النظر، دقيق في التعبير ومردّ كلّ هذا الجمال والروعة في التعبير ربّما إلى التكوين الديني الذي تلقاه في الزوايا والكتاتيب.

لقد بنيت القطعة النثرية إذن على الألفاظ الصعبة أحيانا والسهلة أحيانا أخرى وهذا تبعا لحالة المرسل إليه وهيئته، فعباراتهم جاءت بليغة فصيحة بعيدة كلّ البعد عن الغرابة والوحشيّة "وعما يخل بفصاحة الكلمة، كتنافر الحروف وبشاعة الألفاظ وبعدها عن الاستعمال، ومخالفة القياس والكراهة في السجع وغير ذلك."[1]

فقد اهتموا بها كلّ الاهتمام وجعلوا لها الأولويّة والأسبقية في كتاباتهم، لتأتي منسجمة مع معانيهم وبالفعل كانت كذلك فـــ "الاهتمام بالألفاظ والتراكيب أدّى إلى الاهتمام بالجمل والعبارات، مما حقّق الانسجام والتوافق بين الألفاظ والمعاني، وزواج الأدباء بين

[1]– عبد الغني الكساسبة، النثر الفني وارتباطه بواقعهم الحضاري، 217.

المذاهب النثرية الفنّية المختلفة التي عرفت خلال القرون التي سبقتهم، مع شعورهم بالتفوق نتيجة هضمهم علوم من سبقهم، ومعرفة مواطن أسرار الألفاظ والتراكيب وتجانسها وتآلفها"[1] وهذا ما ألفينا الرسالة الموحّدية عليه.

أمّا الرسالة الوصفية، فألفاظها جلّها سهلة إن لم نقل كلّها، فقد كانت مقتبسة من البيئة المحيطة بهم، ومثالنا على ذلك قول ابن سعيد المغربي واصفا مدينة غرناطة "غرناطة، وما أدراك ما غرناطة، حيث أدارت الجوزاء وشاحها، وعلّق النجم أقراطه، عقابُ الجزيرة، وغُرَّةُ وجهها المنيرة. ومرّ في الثناء عليها وأنا أقول إنّها وإن سميت دمشق الأندلس، أحسن من دمشق، لأنّ مدينتها مطلّةٌ على بسيطها، متمكّنة في الإقليم الرابع المعتدل، مكشوفة للهواء من جهة الشِّمالِ، مياهها تنصبُّ إليها من ذوب الثلج دون مخالطة البساتين والفضلات، والأرحاءُ تدور في داخلها، وقلعتها عاليةٌ شديدة الامتناع، وبسيطها يمتد فيه البصر مسيرة يومين بين أنهارٍ وأشجار وميادين مخضرّة"[2] فحينما ندقّق النظر في هذا النّص الوصفي، يتبيّن لنا سهولة اللفظ ويسره، فقد جاءت متّسقة منسجمة وكأنّها حبات لؤلؤ عقد واحد، جاءت خادمة للمضمون، غير غريبة على أذن المتلقي، ولا وحشية سوقية.

حتّى الرسائل الديوانية فقد كان اللفظ فيها سهلا لا يحتاج منّا إلى الرجوع للمعجم لفهم كنهه ومعناه، وتحضرنا هنا رسالة الخليفة يوسف إلى والي غرناطة حول انتصاره على

[1]- عبد الغني الكساسبة، النثر الفني وارتباطه بواقعهم الحضاري، 201.

[2]- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج2، ص83.

قوات جيرالدو يقول فيها: وقد وصلنا كتابكم من غرناطة – حرصها الله – بما سنّاه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش – فتحها الله – من الفتح الذي عرّفهم به قدر اغترارهم ومكان جهلهم،وموضع الإملاء لهم بما كانوا اعتادوه من التّسحّب على أطراف تلكم الجهات بالاختلاس والاختطاف على ما ذكرتم، فيسّر الله لكم من أسباب العون عليهم، ومكيفات الإنجاد في الأخذ بالثأر مما شرحتموه في كتابتكم، وبينتموه بإعلامكم مما وقفنا منه على ما سر موقعه وحسن مطلعه..."[1]

نلحظ على هذا الكتاب الديواني ألفاظه السهلة المفهومة، فقد جعلت من النّص بنية منسجمة الأفكار متناغمة المعنى، واضحة الدلالة والمقاصد.

أمّا الإخوانية فاللفظ السّهل كان طاغ فيها هي الأخرى، ومثالنا على ذلك رسالة ابن عميرة يشكو فيها حظّه السيء في الكتابة والقضاء بمدينة سلا فيقول:

"قَـــد نَسَـــبنَا إِلَى الكِتَابـــةِ حِينًـــا وَأَتَـــت نِســـبَةُ القَضَـــاء تَلِيهَـــا
وَبِكُـــلِ لَم يَبـــقَ لِلـــحَـــظِ إِلَّا مَنـــزِلًا نَابِيًـــا وَمَرعَـــى كَرِيهَـــا
نِســـبة بُـــدِّلَت فَلَـــم تَتَـــغَيَّر مِثـــلَ مَـــا يَـــزعمُ المهنـــدسُ فِيهَـــا

وإنّما القلم كليل في معناه، كلٌّ على مولاه، إن حملته الأذن شان، أو أمسكته اليد بلد الأذهان"[2]، فاللفظ الواضح كان الغالب على الجزل غير المفهوم فزادت النّص اتساقا وانسجاما وترابطا.

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 119.

[2]– أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص204-205.

على العموم وإن اختلفت الرسائل في توظيف اللفظ الصعب والسهل إلّا أنّها تتفق في شيء ألا وهو المنهل الذي أخذت منه كلماتهم، فهم كلّهم جعلوا الطبيعة والبيئة المحيطة بهم مصدرا لعباراتهم.

3/ الرسالة الموحّدية وقضيتي التقليد والتجديد:

إنّ الدارس للرسائل الموحّدية، ألفيناه قد ناقش العديد من الأمور لكنّه أغفل قضية مهمّة، كان من الضروري مناقشتها ألا وهي قضية التقليد والتجديد، فهي من القضايا الهامّة والشائكة.

مناقشة هذه القضية ستخوّلنا للبحث في مجموعة من المحاور، أهمّها البّحث عن طبيعة العلاقة التي تجمع أدب الرسائل الموحّدية مع الأدب المشرقي عموما، فما طبيعة هذه العلاقة؟ هل هي علاقة اتّصال أم انفصال؟ أمعلاقة تكامل؟

وإذا كان في هذا الأدب –أقصد به أدب الرسالة الموحّدية– جانب من جوانب التقليد، فما هي هذه الجوانب؟ وإذا كان فيه تجديد فما مظاهر التجديد فيه؟

إنّ أدب الرسائل في عهد الدولة الموحّدية مرّ على مرحلتين مهمّتين أولاها مرحلة التقليد، وحينما نقول التقليد فإنّنا نعني به النّسج والكتابة على منوال سابق، أي محاكاة ما سبق من أعمال أدبية من حيث أسلوبها ولغتها ومضمونها.

فإذا ما تتبّعنا هذا الفنّ نجد فيه بعض من أوجه التقليد، كاعتماد الكُتّاب على البديع وفنونه المختلفة في التعبير عن المعاني، وقد وصل بهم الأمر إلى الإكثار في إيراده في رسائلهم وهذا ما وجدنا ابن عميرة المخزومي يفعله في بناء رسائله على اختلاف أغراضها.

وهذه –في نظرنا الخاص– محاكاة لعلماء مدرسة الصنعة اللفظية التي تعتمد على كثافة المحسنات البديعية واللفظية، دون أي إهمال للمعنى وهذا ما ألفيناه في أشعار كلّ من أبي تمام والبحتري.

ومن أوجه التقليد كذلك، اعتمادهم الإطالة والإطناب في التعبير عن أغراضهم،فألفينا الكاتب الموحّدي يزاوج في رسائله بين الإيجاز والإطناب، فتارة كان يعتمد القول الموجز، وتارة أخرى كان يرغب في الإطالة حتى يتبين مقصوده وهدفه وهذه الخاصّية قد اشتهر بها من قبل عبد الحميد الكاتب، الذي "كان يجمع في ترسله بين الإيجاز والإطناب، وكان يجيد كلّا منهما ويستخدمه في الوقت المناسب"[1]كما وجدنا هذه السمة كذلك عند إمام البيان العربي الجاحظ الذي عرف باستطراده في تآليفه العديدة، فقد راح ابن محرز الوهراني ينسج "على منوال بعض رسائل الجاحظ، فإنّ في مقاماته نهج منهج بديع الزمان الهمذاني، حتّى أنّه استخدم اسم عيسى بن حماد كراوية له تقريبا منه لاسم عيسى بن هشام راوية مقامات الهمذاني في مقامة العلاقة

[1] – فيصل حسين العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، ص73.

وشمس الخلافة، كما أدخل بديع الزمان نفسه في منام خاص به، كما ذكر الحارث بن همام راوية مقامات الحريري في رسالة بليغة"[1].

نعزوا هذا التقليد لمجموعة من الدوافع لعلّ أبرزها احتكاك المغاربة بالمشارقة، هذا من خلال رحلاتهم العلمية العديدة، للتّعلّم والتتلمذ على أيدي كبار علماء الأدب واللغة والفقه في بلاد المشرق العربي، والدليل على ما نقول سيد الموحدين ومؤسّس هذه الدولة؛ المهدي بن تومرت الذي دوّن له التاريخ العديد من الرحلات نحو المشرق كمصر والشام في سبيل التعلّم على أيدي كبار العلماء حينها.

إنّ أمر التقليد أمر طبيعي، لا عيب ولا نقصان على من اعتمده، لأنّ الأديب مهما كانت درجته العلمية، إلّا أنّه يمرّ على مسار التقليد ذلك أنّ الإبداع الأدبي لا يمكنه أن ينبع من فراغ، فيمرّ به الكاتب ليصل بإبداعه إلى مرحلة التجديد والابتكار، والاستقلالية والتّحرّر من التبعات الفكرية وهذه هي المرحلة الثانية التي مرّ عليها أدب الرسالة في العهد الموحدي، والتقليد كان منهجا أدبيا في العصور القديمة فقد اعتمد عليه الكتّاب من باب التمجيد لكبار الأدباء، ومن منظور الإعجاب بما ألّفوا وأبدعوا.

وحينما نقول التجديد فإنّنا نعني به الكتابة دون منوال سابق، أي أن يتفرّد الكاتب في أسلوبه ولغته ومضامينه عن الكتابات الأخرى.

[1] – ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني وحكاياته، ص 31.

فقد عمل كُتّاب هذه الدولة على إرساء دعائم جديدة، ورسم صورة واضحة لرسائلهم، وهذا الأمر يعود بالدرجة الأولى إلى التحفيز والتشجيع المستمر من الخلفاء لكتّاب الديوان الموحدي، إضافة إلى تنافس الكُتّاب فيما بينهم حول من يحتلّ منصبا في ديوان الإنشاء، وهذه المنافسة خلقت لنا العديد من الرسائل الرائعة، ذات البدايات المنمّقةالتي تختلف كلّ الإختلاف عن الرسائل المشرقية، كما خلّفت هذه المنافسة كذلك رسائل تحمل لغة راقية خادمة للغرض العام للرسالة، مستنبطة من البيئة المغربية والأندلسية التي كانوا يعيشون فيها.

كما ظهر وجه التجديد كذلك في بروز أغراض جديدة للرسالة الموحّدية منها غرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأمر جديد ظهر بظهور الدولة الموحّدية، وكذا ظهر التجديد في أساليب الكتاب كاستخدامه أسلوب استنطاق الجماد على الطريقة الهزلية عند ابن محرز الوهراني، وأسلوب المفاضلة بين المدن والدول عند أبي بحر بن صفوان.

ومن دواعي الابتكار اتّساع الرقعة الجغرافية، وكثرة الكُتّاب، وامتزاجهم بغيرهم من المشارقة، فتعددت مناهلهم ومشاربهم الفكرية، ممّا أدّى إلى ثراء ثقافتهم، واتسعت أخيلتهم، وبَعُدَ نظرهم، فابتكروا لنا معاني جديدة لم يسبق لها غيرهم، والحقيقة أنّ الابتكار "يقع في معنى غريب لم يطرق ولا يكون ذلك إلّا في أمر غريب لم يأت مثله، وحينئذ إذا كتب فيه كتابا، أو نظم فيه شعرٌ، فإنّ الكاتب والشاعر يعثران على مظنّة الإبداع فيه"[1].

[1] – ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، ص333-334.

وفي الختام نقول بأنّ الحضارة على عهد الموحدين كان لها الفضل الكبير في تطوير العديد من العلوم في البلاد العربية، كالفلسفة التي حرّروها من القيود التي فرضت عليها خلال فترة حكم المرابطين، كما كثرت كتب التاريخ والتفسير واللغة في هذا العهد، وكلّ هذا مظهرا من مظاهر التطوّر الحضاري والذي يعود فيه الفضل إلى خلفاء هذه الدولة وعلمائها.

المبحث الثاني: الرسالة الموحّدية وعلم المعاني:

1/ مظاهر الاتساق والانسجام في الرسالة الموحّدية:

إنّ الدارس لرسائل الموحدين يظهر له جليا العناصر العديدة التي تتكوّن منها الرسالة الموحّدية، فمثلا يبدأ الكاتب نصّه بذكر المرسل والمرسل إليه والدعاء لهما، ومن ثم يحمد الله تعالى على نعمه وآلائه ويصلي على الحبيب المصطفى، ومن ثم ينتقل إلى ذكر غرض رسالته باستخدام عبارة تضمن له حسن التّخلص وسهولة الانتقال من جزء إلى جزء، ألا وهي عبارة إنّا كتبناه، وهنا يسترسل في كلامه استرسالا دون أن يشعر القارئ أو السامع يالإنتقال ذلك أو بوجود فجوة كان سببها الانتقال من فكرة للأخرى.

والذي خوّل له إخراج رسالته في صورة بنية كاملة تترابط وتنسجم أفكارها مع بعضها البعض، هو استخدام الكاتب الذكي للروابط المنطقية، من حروف للعطف والجرّ وكذا الإحالة بالضمير، فقد كفلت لهم هذه الروابط وغيرها تحقيق عملية الرّبط والاتساق بين المعاني، وجعلتها متسلسلة تسلسلا منطقيا، وهذا الأمر بالتأكيد يفرض على صاحبه ثقافة كبيرة.

فالواو من أكثر الروابط اعتمادا في الكتابة عند المترسلين الموحدين، فقد اعتمدَ عليها بغية إعطاء الكلام نوعا من الإطالة والإطناب، فالواو حرف يساعد صاحبه في الاسترسال في الحديث، وبواسطتها يتدرّج الكاتب من فكرة إلى الأخرى.

ومن النصوص التي حضر فيها هذا الحرف ما قدّم به ابن تومرت لرسالته المنظمة التي بعث بها لأهل كزولة فقد وفيها يقول: "فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله، والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه. كتبنا إليكم هذا الكتاب نصيحة وتنبيها وتذكرة وتأكيدا في تبليغ الحجة، لحسن ظنّنا بكم، وقوة رجانا فيكم ورغبتنا في الخير، ونيل الحظ الأوفر عاجلا وآجلا، وإنّ العز في الدنيا والآخرة لا ينال إلا بطاعة الله وتقواه، ولما اعتقدنا في ذلك من الاحتساب واغتنام الأجر في النصح، والدعاء إلى الله والدار الآخرة، وأمضينا في ذلك عزيمة لا تنثني ولا تمل..."[1].

لقد أكثر الكاتب من توظيف حرف الواو في مقدمته بكثرة ليربط بين الفكرة والأخرى، هذا ما أعطى لنصّه توازيا في التركيب، حيث كشف هذا الحرف عن قسمين هامّين مقصودين من الخطاب هما المرسل والمرسل إليه وجمع بينهما بالدعاء لهما.

لم تكن الواو حرف العطف الوحيد الرابط بين أفكار هذا النّص بل ساعدتها حروف عطف أخرى، جعلت من النّص مركّبا تركيبا متوازيا، متّسقا بين جمله محقّقا هدفه ومقصديته،

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّديّة، ج1، ص44-45.

منها "ثم والفاء" كلها من حروف العطف الهامّة التي تكررت في بنية الرسالة الموحّدية بكثرة، فهما حرفان يفيدان العطف بالترتيب والتراخي، فقد كرّرها الكاتب بغية جعل الكلام قارا في ذهن وقلب المتلقي، حيث أنّ "تبادل الواو مع ثم والفاء في النّص يحتاج ذكاء خاصا وعلمًا ملهما في بيان أسراره"[1]، إنّ عطف الجمل وترتيبها وربطها مع بعضها البعض "يحتاج من الكاتب دقّة، فعملية العطف بين الأفكار عملية دقيقة تحتاج إلى نظر ثاقب ووعي بدور ودلالة هذه الحروف، فلكلّ حرف سياقه الذي يوضع فيه.

إنّ وظيفة الوصل تكمن في تسجيله لانطلاقة"فكرة تتقدم على شكل دفعات...وإذنّ تمفصلات الفكرة توحي به أكثر مما تكشف عنه وإنّ بنيته العميقة تسدّ مسدّ البنية السطحية المحقّقة بواسطة اللغة"2، من هنا كان أساس النّص وعماده الروابط اللغوية المنطقيّة، التي تصل الجمل وتعمل جاهدة على ربط النّص ربطا غير مخل به، فجمالية النّص وفنّيته إذن متعلقة بما يحمله من أساليب اتساق وانسجام وهي التي تكفل له روعة البناء المتراص المتّسق.

2/ الرسالة الموحّدية والأساليب البلاغية:

➢ الأسلوب الخبري و الإنشائي:

في اللغة العربية أسلوبين هامّين هما؛ **الخبري** و**الإنشائي**، أمّا الأوّل، فهو كلّ كلام يحتمل الصدق أو الكذب باستثناء القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

[1]–صباح عبيد دراز، أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية،مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1986، ص17

[2]– جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، دار توبقال، المغرب، ط1، 1996،ص202.

يعمد هذا الأسلوب لنقل المعلومات والأخبار للمتلقي، وقد حفلت الرسائل الموحّدية بمثل هذا الأسلوب، ومن الأدلّة على ذلك ما جاء في رسالة عبد المؤمن حول فتحه لمدينة تارودانت، فحينما تولّى عبد المؤمن الحكم وتمّت بيعته سنة 527هـ[1]، حاول توسيع رقعة الموحّدين، وتوسيع سيطرته على المناطق التي كانت لا تزال تكنّ الولاء والطاعة للمرابطين، ومن هذه المناطق أكبر المناطق التي حوتها بلاد السوس ألا وهي تارودانت، فقال في فتحها ما نصّه: "وأمّا العسكر فقصدوا إلى تارودانت حتى دخلوها، فوجدوا البقية التي رجعت إليها هاربين قد بعث إليهم الملثمون المحصورون بتينوين حين عاينوا عسكر الموحدين أعزهم الله تعالى قد أقبل إليهم فقالو لهم: انجوا بأنفسكم، قد غشيكم عسكر الموحدين أعزّهم الله تعالى، فهربوا إلّا بعض من كان في أطراف البلد مثل تاجوندويت ورقالة، فقتل الموحدون من وجدوا"[2].

إنّ الملاحظ على هذا النّص إكثار الكاتب من إيراد مؤكدات الخبر من مثيل: أمّا الشرطية، حرف التحقيق قد، تكرار الكلمات من مثيل تكراره لكلمتي قال والموحدون، وتكراره كذا لجملة أعزّهم الله تعالى، وقد جاء ضرب الخبر بهذا إنكاري، لأنّ الكلام كان موجّها لفئة كانت منكرة للموحدين غير معترفة بهم رافضين كلّ الرفض طاعتهم، كما أكّد بواسطة هذا الكلام فكرة واحدة ألا وهي عزم الموحدين في استئصال كلّ مجسّم كافر لم يرض

[1]- أحمد عزاوي، الرسالة الموحّدية، ج1، ص50.

[2]- المرجع نفسه، ج1، ص51.

الدخول تحت أمرهم وطاعتهم، فقد أكمل عبد المؤمن بن علي الرسالة والهدف الذي جاء به المهدي بن تومرت سابقا.

وفي رسالة أخرى نجد بنية الخبر حاضرة بكثرة، وهي تلك الرسالة التي كتبها عبد المؤمن بن علي وبعث بها إلى بعض القبائل لتجدّد له البيعة والطاعة والولاء، وليأمرهم في الوقت عينه بمنع إصدار أو تطبيق أي حكم دون شوره، وهذا حرصا منه على أن تكون دولته دولة عادلة بين كافّة النّاس، ففيها يقول: "وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرّم المهدي رضي الله تعالى عنه لتجديد عهد به تقادم، وشفاء شوق إليه لَزِمَ ولازم، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعا ببركاته، ورجاءً في تضاعف الأجر بكلّ لبنة من لبناته، وحرصا على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسمه، ويعلو في الملإ الأعلى ذكره ورسمه، ورغبته في بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عزّ وجلّ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، ولتنعمَ الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعَّمة والمواسم المعظّمة، وتتزوّد بالتطوف على معاهدة ما عهدته العوارف المتممة، كل ذلك غرضها في ذات الله تعالى غرضه، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه"[1].

لقد اعتمد الكاتب الموحّدي على هذا الأسلوب لما له من دور في نقل المعلومات والأخبار نقلا دقيقا غير قابل للتّأويل، وقد طغى هذا الأسلوب لأنّ غرض الرسالة كان يفرض ذلك، فهو أسلوب يخاطب العقل والوجدان معًا.

[1]- أحمد عزاوي، الرسالة الموحّدية، ج1،ص62.

أمّا **الأسلوب الإنشائي** فهوالآخر، يعدّ واحد من الأساليب البلاغية الهامّة التي اختارها الكاتب لأجل التعبير عن أغراضه ومقاصده، وهذا الاختيار لمثل هذا الأساليب يعود لما توفّره هذه الأخيرة من إمكانية إيراد التعابير وتنويعها للوصول إلى الأغراض المراد معالجتها ضمن الرسالة.

للأسلوب الإنشائي صيغ عديدة يرد عليها وأغراض يؤديها، فمن صيغه:

الاستفهام، والأمر، والنداء، والنهي، وكلّ هذه الصيغ تشكّل لنا الأسلوب الإنشائي الطلبي، أمّا غير الطلبي فيأتي على صيغ عديدة هي: المدح والذم، التعجّب، القسم والدعاء، وهذه الصيغ هي التي نروم البحث عنها في الرسالة الموحّدية لمعرفة أغراضها البلاغية التي أفادتها، لكننا سنركّز على الأكثر وجودا في النصوص الموحّديّة.

فالاستفهام هو طلب الشيء، ويكون هذا الطلب بإحدى أدوات الاستفهام المعروفة (هل، الهمزة، كيف...) وفيه ينتظر المتكلم من المتلقي جوابا معينا، وهو من الصيغ التي وجدناها تتكرّر في الرسائل الموحّدية، من ذلك ما جاء في الرسالة الإخوانية التي بعث بها ابن عميرة إلى أصدقائه الذين انقطعوا عن مكاتباته فراح يتساءل عن السبب الذي أدّى بهم إلى ذلك قائلا:[1]

مـــا بَالَـــه عَنَّـــا نَـــأَى إِقبَالَـــــــه وَبِنَـــــا اســـــتَخَفَّ جَوَابَـــــه وسُـــــؤَالَه
ولِأَيِّ مَـــــا سَـــــبَبٍ رَأَى هُجرَانَـــــهُ أَولَى بِنَـــــا فِي حِـــــين لـــــذَّ وِصـــــالَه

[1]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص200.

ونجد صيغة الاستفهام قد تحقّقت في بنية نص إخواني آخر، يقول كاتبه فيه ما نصّه: "وهل أغنت عنك أيّام كانت الأيدي عنها تقبض، والصفع على أقفيتها يعرض، والأبواب في وجهها تسد"[1] هذه البنية من الخطاب وجدت في رسالة ابن عميرة المخزومي حينما هجا أديبا متكسبا –لم تذكر المصادر اسمه– راح هذا الأديب يكتب شعرا رغبة في المال لا غير، وقد رأى ابن عميرة في هذا الفعل تقليل من قيمة الشاعر وكرامته.

لقد استعمل الكُتّاب الاستفهام لما له من دور هام في تشكيل النصوص، فهو سمة بلاغية وأسلوبية تجعل من الكلام رفيعا.

لقد وردتصيغة الاستفهام بنسب قليلة في الرسائل الديوانية الموحّدية، حيث لم يحفل بها الكُتّاب في أغلب رسائلهم على اختلاف أغراضها،لكن الرسالة الإخوانية والوصفية كثر فيهما الاستفهام وهذا لحاجة الكتّاب له حتّى يعبروا به عن مشاعرهم وخلجاتهم النفسيّةوحتّى يعطوا لنصوصهم ميزة فنّية وجمالية خاصّة.

أمّا الأمر، فهو الآخر واحدا من الصيغ الإنشائية الطلبية، فيها يُكلّف المتكلّم المتلقي بفعل معيّن، ويُلزمه على القيام به باستخدام أفعال الأمر المختلفة، أو باعتماده على الفعل المضارع المقترن بلام الأمر.من مثيل ذلك ما جاء في الرسالة المنظّمة "والدين الذي جاهدوا عليه هو الدين، لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسّنة التي قاتلوا عليها هي هذه، لا تتبدّل ولا تتغيّر، حتى يرث الله الأرض ومن عليه. فاصبروا على هذا كما صبروا، وجاهدوا

[1]– أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص203.

عليه كما جاهدوا، واحتسبوا ما أصابكم في سبيل الله كما احتسبوا تنالوا عند الله من الأجر ما نالوا فإنّهم ما نالوا النعيم الدائم بالصبر على الجهاد، والاستعداد بالأعمال الصالحة، ولزوم التقوى في السّر والعلانيّة، فاقتفُوا آثارهم واسلكوا سبيلهم، وتأسُّوا بأعمالهم، قد كانت لكم فيه أسوة حسنة، فالجهاد على الدين والصبر على الأذى نعمة عظيمة لا يؤدى شكرها، فعظّموا ما عظّم الله، واعرفوا قدر هذه النعمة التي خصّ بها أهل التوحيد."[1]

من خلال هذا النّص يظهر لنا بأنّ أسلوب الأمر خرج لعدّة أهداف وأغراض منها؛ النصح والإرشاد والحثّ على الجهاد، التهويل والتخويف من عاقبة الكفر والخروج عن الدين.

كما حضر النهي كذلك وهو؛ أسلوب إنشائي طلبي فيه نهي وطلب بالكف عن أفعال ما، يتشكّل هذا الأسلوب بواسطة لا الناهية المضافة إلى فعل مضارع، هذا إضافة إلى حروف أخرى تؤدي هذا الدور وهي "ما، لم، لما، لن، ولا النافية للجنس، ليس".

والدليل على ذلك قول ابن عميرة "لا تثقل ضَبْنًا، ولا تحمل ولو تبنا، فاملأها من كل ما يضيق مجرى النفس، وجنّبها ما هو مجلبة الهوس، فالطوامير من الطوى لا تنفع، والرّقاع لخرفه لا ترقع، إنّما هي جهالة يقطع بها العمر، وحباله لا يقع فيها إلّا الغمر."[2] والغرض من وراء هذا النفي هنا الإنكار والاستهزاء بالعمل الذي قام به الأديب المتكسّب.

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص46.

[2]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص203.

كثر النفي في الرسائل الموحّدية سواء أكانت ديوانية أو إخوانية أو وصفيّة، وقد ورد غالبا مختلطا بالأمر.

ومن صيغ الأساليب الطلبية النداء فيه ينادي المتكلم أحدهم بإحدى أدوات النداء المعروفة (يا، أيا، هيا، آ، أ، أي) بغية لفت انتباهه إلى أمر ما. هو الآخر كان حاضرا في الرسائل الموحّدية عموما، وبالخصوص الإخوانية منها، كقول ابن عميرة: "إيه أيّها الأخ الخالص ودّه، المتقادم عهده، أنيسي وأوجه الأيّام غرّ، وروضي والفجاج خضر لا غبر."[1]

وفي هذا النداء تعبير عن الحب والودّ الكبير الذي يكنّه إلى صديقه أبو سليمان الطرانتي، نداء فيه لغة مملوءة بالصدق العاطفي.

أمّا الإنشاء غير الطلبي كان حاضرا بكثرة في الرسالة الديوانية الموحّدية، وقد مثّله صيغة الدعاء،فقد كان الكاتب يدعوا ويتضرّع إلى الله تعالى من أجل تحقيق أهدافه ونيل ما يتمناه، وهذا راجع رغبة منه في إظهار ولائه وطاعتهوإجلاله لخليفته وقادة أمره.

لقد كان الدعاء شرطا من الشروط الواجب على الكاتب عدم نسيانها في تحريره لرسالته الديوانية، لهذا وجدنا مقدمات الرسائل لا تخلوا منه ومن ذلك قول أبي القاسم القالمي نقلا عن لسان خليفته عبد المؤمن بن علي لما وجّه رسالة إلى طلبة فاس سنة 555هـ[2]، يخبرهم فيها بدخول عرب إفريقية تحت طاعة الموحدين: "من أمير المؤمنين أيّده الله بنصره،

[1]- أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ، ص219.

[2]- ليفي بروفنسال، رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنيّة، ص264.

وأمدّه بمعونته –إلى الطّلبة والشيوخ والأعيان والكافّة من الموحدين من أهل فاس –أعزّهم الله بتقواه، وأدام كرامتهم بحسناه–"[1].

وإذا انتقلنا إلى كاتب آخر ورسالة أخرى ديوانية نجد المقدّمة نفسها تتكرّر، لكن المرسل أو المرسل إليه هما من يتغيرا في الرسالة، والدليل على ما نقول ما كتبه ابن محشرة عن الأمير يعقوب بن يوسف سنة 584هـ[2] إلى طلبته بمراكش، يزفّ لهم نبأ رجوعه من إفريقية إلى المغرب الأقصى وفي هذا يكتب في مقدّمة رسالته ما نصّه: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين –أيّدهم الله بنصره، وأمدّهم بمعونته –إلى الطلبة والموحّدين والأشياخ والأعيان والكافّة بمراكش– أدام الله توفيقهم بتقواه، وأوزعهم شكر ما منحه من فضله وآتاه –أدام الله توفيقهم بتقواه، وأوزعهم شكر ما منحه من فضله وآتاه– سلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[3].

إنّ في هذا الدعاء نوع من الولاء والإجلال للخليفة والتقدير والتعظيمله، وأسلوب الدعاء لا يكون فقط في المقدّمة، ولا يكون موجّها فقط للخليفة، بل مضمون الرسالة الموحّدية الديوانية هو الآخر نجده يعجّ بمثل هذا الأسلوب، والغاية منه قد تكون الدعاء للخليفة، وأحيانا أخرى يكون الدعاء على العدو من النصارى أو المرابطين بالزوال والفناء.

[1]– ليفي بروفنسال، رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنيّة، ، ص113.

[2]– المرجع نفسه، ص266.

[3]– المرجع نفسه، ص210.

كان هذا النزر القليل من الأساليب الإنشائية والخبرية الواردة في الرسائل الموحّدية، وهذه الأساليب وباختلاف أنواعها أعطت للنّص صبغة فنّية زادت من بلاغة وجمال الرسالة.

3/ الرسالة المُوحّدية وأسلوب الاستقصاء والإفاضة في التعبير عن المعاني:

غلب على الرسالة الموحّدية العديد من السمات الفنّية، منها أسلوب الإطناب والإفاضة في التعبير عن الأغراض والأفكار.

فالإطناب أسلوب يقتضي من الكُتّاب التّوسّع في المعاني، فقد كانوا "يطنبون في تصوير أفكارهم، ويتوسعون في غرضها، وكانوا يحشدون الفكرة الواحدة ألوانا عديدة من صور الترادف أو التكرار أو الاعتراض، أو غيرها من الأساليب الفنّية لتحدد أبعادها وتوضّح دقائقها، أو لتأكيدها أو ترسيخها في ذهن المتلقي أو التأثير فيه أو إمتاعه"[1].

الإطناب خاصّية أسلوبية فنّية، تضفي على النّص جمالا ورونقا، وتكفل للكاتب إظهار مقدرته اللغوية والفكرية في التعبير عن المعاني المختلفة.

غلب على الرسالة الموحّدية الإطناب، فجلّ الرسائل جاءت طويلة، إذ هناك العديد من الكتّاب الذين غلب عليهم هذا الأسلوب نذكر منهم: ابن عميرة المخزومي، أبو جعفر بن عطية، عبد العزيز بن المرخي وغيرهم الكثير.

[1]– غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع الهجري العراق والمشرق الإسلامي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2011، ص432.

ومن الرسائل التي كانت مسهبة رسائل الفتوح، ورسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورسائل الحث بالجهاد، وكذا رسائل اللوم والعتاب والتهنئة والتعزية ورسائل المودّة.

إنّ من دوافع الإطناب في الرسالة الموحّدية الإجلال الكبير والتقدير العظيم للخليفة الموحدي، فقد كثر الدعاء له، إلى حدّ المبالغة في ذكر الألقاب والصفات، وهذا الأمر هو الذي جعل المقدمات تطول، ومن الأدلة على ذلك ما جاء في مقدمة رسالة أبي القاسم القالمي التي كتبها عن الخليفة عبد المؤمن بن علي، حول فتح مدينة آبلة[1]، وفيها يقول: "الحمد لله الذي قدّم لأولياء أمره فيما يرومونه من تدويخ العدو وقهره يوما على الكافرين عصيبا، وصنع لهم في إبراز الكفرة إلى مضاجعهم وسوقهم على قدم الإعتزاز صنعا عجيبا، ووعد القائمين بدعوته، الناصرين لملّته فتوحا آزفة يفتحونها، ومغانم كثيرة يأخذونها، فعجّل من دون ذلك فتحا قريبا، وصلّى الله على نبيّه المصطفى محمّد الهادي إلى سبل السلام ترغيبا وترهيبا، وعلى آله وصحبه، ومن لبّى دعوته إلى ربّه سامعا مجيبا، ساميا على مقام النصرة ومجل الأثرة أعزّ مجيبا، ونساله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، المجدّد لدينه عندما عاد غريبا كما بدأ غريبا، وذهبت به الأهواء المتّبعة، والأضاليل المبتدعة، تصعيدا وتصويبا، وعن صاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مؤازره، ومُظاهره توسيعا لأكناف الدعوة العلّية وترحيبا ووارث مقامه الكريم، وأهلية القيام بأمره العظيم، منصورا ومفتوحا له ومُصيبا"[2].

[1]- Avila مدينة تقع وسط إسبانيا، تابعة لمنطقة قشتالة وليون.

[2]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، ص121.

هي مقدّمة طويلة يعود السبب في طولها إلى حرص الكاتب على إحداث جرس موسيقي لنصه عن طريق اعتماده على أساليب البديع المختلفة، كاعتماده في هذا النّص السجع والجناس.

حرص الموحدون على تقديم الحجّة والبرهان من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إضافة إلى أنّهم كانوا مولعين بالأشعار، فكثيرا ما زاوجوا في رسائلهم بين المنظوم والنثور، وكان هذا علّة أخرى من علل الإطالة في الرسالة الواحدة.

وفي الأخير ما عسانا إلّا القول بأنّ الإطناب أسلوب يأتي عفوا، دون أي تحضير مسبق له، فغرض الرسالة هو الذي يفرض هذا الأسلوب على الكاتب.

كما أنّ الإطناب في الرسالة الموحّدية لم يكن مخلا بالمعنى ودون فائدة، بل حدث لأجل إثبات المعاني في الأذهان وترسيخها.

قولنا بوجود الإطناب وغلبته على الرسالة الموحّدية لا ينفي وجود رسائل أخرى تتراوح بين القصر والاعتدال في الطول، فهناك الكثير من الرسائل الموجزة لكن الغالب على الرسائل الموحدية كان الطول والإسهاب.

لقد مال الكتّاب الموحدون إلى الإطناب أحيانا رغبة منهم في بسط النظر وعرض معانيهم ومضامينهم دون أي لبس أو غموض في إيصال الأفكار كان هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّهم كانوا يحاولون إثبات مقدرتهم اللغوية في التأليف والصياغة والنظم الجيّد،

وهذا كلّه راجع إلى ثقافتهم الكبيرة المتنوّعة من فلسفة ودين ولغة وشعر وتاريخ وغيرها من العلوم التي أنارت فكرهم وعقولهم.

4/ الرسالة الموحّدية وظاهرة التَّكرار:

-**تعريف التكرار**:يسعى هذا الجزء من البحث إلى تقصّي ظاهرة التكرار في الرسائل الموحّدية وبيان دلالتها الجماليّة الفنّية في النّص، من خلال تتبّع مجموعة من النصوص الموحّدية على اختلاف أنواعها وأصحابها.

التَكرار ظاهرة أدبية، اشتغل عليها العديد من كتّاب الدولة الموحّدية، بغية تأكيد معانيهم وترسيخها في الأذهان، ولفت انتباه القارئ إلى ما يُقال.

فالتكرار بفتح التاء في اللغة يعني "كرّ عليه يكرُّ كرًّا وتكْرَارًا... وكرّ عنه رجع... وكرّر الشيء وكركره: أعاده مرّة بعد الأخرى والكَرَّةُ المرّةُ...يُقال كرَّرْتُ عليه الحديث وكرْكرْتُه إذا رددته عليه"[1]، والتكرار في كتابات الزمخشري من "كرر، انهزم عنه ثم كرَّ عليه كُرورًا، وكرّ عليه ومعه فَرسه كرًّا، وكرَّ بعدما فرَّ"[2] فهو من خلال هذين الإستشهادين يعني الإعادة والترديد والترجيع والتعدّد.

[1]-ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، عبد المنعم خليل ابراهيم، دط، 2009، دار الكتب العلمية، بيروت، ج5، محتوى (ر-ز)، 160.

[2] - الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998، ج2، محتوى (فأد-يهم)، ص128.

أما في الاصطلاح فهو "أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متّفق المعنى أو مختلفًا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده ... فإن كان متّحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثبات تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النّفس وكذلك إن كان المعنى متّحدًا وإن كان اللّفظان متفقين والمعنى مختلفًا، فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين"[1].

فالتكرار تقنيّة لغوية يستعين بها الكاتب لأجل تأكيد كلامه وترسيخه في الأذهان وهو بعبارة أخرى "تقنيّة أسلوبية تمكّن من كشف أغوار النّص، إذ يعدّ من أهمّ الأساليب التي تؤدّي وظيفة تعبيرية وإيحائية، وهو نمط صوتي يتّصل بالذات المبدعة من خلال استجلاء مختلف الأحاسيس والمشاعر المتراكمة في نفس المبدع، حيث يأتي عاكسا للمواقف النفسيّة والانفعاليّة"[2].

[1] – أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، ط1، 1989، ج1، ص380.

[2] – سهيلة مفروش، التكرار ودلالته النفسيّة في أوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي، مجلة دراسات معاصرة، تيسمسيلت، مج5، ع2، 2021، ص131.

-تجلياته في الرسالة الموحّدية:

حضر التكرار في الرسالة الموحّدية على كم من وجه، فتكرّر اللّفظ تارة، وأحيانا أخرى تكرّرت العبارة، وفي عديد المرات تكرّر الحرف، فما دلالة هذا استعمال هذا الأسلوب في النّصوص الموحّدية؟

- **تكرار اللفظ:**

يظهر تكرار اللّفظجليًا في رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا راجع إلى رغبته الملحّة في لفت انتباه السّامع، وجعله يتأثّر بما يسمع من نصائح وإرشادات وعضات.

إنّ تعدّد الألفاظ في هذه المكاتبات ينمّ عن موهبة صاحبها في اختيار المفرداتوالتي تضفي على مكتوبهمسحة إيقاعيّة فنّية جماليّة، تترك لمستها وبصمتها في ذهن المتلقي، فالكلمة إذن مفتاح سحري "يمكن أن تشكّل مدخلا إلى عالم الكاتب، ومميّزا واضحا له"[1].

وفي رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموحّدية جملة واسعة من الألفاظ والمصطلحات المكرّرة، سواء في الفقرة الكاملة، أو حتى في الجملة الواحدة، "وهي عبر هذا التكرار والحضور تحقّق قيمة إيقاعيّة واضحة من خلال ضرباتها المتكرّرة التي تثير التأمُّل، وتعدُّ مدخلا لرصد معجمه اللغوي، ولدخول عالمه الدلالي"[2].

[1]- ابراهيمي صليحة، الرسالة الإخوانيّة في التراث العربي مقاربة أسلوبيّة، ص157.

[2]- المرجع نفسه، ص ن.

ومن المكاتبات التي اعتمد فيها صاحبها على تكرار المفردات لتأكيد معانيه، رسالة الخليفة المأمون بعد تولّيه الحكم، جاء فيها ما نصّه: "وأوّل ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها وشهودها إظهارا لشعائر الإيمان في جماعتها، فقد قال صلى لله عليه وسلّم: (أحبُّ الأعمال إلى الله الصلاة لأوقاتها)، وقال: (أوّل ما ينظر فيه من أعمال العبد الصلاة)، وقال عمر: (إنّ أهم أموركم عندي الصلاة)، ...وقال: (لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة)...ولإيثار ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد...ونيط في إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام: (مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر..)"[1]

فغرض الرسالة العام وموضوعها الرئيس يتمركز حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات التي شاعت في عصره كترك الصلاة وعدم القيام بها في أوقاتها، فالصلاة واحدة من أهمّ الشرائع الواجب النظر فيها للمسلم وعدم إغفالها، لذا وجدنا المأمون يكرّررها في هذا النّص قرابة تسع مرّات، وهذا التكرار كان بغية حثّ رعيته بإتباع طريق الحق، وضرورة إقامة الصلاة، لأن بها تصلح أحوال الفرد والمجتمع، وبواسطتها يضمن المسلم الدخول إلى الجنّة.

وإذاما نظرنا إلى رسالة أهل سلا إلى الخليفة الرشيد، حول بيعة أهل تلمسان له، نجد تكرار اللفظ فيها يقلّ، وهذا راجع ربّما إلى عدم تطلّب الرسالة إلى هذه الخاصّية الأسلوبية،

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص 382،383.

فقد جاء فيها: "...ولفظه الذي لا ينكر عموم فضله أربابُ الخصوص، واستوفوا سماعه فصلا فصلا، وفرّعوا على كلمة الزواهر فروعا من البشائر جعلوه لها أصلا، وعرّفوا منه إتيان بيعة تلمسان عفوا بلا تعب، وابتداء دون طلب"[1].

أمّا رسالة المرتضى إلى العزفي حول هجوم النصارى على مدينة سلا، فقد تكرّر فيها لفظ الجلالة"الله" أكثر من ست مرّات، على الرّغم من موضوعها السياسي البحت، وفيها ما نصّه: "وقد طرأ في مدينة سلا –جبرها الله سبحانه واستنفذها–ما قد اتصل بكم مما كنتم أبدا منه تحذّرون، وبه لعلمكم بزيادة العدو الكافر تنذرون...ولا حول ولا قوّة إلّا بالله الذي تصير إليه الأمور؛ والله سبحانه يجري دينه القيّم من النّصر والظفر ما عوّده...ولكن ينفذ حكم الله تعالى فيما ثبت في الكتب مسطورا...وكان أمر الله قدرا ومقدورا: وثوابكم على الله سبحانه فيما من ذلك تولّيتم ...كما رأى الله عزّ وجلّ في منابكم...نتأهّب لدفعه بحول الله ونستعدّ..."[2]فلفظ الجلالة المكرّر في هذا النّص ينمّ عن إيمان صاحبهبأنّ الله عزّ وجل قادر على تحقيق النّصر للمظلوم.

- **تكرار الجملة:**

تكرار الجملة واحدا من الظواهر الأسلوبية الهامّة في النّص الموحدي، فبفضلها تمّ ائتلاف النّص وتلاحم أجزائه والتئامها، ومن تكرار الجمل نذكرقول المأمون الوالي الذكر:

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص397–398.

[2] – المرجع نفسه، ج1، ص406.

"الحمد لله الذي جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلين يتفرع منهما مصالح الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان إرشادا إلى الحق المبين؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، المبعوث بالشريعة التي طهرت الجيوب من الأردان...ومن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، تنبيها على ترك الشك لليقين، وعلى آله أعلام الإسلام باليمين الذين مكّنهم الله في الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرو بالمعروف ونهو عن المنكر وفاءا بالواجب لذلك التمكين."[1]

يوحي هذا التّكرار "بأهمّية ما تكسبه الجمل المتكرّرة من دلالات يسعى المبدع عبرها إلى التأثير في المتلقي، وإشراكه في تجربته الوجدانية، ويعكس الأهمّية التي يوليها هذا المبدع لمضمون تلك العبارات، إذ تغدو مفتاحا مهمًّا لفهم الهاجس المهيمن على نفسيته"[2].

- **تكرار الحرف:**

تتكرّر الحروف في الرسالة الموحّدية بغية "إدخال تنوّع صوتي يخرج القول من نمطية الوزن المألوف ليحدث فيه إيقاعا خاصًا يؤكّده. وإما أن يكون لشدّ الانتباه إلى كلمة أو كلمات بعينها عن طريق تآلف الأصوات بينها. وإمّا أن يكون لتأكيد أمر اقتضاه القصد فتساوت الحروف المكرّرة في نطقها له مع الدّلالة في التعبير عنه"[3]ونضرب على ذلك مثالا لقول المهدي بن تومرت لجماعة الموحدين: "باعوا أنفسهم من الله إذ لا شيء أعز عندهم

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1،ص382.

[2] – سهيلة مفروش، التكرار ودلالته الفنّية في أوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي، ص 136.

[3] – منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002، ص78.

منها، فلما علم صدقهم وإيمانهم اشترى منهم ما باعوا بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا يبلغه الواصفون، ولا يحيط به العقل"[1]

إنّ إعادة حرف النفي "لا" بعينها في الفقرة الواحدة ضَمن للنّص إيقاعا واحدا لأنّ "الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها"[2]،وقد دلّ تكرار هذا الحرف على العديد من المعاني من أبرزها التأكيد على فكرة ضرورة الجهاد في سبيل الله وتوسيعها وإعطائها معان أبعد.

ورسالة المرتضى إلى الأمير العزفي حول هجوم النصارى على مدينة سلا، هي الأخرى تتكرر فيها الحروف بكثرة، منهاقوله: "نشكر نصائحكم من السوابق والخصائص، ونشكر نصائحكم التي مازلتم إيّاهم تبذلون، وخدمتكم التي توالون وتصلون، ونستمدّ منكم إلى العلم الذي أنتم له مخلصون، والدين الذي عن سننه القوين لا تعدلون، والله يتولاكم بحفظه وصونه، ويجزل حظّكم من أنجاده وعونه...فقد اتّصل بكم مما كنتم أبدا منهم تحذرون، وبه لعلمكم بزيادة العدو والكافر تنذرون."[3]

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص45.

[2]- ابراهيم أنيس، الأصوات اللغويّة، مكتبة نهضة مصر، دت، ص65.

[3]- المرجع نفسه، ج1، ص405-406.

لقد شكّل حرف النون في أواخر فواصل هذا النّص نغمة موسيقيّة واضحة، فهذا الحرف يعبّر عن حالة الأسى والحزن والإكتئاب التي يعيشها الكاتب جرّاء هجوم النصارى على مدينة سلا وتخريبهم لها.

ومن بين ما نستشهد في هذا المجال قول ابن عميرة في عتابه لصديقه الذي قطع عنه مكاتباته: "وهذا شكوى جنب الله ذلك المجد أن يكون مشكوًا، وزاده إلى علائه علوا، هي من الشفيق معروفة، وعن ظاهرها عند التحقيق مصروفة، وإنّما جاز إثباتها ونفثت بها أبياتها، بعد وحشة حنادسها داجية، ووساوسها للضمير مناجية، قلبي بها قلب المكمّد، وليلي بها ليل الأرمد، وأنسي من أجلها كان ماء فنضب."[1]

لقد تكرّر حرف العطف "الواو" بصورة جليّة في هذا النّص، ممّا أضفى ترابطا وتناسقا نصّيا جميلا، كما أسهم في توسيع المعاني وترسيخها في الأذهان، فبواسطة هذا الحرف أصبحت الجمل متوازية مع بعضها البعض، هذا ما ساعد الكلام في الخروج عن النمطيّة المألوفة وأبعده عن الأفكار المكرّرة غير المترابطة المفكّكة.

وبهذا يمكننا القول بأنّ لا دلالة ولا معنى ولا دور للحرف خارج سياق نصّه، فأهمّيّته تكمن ضمن سياقات النصوص المختلفة، لأنّ هذا الأخير هو متنفّسه.

بعد تتبّعنا وتنقيبناعن هذه الظاهرة في الرسالة الموحّدية يمكننا الاستنتاج بأنّ التكرار ليس ظاهرة أسلوبية حداثية، جاءت بفعل الدراسات الأسلوبية الحديثة والمعاصرة بل هو

[1]–أبو عبد الله اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة المخزومي، ص206.

خاصّية وسمة فنّية جمالية تفطّن لها العرب منذ الأزل، أي قبل ظهور هذه المدارس التي اعتنت بهذه الظواهر في شكلها الحديث.

فبفعله باتت بنية النّص الموحدي متّسقة منسجمة، مترابطة الأجزاء تامّة المعنى وبه تمكّن الكاتب الموحّدي من "استثارة المتلقي والتأكيد في نفسه، فيذهب الكاتب من خلال التكرار إلى لفت انتباه القارء لبعض العناصر ذات الأهمّية في النّص التي لا يمكن إغفالها أو تجاوزها أثناء قراءة النّص"[1].

المبحث الثالث: الرسالة الموحّدية وعلم البديع:

إنّ الرسالة الموحّدية كغيرها من الفنون الأدبيّة لها إيقاع وحسّ موسيقي تقوم عليه، فقد وجدنا كُتّابها يهتمون بتوظيف الفنون البديعيّة، مثل اهتمامهم تماما باختيار اللفظ الحسن لرسائلهم، وهذا حتى يكون لكتاباتهم حسا ووقعا له الأثر البالغ في نفوس المتلقين، ومن الفنون البديعية التي وجدناها حاضرة في الرسالة الموحّدية: الطباق، الجناس، السجع، وهي فنون تجتمع لتبرز قدرة الكاتب على التعبير بمهارة وحنكة.

وقبل الولوج في البحث عن هذه المصطلحات ودلالتها في الرسالة الموحّدية، لابدّ من وضع مقاربة نقدية لمصطلح البديع وفنونه.

[1]- أبو عبد الله اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة المخزومي، ص 158.

1/ دراسة نقدية لمصطلح البديع:

البديع لفظ يطلق على الأمر الجديد والشيء الذي ابتكر على غير مثال سابق "بدع الشيء يبدعه بدعًا وابتدعه : أنشأه و أبدعه، وابتدعت الشيء : اخترعته لا على مثال ،والبديع :المبدع ،... والبديع الجديد"[1]فهو إذن الخلق والابتكار والاختراع .

فهو مصطلح يقصد به تزيين الألفاظ أو المعاني بألوان بديعية من الجمال اللفظي أو المعنوي، ويسمّى العلم الجامع لطرق وأنواع وألوان التزيين اللغوي[2]فهو أمر مهم وجب على كل مبدع مراعاته أثناء وقبل تحريره.

لقد خضع هذا المصطلح لعدد من التغيرات والتطوّرات ،فهو قبل القرن السابع الهجري لم يكن يعرف على أنه علم من علوم البلاغة ،لأن هذا العلم لم يظهر إلا بعد هذا القرن ، بل كان يكنّى به الشعر المحدث الذي برز خاصة مع الشعر أبي تمام ،وهو بهذا كان يدل على الألوان الجديدة التي أتى بها الشعراء المحدثون في شعرهم ،فالبديع إذن هو صفة وليس بعلم – قبل القرن السابع– صفة تزيين الكلام وتلطيفه، وتجويده انطلاقا من إبداع سابق.

وربّما يتساءل سائل فيقول: أين يصنّف كتاب ابن المعتز الذي سمّاه البديع ؟ أ ولم يمثل هذا الكتاب البدايات الأولى لهذا العلم ؟ ألم يؤسّس لغاية بلاغية محضة ؟

[1]- أحمد مطلوب ،معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ج1 ،ص 378-379.

[2]- ينظر : محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب ، علوم البلاغة ،البديع و البيان و المعاني ،المؤسسة الحديثة للكتاب ،طرابلس، لبنان ،ط1 ،2003 ،ص 52 .

الإجابة ستكون طبعا لا ، لا يمثّل هذا الكتاب العلم الثالث للبلاغة لأنّ هذا الكتاب لم يؤسس لغاية بلاغية بل كان الدّافع إليه هو الخصومة التي دارت بين أهل الشعر القديم والحديث، وأن البديع كعلم لم يظهر إلا بعد القرن السابع وبالتحديد على يد الخطيب القزويني "وليس لكلمة البديع التي جاءت في عنوان الكتاب صلة بما سمّاه البلاغيون في العصور المتأخرة (علم البديع) ... وإنّما المقصود بها ألوان طريفة من التّعبير لم تكن شائعة مألوفة في استعمالات الشّعراء والكتّاب"[1] فهو كتاب لم يؤلّف لغاية بلاغية محضة بل لإيضاح أهمّ النّقاط المختلف فيها بين شعراء القديم والحديث.

فقد تشكّل فنون البديع المختلفة ملمحا فنّيا وأسلوبا مهمّا اتّبعه العديد من الكتّاب ولعلّ من بينهم كتّاب الرسالة الموحّدية، فقد غلب على هذا الفن المحسنات البديعية وبخاصّة منها الجناس والسجع والطباق والمقابلة، ونحن نعلم بأنّ علم البديع هو ذلك العلم الذي يهتمّ "بتزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إمّا سجع بفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاضه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"[2]، فمن خلال هذا النّص نستنتج بأنّ دور المحسنات البديعية يكمن فيما تحقّقه من زينة ورونق وجمال للنّص.

فالجناس والسجع يكسبا النّص صوتا وإيقاعا حسنا، والطباق والمقابلة يضيفان للمعاني تأكيدا وإثباتا وحسنا وبهاءا، شريطة أن تكون هذه المصطلحات استخدمت سليقة لا تكلّفا.

[1]- محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب ، علوم البلاغة ،البديع و البيان و المعاني ، ص 69 .

[2]- ابن خلدون، المقدمة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، دت، ص1066.

والآن نتقصّى ونبحث عن كلّ فن بديعي ومدى حضوره ف الرسائل الموحّدية نبدأها الآن مع الجناس.

2/ تجليات البديع في الرسالة الموحّدية:

- **الجناس:**

من المحسنات البديعية التي استخدمها الكتاب الموحدون في تنميقهم لرسائلهم الجناس، فقد استفادوا منه الاستفادة الأكبر، وهذا راجع بالأساس إلى اهتمامهم بالجانب الشكلي للرسالة، كونهم على وعي تام بأهمّية هذا الجانب في البناء الفني الجميل لخطاباتهم، فمن الاستحالة بما كان أن نعثر على رسالة واحدة تخلو من هذا الفن.

والجناس "الضرب من كل شيء، وهو أعمّ من النوع ومنه المجانسة"[1]، وهو بعبارة أخرى إيراد "المتكلّم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها"[2] مع اختلاف معنى كل كلمة "وإنّما سمي هذا النوع من الكلام مجانسا لأنّ حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد والمعنى مختلفا"[3].

إنّ الجناس يأتي على ضربين منه التام والذي تتّفق فيه الكلمتين في عدد الأحرف وترتيبها لكنّهما يختلفان في المعنى.

---

[1]– أبو بكر الرازي ،مختار الصحاح ، تح : يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ،بيروت ، ط5، 1999، ص 48 .

[2]– أبوهلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط 1 ، 1952،ص 321 .

[3]– ابن الأثير، المثل السائر، تح : بدوي طبانة، أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، دط، دت، ج1، ص 262.

وابن عميرة ممن أكثروا من استخدام هذا الفنّ في رسائلهبغية إعطاء بنائه اللغوي نغما خاصا ذا أثر في النفوس، ومن أنواع الجناس المستخدمة في رسائل؛ الجناس التام والذي ورد في الرسالة التي تعدّ من أشهر ما كتب ، وهي رسالة كتبها عن السيد أبي زيد صاحب بلنسية حول فتح حصن بشج "وقعد له على طرق الحصن الرّجال، فكان قُصاراه عندما انقطعت الميرة عن نصاراه، أن جمع لهم ما أمكنه من الدقيق، وبعثه على الظّهر إلى بعض الطريق، وأرسل إلى الحصن أن تخرج جماعة لأخذه تمشي به على الضَّرَاء، وتُصابرُ به الضَّرَّاء."[1]

لقد جانس الكاتب هنا بين كلمتي الضَّرَاء والضرّاء، وهما متوافقان في الكتابة وترتيب الحروف لكنهما يختلفان في المعنى، فالأولى تعني المشي متخفّيا بين الأشجار، والثانية يقصد بها الآلام إذ نلاحظ من خلال هذا أنّ ابن عميرة كان موفقا في اختيار الألفاظ المتجانسة فهي غير ساقطة ولا وحشية وغير مستكرهة، وهذا يدلّنا على وعيه التّام بما يكتب، فهو ينثر عن سليقة دون أي تكلّف ولا إجهاد لنفسه في سبيل إيجاد ما يجانسه من ألفاظ، وهو هنا وجد ما يخدم فكرته وأسلوبه معا، وقد استخدمه ابن عميرة بغية إكساب نصّه صوتا موسقيا لينا، وليبرز مقدرته وتمكّنه اللغوي.

ومنه الناقص، أو ما يطلق عليه غير التام؛ وهو ما اختلفت فيه الكلمتان المتجانستان في وضع النقط وترتيب الحروف،حيث يأتي هذا الأخير على أوجه مختلفة، منه المصحّف،

[1]- أحمد عزّاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص372.

وهو ما تشابه ركناه في الحروف واختلفا في وضع النقط، نستشهد له بقوله من رسالته التي كتبها عن السيد أبي زيد والي بلنسية إلى الخليفة المستنصر حول لجوء أحد الأشخاص الأركونيين إلى بلنسية وهنا يقول ابن عميرة "وكثير من زعماء أرغون ورجالها أقاربه وفرسانه، وكل في حبله حاطب ولإنجاده متى أمكنه خاطب."[1]

وهنا وُفِّق ابن عميرة توفيقا كبيرا في إيراد الكلمتين المتجانستين، وهذا إن دلّ فإنما يدلّنا على قدرته التعبيرية الراقية، ورصيده اللغوي الخصب الثري، فهو لم يكن همّه تزيين الكلام فحسب، بقدر ما كان شغله الشاغل التوفيق في التعبير عن ما يصبو إليه من معان وأغراض.

ومنه قوله في رسالة كتبها كذلك عن والي بلنسية إلى الخليفة عبد الواحد مؤيدا بيعته بالخلافة، يقول فيها: "اللهمّ امتعه بعوا رفك الجسام، وأقسم له من إسعادك وتوفيقك أفضل الأقسام، واجعل زماننا به رائق الطلاقة والابتسام، وانصره على أعدائك الكافرين بما قلّدته من الماضيين الرأي والحسام"[2]

هنا جانس جناسا مصحّفا بين كل من الجسام التي تعني الأمر العظيم، و الحسام التي ترمي إلى معنى السيف القاطع.

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1،ص352.

[2] - المرجع نفسه، ج1، ص356.

كما يورد جناسا مصحفا في نص آخر كتبه كذلك عن والي بلنسية حول ظروف شرق الأندلس يقول فيه "فكتب العبد –كتب الله تعالى للمقام الأمامي المأموني مضاء الحدّ، وسعادة الجدّ، من بلسنية – والإسلام بيمن نقيبته محبور، والمبيض ببركة إيالته مجبور "[1] وهنا حضر الجناس في كلمتي الحدّ والجد، وبين محبور ومجبور، وهذا يدلّ على تمكنه من ما يكتب، و قدرته على التلاعب بالألفاظ وفقا لما يخدم فكرته.

من الملاحظ أنّ ابن عميرة قد اتّبع أسلوبا واحدا في رسائله، وهو الأسلوب المنمّق الموشّى بفنون البديع، كما أنّه تخيّر الألفاظ وفقا لأحوال ومقامات المتلقين، وبهذا جاءت ألفاظه متفاوتة في الصعوبة.

لقد وفّق ابن عميرة في إيراده لفن الجناس في رسائله، فهو لم يبلغ به حدّ الإسراف والتكلّف بل جاءت كتاباته على طبيعتها ولم يكن متصنّعا أبدا، وهذا يعود بالأساس إلى ثقافته الواسعة التي أنتجت له أدبا ثريا بمصطلحاته غنيا في معانيه، أدبا واسع النطاق ذو أدبية عالية وصور فنية خالدة، وبهذا شكّلت رسائله نموذجا يحتذى به في فن الترسّل.

لم يكن ابن عميرة الكاتب الوحيد الذي اعتمد على الجناس في كتاباته، بل جل الكُتاب قد استخدموا هذا الفن، ومن ذلك ابن محشرة فيقول في رسالة كتبها عن الأمير يعقوب المنصور: "والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي نظم الله به من روابط

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص374.

العقائد والضمائر..."[1] هنا جانس الكاتب جناسا ناقصا بين كلمتي المعصوم والمعلوم، وهذا الجناس قد أكسب نصّه نغما جذب به عقول المتلقين.

أمّا أبو جعفر بن عطية فقد استخدم هذا الفنّ استخداما معقولا دون أي تكلّف في توظيفه، ومن ذلك قوله في رسالة كتبها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى أهل بجاية يوصيهم فيها بإقامة الصلاة، وحفظ ما جاء في الشريعة الإسلامية، وتطبيقها تطبيقا صحيحا: "والطائفة المنصورة مجفوفة من حفظ الله...ومخصوصة من إراقه وإسمائه، وممدّةً من إضاءة زندها وإيرائه، في تسنية مرامه وإسنائه، بما أنهضنا الله به إلى إحياء معالم السّنة وإحكام أمراسها"[2] وهنا ظهر الجناس الناقص في كلمتي إسمائه وإسنائه.

- **السجع:**

السجع واحدا من المحسّنات البديعية اللفظية التي بنيت عليها الرسالة الموحّدية، فهو يمثّل حجر الأساس لهذا الجنس الأدبي، إذ يضفي على النّص إيقاعا منسجما، وتكمن أهمّيته في جلب عقول وقلوب المتلقين اتجاه ما يسمعون.

فالسّجع فنّ توافق الفاصلتين من النثر على نفس الحروف، له أقسام عديدة منه المطرّف وهو "أن يأتي المتكلّم في أجزاء كلامه أو في بعضها بأسجاع غير متّزنة بزنة

[1]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، ص211.

[2]- المرجع نفسه ، ص128.

عروضية، ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية، وهذا يعني اختلاف الفاصلتين وزنا، واتفاقهما في حرف السّجع."[1]

والأمثلة على ذلك في الرسائل الموحّدية عديدة من ذلك قول ابن عميرة في إحدى رسائله الإخوانية المكتوبة في تعزية المستنصر الحفصي بوفاة والده الأمير أبي زكرياء الحفصي والقائل فيها "كتب العبد كتب الله للحضرة العلية الطاهرة السّنية اجزل ثواب الصّبر في البأساء، وأنجز لها أفضل مواعد النصر على الأعداء، من بجاية كلأها الله وبمعقل هديها من طوفان الرجفان الاعتصام، ونظرها لأهل الإيمان بإنجاد الرحمان هو النظام، وطاعتها المزلقة تؤدّى مع الفروض المكتوبة وتقام. وورد الخطاب العليّ الكريم مفصحا بالدّاهية الكاشفة عن ساق، الكاسفة للبدور والشموس عن تمام وإشراق، فأيّ وزر دهم الأنام، وعين أصابت الإسلام."[2] والملاحظ على هذا النّص أن فواصله تتّفق في الحرف الأخير وتختلف في عدد الأحرف المكوّنة لها، كما تختلف عن بعضها البعض في الأوزان الصرفية.

وهنا وظّف الكاتب السجع توظيفا حسنا فحقّق بهذا نوعا من الاتساق الصوتي لرسالته فـ"إذا كان اتّساق النّص وترابط عناصره يحدث بفضل ما يجمع بين هذه العناصر من علاقات معجميّة ونحويّة ودلالية، تتمثّل في الإحالة والاستبدال والروابط اللغوية،

[1] – مالك محمّد جمال بني عطا، السّجع في العصر الجاهلي، جامعة مؤتة، 2011، دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الأردن، ص09.

[2] – أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص361.

والتكرار والاتساق المعجمي والحذف وغيرها، فإنّه يحدث كذلك بفضل آلية لها هي الأخرى دور أساس في تحقيق تماسك النص والتحام عناصره، ألا وهو التماثل والتناسق الموسيقي الذي يجمع بين فواصل الكلام"[1].

لقد كان توظيف هذا النوع من السّجع المطرّف الغالب على رسائل ابن عميرة المخزومي فقد ورد في جلّ رسائله إن لم نقل الكل، كما غلب كذلك على رسائل أبي الحكم عبد العزيز بن المرخي فنجده يكثر من استخدام السّجع المطرّف، وهذا إن دلّنا على شيء إنّما يدلنا على رغبة الكتّاب في تنميق رسائلهم ومحاولتهم تقليد مدرسة الصنعة اللفظية الشرقية، يقول فيها: "فإنّا نحمد الله إليكم الذي لا إله إلّا هو ونشكره على آلائه ونعمه والحمد لله مذلّل المستصعب ومُسهِّل دَرَك المطلب، فاتح باب المعقلِ الأشب، ومانح ضروب الخير المحسِب، ومعرف أوليائه من عوائد نصره ويسره ما يصل سببهم من الفتوح بأكرم السبب، ويوذن أن مناوئ هذا الأمر العزيز مصروع لليدين وللفم ولو ابتغى نفقا في الأرض أو سلما إلى الشهب، والصلاة على محمّد نبيّه المصطفى من أكرم الحسب، المبتعث إلى العجم والعرب، الآخذ بالحُجز عن مهاوي الضلال المؤدّية

[1]- كمال الزماني، حجاجية السجع والجناس المقدماتي مقدمة ابن خلدون أنموذجا، مجلة دراسات، مج7، ع3، ديسمبر 2018، ص73.

إلى العطب، وعلى أله وأصحابه الباذلين في نصرته وطاعته جد الصابر المحتسب، الفائزين من رضى الله تعالى بأشرف الرتب."[1]

جاء السّجع في هذا النّص حسنا لأنّ مفرداته –المطلب، المحسب، الأشب، السبب، الشهب، الحسب، المحتسب، الرتب– جاءت فصيحة بعيدة عن الغرابة والوحشية، خادمة للغرض العام للرسالة، فتزيّن بها الكلام واكتسبت الرسالة إيقاعا حسنا ملفتا للعقول.

أمّا إذا انتقلنا إلى سجع آخر ألا وهو السجع المتوازي والذي "تتّفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي"[2]يعني وبعبارة أخرى اتّفاق الألفاظ المسجوعة في عدد الحروف والوزن والروي.

من ذلك ما كتبه ابن عميرة عن والي بلسنية أبي زيد إلى الخليفة عبد الواحد مؤيدا بيعته في الخلافة: "أمّا بعد حمد الله تعالى الذي جمع أهل طاعته على الهدى، ولم يرض لأمر خليفته أن يبقى هَمَلا ولا يترك سدى، والصلاة على سيّدنا محمد رسوله بدر الكمال وبحر الندى، صلاةً تتوالى عليه وعلى آله وأصحابه الذين خاضوا دونه غمرات الردى، وفَدَوه عند

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة ج1، ص145

[2] – كمال الزماني، حجاجية السّجع والجناس المقدماتي مقدمة ابن خلدون أنموذجا، ص10.

الكريهة بنفوسهم وقلّ له ذلك الفدى"[1]، وهنا نلحظ أنّ الكلمات المسجوعة (الهدى، الندى، الفدى) كلّها تتّفق في عدد الحروف وفي الوزن الواحد.

ويقول ابن عميرة في غير موضع"أما بعد، فكتب العبيدُ –كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدا إلا تخطته؛ ويدا علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته– من شاطبة وبركاتُ الأمر المجاهدي المتوكليّ، والعهد الواثقي المعتصمي، تنسكب كالمطر، وننسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الوِرد والصَّدر"[2]

ويضيف قائلا "وصل الكتاب الكريم متحلّيًا بِرُواء الحق، ناطقا بلسان الصدق، واصفا من التشريف والفَخار المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان، ولا يوم كذلك اليوم تبدَّى نظره للعيان، أو تأدى خبره في أخبار الزمان، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحَصَر، ويهدي سواده سواد القلب والبصر"[3].

والواضح من خلال هذه الرسالة أنّ كاتبها قد جعل من السجع المتوازي وسيلة لتزيين كلامه وإعطائه نغما موسيقيا رنّانا، فكلّ فاصلة من فواصلالرسالة إلّا واختار لها

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة ،ج1، ص354.

[2]– المرجع نفسه، ج 1، ص319-320.

[3]– المرجع نفسه،ج 1، ص 319-320.

حرفا تنتهي به، والجميل في الأمر أنّ سجعه قصير يختلف من فاصلة لأخرى، فبرز في "المطر والبشر" كما ظهر في "الصور، الحصر، البصر"، وهذا الأثر الموسيقي أعطى للنص بعدا فنّيا جعل رسائل ابن عميرة تتميّز به عن باقي الرسائل المكتوبة في هذا العصر.

ومن الرسائل التي يكثر فيها هذا النوع من السجع رسالة ابن المرخي والتي يقول فيها: "وقد عنون هذا الفتح الجسيم على أن وراءه للموحدين-أعانهم الله- فتوحا تطرد وأيّاما على الأعداء تنسرد، وبشائر من أخواتها تتّحد ولا تنفرد"[1]نلحظ على هذا النّص انتهاء فواصله بلفظتي تنسرد وتنفرد ذاتا الوزن الواحد وعدد الحروف المتساوية، فحقّق الكاتب بهذا إيقاعا يجب العقول ويسحر القلوب.

لقد حقّق الكاتب الموحّدي -على العموم- بتوظيفه لأنواع الأسجاع المختلفة أعلى درجات البلاغة وأرقاها وأجلّها،وهو ما أدّى إلى "إيجاد نوع من الربط يقوم في حقيقته على مبدأ التّشابه والتماثل حين تلحق بعض المتماثلا أو المتشابهات من الأشياء ببعض، وذلك يسهم إسهاما كبيرا في دلالة النّص وإثارة ذهن المتلقي بم يمتلك من ذائقة جمالية وخبرات لغوية لتفسير البنية المتكرّرة، وبذلك يعمل على كشفها والتركيز عليها"[2].

[1] – أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة ، ج1، ص134.

[2] – خالد كاظم حميدي، السّجع في نهج البلاغة، دراسة دلالية وجمالية، بحث منشور على محرك البحث لا يوجد معلومات عنه ص132

➢ **الطباق:**

واحد من المصطلحات البلاغية الهامّة التي لا يكاد أي نصّ أن يخلو منها لما لها من دور كبير في توضيح المعاني وتوكيدها، فهو في اللغة "يدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطِّيه، ومن ذلك الطبق ... وطابقت بين الشيئين، إذا جعلتهما على حذو واحد"[1]ومنه قولهم "طبقات الناس مراتبهم.والسموات طباق أي بعضها فوق بعض والطبق الحالُ... والمطابقة الموافقة والتّطابق الاتّفاق ،وطابق بين الشيئيين جعلهما على حذو واحد وألزقهما"[2].

الطباق إذن هو الجمع بين المتضادّين، سواء أكانا"اسمين ،أو فعلين، أو حرفين"[3] مع مراعاة شرط مهم وهو"التّقابل فلا يجيء باسم مع فعل ولا بفعل مع اسم"[4].

أمّا في الاصطلاح ،فهو "فن كائن عند العرب، استخدم لديهم لتحسين الكلام ،أي الاهتمام بالجانب الشكلي ... ويدخل الطباق في جانب المحسنات البديعية"[5]والمطابقة له أنواع وأقسام منها: "حقيقي ومجازي ... وكلّ منها إمّا لفظي أو معنوي و إمّا طباق إيجاب أو سلب

[1]- ابن فارس ، مقاييس اللغة ،ج3 ،ص 439-440 .

[2]- الرازي ،مختار الصحاح ،تح :يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ،بيروت ،ط5 ، 1999 ،ص 163.

[3]- محمد التونجي ،المعجم المفضل في الأدب ،ج1،ص 599 .

[4]- الكفوي ،الكليات،ص 277 .

[5]- نصر الدين إبراهيم أحمد حسين ،علم البديع في ضوء القرآن الكريم ،دراسة بلاغية تحليلية ،مجلة الدراسات اللغوية ،الجامعة الإسلامية العالمية ،ماليزيا ،ديسمبر 2013 ، ع2، ص 133.

... ومنه يسمّى الطباق الخفي"[1]فالطّباق إذن باب من أبواب البديع المهمّة، التي اهتمّ بها النّقاد بما فيهم صاحب الوساطة.

للمطابقة في كتب النقد العربي القديم العديد من المفاهيم والتي تصبّ في مجرى التضاد والتقابل، ومن بين من تناول هذا المصطلح بالدّرس والشرح هو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه فللطباق في نظره "شعب خفيّة، وفيها مكامن من تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميّز إلّا للنّظر الثاقب، والذهن اللطيف"[2] وهذا أمر يصعب إيجاده وتحديده في الكلام بسرعة، إذ يحتاج إلى وعي القارئ الناقد، وتتطلب تخصّصه وسعة نظره وتأمّله.

والمطابقة لا تأتي في الكلام عبثا بل يقصد منها احتياج "الشيء إلى غيره فذكر لأجله، وربّما اتصل بما هو أجنبي منه فاسصتحبه"[3] أي أنّ المطابقة تأتي رغبة من الكاتب في التكنية بالشيء وعدم التّصريح به، فيذكر مقابلة لتوضيح ما غمض من الكلام، وبأضدادها يعرف الأجنبي من القول .

للطباق قسمين منه طباق السلب وهو أن تكون الكلمتين مختلفتين لفظا ومعنى، ومنه كذلك طباق الإيجاب وهو أن يورد الكاتب الكلمة ونفيها، وكلا النوعين وردا في الرسائل الموحّدية ومن طباق الإجاب قول أبو الحسن بن العياش عن عبد المؤمن بن علي ما نصّه: "فجاء رضي الله عنه على موافقة ما أخبَر، ومشاكلة ما أنبأَ، قائما في آخر الزمان وعند شمول

[1]- الكفوي ، الكليات، ص 845 .

[2]- القاضي الجرجاني ،الوساطة بين المتنبي و خصومه،ص 47.

[3]- المرجع نفسه، ص 48.

الضلالة وتلدّد الحيرة وتموُّج الفتنة وارتفاع العلم، واستحكام الجهل وفشوّ الظلم؛ ... وأراها عين اليقين من ظهور العلم وانبثاث العدل، والصدوع بالحقّ والجهاد لأهل الباطل"[1]، حشد الكاتب في نصّه هذا العديد من الكلمات المتطابقة مع بعضها البعض، فطابق بين العلم والجهل، وبين الظلم والعدل وبين الباطل والحقّ.

كما ورد طباق الإيجاب ضمن رسائل ابن المرخي، منهقوله: "الحمد لله الذي أيّد هذه الدعوة العلّية ونصرها وأعزّها وأظهرها، ورفع مقامها وأعلى مظهرها، ووهب لطائفتها المنصورة، وصاحبتها المبرورة، من إنجاده وإسعاده، ما سهّل مراماتهم ويسّرها، وساوى في تحقّق إنجاز وعوده، وتيقّن اتصال نصره العزيز على أحسن معهوده، مضمرها ومظهرها."[2]

ويقول كذلك في غير موضع "وأذلّها وقهرها، وأداها بعد الإباء والعناد، إلى الإذعان والانقياد، وصيّرها، والصلاة على محمّد المبتعث"[3]، ويقول "وألهم أهلها رشدهم وهداهم، وصرفهم عن غيّهم الذي استهواهم، بعد أن أسدّ في الضلالة مدلهم"[4]،فقد حضر الطباق بين :مضمرها ومظهرها، الإذعان والإباء، العناد والانقياد، رشدهم وغيّهم.ولعلّ ما ساعد الكاتب في توظيف هذه الكلم المتطابقة هما:طول الرسالة ومقدرته اللغوية.

[1] – ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّات الدولة المؤمنيّة، ص144-145.

[2] – المرجع نفسه، ص99.

[3] – المرجع نفسه، ص ن.

[4] – المرجع نفسه، ص 101.

أمّا الوجه الثاني من الطباق ألا وهو طباق السلب، نجده في العديد من الرسائل الديوانية وحتى الإخوانية، لكنّه يقلّ مقارنة بالنّوع الأوّل، ومثالنا على ذلك قول ابن عميرة في رسالته التي يشكي فيها سوء حظّه مع خطّتي الكتابة والقضاء بمدينة سلا: "فأمّا القضاء وهو ثاني الرّتبتين، وإحدى النّسبتين فقد خلعت الأولى لمطرفة، وبيعت الدرع في مخرفه، فكان التوسد لأرطاء...كلّ يطلب الحكم على هواه، والميل إليه عن سواه، ويقول مُخَالفي يجب أن يعصى، ومن أقصيته أنا كيف لا يقصى"[1] فطابق طباق سلبٍ باستعماله لا النافية في (أقصيته ولا يقصى).

وجد هذا النوع من الطباق في الرسائل الإخوانية الشعرية والتي يقول فيها ابن عميرة المخزومي:[2]

"عجبت لقلبي لِمَ لا يذوب وقل له أنه ذائب
وهب أنه جلدًا مروة أما يكسر المروة الضارب
أمن بعد خمسين مرّت سدى كما مرّ في عدّه الحاسب
أرجى حياة بلا شائب وكيف ولي مفرق شائب"

وهنا طابق بين (شائب ولا شائب) طباق سلب أكسب نصّه رونقا وحسنا.ومن الجدير بالذكر أن نقول بأنّ كتّاب الأندلس والمغرب العربي على العموم "كانوا من البراعة في الكتابة بحيث كانت رسائلهم تسع هذا التصنّع وما يشاكله دون أن يجور على إبداعاتهم

[1]- أبو عبد الله الخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص205.

[2]- المصدر نفسه، ص208.

الأدبية وحيويتها النافذة بما كانت تتوهّج به دائما من سجع ومحسنات وتصاوير رائعة مع العناية دائما بجمال الجرس وحسن الأداء"[1].

المبحث الرابع: الرسالة الموحّدية وعلم البيان:

1/ دراسة نقديّة لمصطلح البيان:

يعرّف البيان في اللغة على أنّه الأمر الجلي البارز، الظاهر والواضح يقال "فلان ذو بيان أي فصيح وهذا أبين من فلان أي أفصح منه وأوضح كلاما ... هو المنطق الفصيح المعبّر عمّا في الضمير"[2]فهو الكشف والتوضيح كما وصف بأنّه "ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها ، وبان الشيء : اتّضح فهو بين، ... والبيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو من حسن الفهم"[3]وعليه فالبيان في اللغة يقصد به كل لفظ بارز واضح يفهمه القارئ من دون صعوبة ولا معاناة .

أما من الناحية الاصطلاحية فنجده يعرّف على أنّه قسم من أقسام البلاغة العربية الثلاث إلى جانب علمي المعاني والبديع، إذ يضمّ كلا من التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، فهو علم يراد به "إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة لتوضيح المقصود ،وغرضه تحصيل ملكة الإفادة بالدلالة العقلية وفهمم مدلولاتها"4 فهو إذن علم يتوخّاه الكاتب من أجل توضيح

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص434.

[2]- محمد علي التهانوي ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون و العلوم ، ج1 ،ص 348 ، 349 .

[3]-أحمد مطلوب ،معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ، ج1 ، ص 406.

[4]- محمد التونجي ، المعجم المفصّل في الأدب ، ج1 ، ص 199 .

المعنى، والكشف عنه كشفا يجعل السامع يفهم المقصود ويعرف الحقيقة بدون عناء ولا كد ولا مجاهدة .

البيان من أكثر المصطلحات شيوعا في النقد العربي القديم فنجد القاضي الجرجاني يعرّفه بقوله: "حدّثني جماعة من أهل العلم ... عن يونس بن عبد الأعلى قال : سألت الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فقال : إني لأجد بيانها في قلبي ، ولكن ليس ينطلق بها لساني. وما أقرب ما قاله من الصواب وأخلقه بالسّداد !"[1]

يمكننا القول من خلال هذا النّص بأنّ مصطلح البيان لما ورد في كتاب الوساطة لم يرد ليقصد به صاحب الكتاب، علم من علوم البلاغة، بل ورد ليقصد به؛ النص الواضح الدلالة ، وهذا يدلّ على أنّ البلاغة في القرن الرابع الذي ظهر فيه هذا المصنف لم تنفصل بعد عن النقد، وأنّ الرّجل كان مهتما أكثر بالشّعر ونقده، فجعل البلاغة وسيلة يمتطيها النّاقد في سبيل الكشف عن القيم الجمالية والفنّية للشّعر، وإبراز حسناته وأخطائه.

والآن سنبحث في هذا الجزء عن الأقسام المكوّنة لهذا الفن، أي الاستعارة والتشبيه، ومدى تواجدها في الرسائل الموحّدية.

[1]- القاضي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه ،ص 357 .

2/تجليات البيان في الرسالة الموحّدية:

- **الصورة الاستعارية:**

حازت الاستعارة منزلة واضحة في الدراسات البلاغية العربية، فاهتمّوا بها من جانبها النظري وحتى التطبيقي، وخصّوها أجزاء معينة من مصنّفاتهم، وهذا الاهتمام راجع لدورها الفعّال في عملية الإبداع الشعري.

تعدّ الاستعارة من أهم فنون البلاغة، وهي من الأساليب التي يتوسّل بها الكاتب ناثرا أم شاعرا لتحسين أسلوبه، والرقي به وتجويده ،ولهذا نجد عددا من النقاد القدامى قد أولوها عناية كبيرة، وقد عرّفت الاستعارة على أنها "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللّغة على جهة النّقل للإبانة ... وكلّ استعارة فلا بدّ فيها من أشياء: مستعار ومستعار له، ومستعار منه."[1]

فالاستعارةّ إذن تشبيه حذف أحد أركانه لوجود قرينة مانعة من إيراد المعنى الحقيقي أو بعبارة أخرى "أن تريد تشبيه الشّيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتّشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبّه به فتعيّره المشبّه وتجريه عليه تريد أن تقول: رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوّة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: رأيت أسدا،"[2] فالاستعارة إذن تشبيه محذوف منه أحد أركانه الأساسية .

[1] – الرّماني، النكت في إعجاز القرآن ، ص 85، 86 .

[2] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط3، 1992 ، ص67 .

الاستعارة من المصطلحات التي اشتغل عليها العديد من النقاد على رأسهم القاضي الجرجاني في وساطته، فتكررت في أكثر من موضع من كتابه، وقد أكّد على أنّ الاستعارة "ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللّفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة."[1]

فالاستعارة عنده ما نقل فيه اللّفظ من موضعه الحقيقي إلى موضع آخر مجازي لهدف تقريب المعنى إلى القارئ بشرط أن لا يكون هناك منافرة بين المستعار له والمستعار منه لذلك تعدّ "أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوسّل إلى تزيين اللّفظ وتحسين النّظم والنّثر"[2] فهي غير مقتصرة على جنس أدبي معيّن، بل توظّف في سائر أصناف الكلام .

وإذا تتبعنا كتابات ابن الأبار[3] نجدها لا تخلو من هذه الصورة البيانية فيقول في إحدى نصوصه: "بشرى لتونس فكم للإمارة قبلها من يد بيضاء عوضت برد الظل من وهج الحرور،

---

[1]-القاضي الجرجاني،الوساطة بين المتنبي و خصومه، ص 45 .

[2]- المصدر نفسه، ص 355 .

[3]-"يعدّ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (595هـ- 658هـ) من أبرز علماء الأندلس في القرن السابع الهجري، ولد سنة 595هـ الموافق 1199م في بلنسية، نشأ في بيت علم وجاه، في كنف أسرة متدينة متحفّظة، حافظ للقرآن وتفاسيره، على علم كذلك بالحديث النبوي الشريف، أديبا، ناقدا، شاعرا، موسوعيا باختصار.تعلّم على يد ثلّة من العلماء نذكر منهم: أبي عبد الله بن نوح وأبي جعفر الحصّار، محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح البلنسي، القاضي أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي الأندلسي، كما أخذ الفقه والحديث عن أبي عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطي، وعن محمد بن محمد بن عبد

ويالَقصرَها السعيد، نعمت أدواحه وهبت على خضر الأغصان ورق الغدران أرواحه هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه، والجود الفضفاض ينقع فؤاده ويشفيه هنيئا للمسجد الجامع إن رويت جوانحه الصادية، وجمعت في شرعته السارية، والغادية، فها هو فجره بادئ الغرور والأوضاح"[1].

نجد في هذه التهنئة العديد من الصور البيانية ومن ذلك عبارة "بشرى لتونس" هنا جعل تونس كأنها إنسان تحمل له البشرى والأخبار السارة فحذف في هذه الجملة المشبّه به "الإنسان" وأبقى على ما يدلّ عليه من مثيل كلمة بشرى، على سبيل الاستعارة المكنية. وهنا وبهذا التشخيص أعطى لنصّه بعدا فنّيا جميلا، والكلام نفسه يكاد ينطبق على جملة "هنيئا للمسجد الجامع إن رويت جوانحه الصادية"، فالتهنئة تكون للإنسان لا للجماد، كما أنّ الكائن الحي هو الذي يتروى وليس الجماد، وبهذا كانت هذه الصورة "مأخوذة من البيئة المغربية، إذ إنّ تلك البيئة تتميّز بكثرة الأشجار والظلال، وهذا في سواحلها وتلالها، وجبالها وأنهارها، إضافة إلى

الله بن محمد بن أبي زاهر، كما أخذ التاريخ عن بن واجب القيسي وكذلك أبو سليمان داوود بن سليمان بن حوط الله الأنصاري، أمّا النحو والأدب فتعلمهما عن محمد بن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري وغيرهم الكثير. وافته المنية سنة 658هـ، فكانت له مشاركة في أصناف العلوم المختلفة، فخلّف بهذه المشاركة العديد من المصنّفات أشهرها: هداية المعترف – درر السمط في خبر السبط- أعتاب الكتاب – معادن اللجين في مراثي الحسين- تحفة القادم- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي- التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال- وغيرها الكثير". (للمزيد ينظر: شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار هنداوي، دط، دت، ج3، ص158-159-160/ الوافي بالوفيات، ج8، ص90/ سير أعلام النبلاء، ج6، ص472/الأعلام للزركلي، ج6، ص233).

[1] – الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج2، ص161 -162، نقلا عن: محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، ص64.

بعض الأجزاء المشكّلة لمنظر الجامع وإن كان هذا غير مكتمل، المهمّ في ذلك أنّ هذه الصورة مأخوذة من مكان خاصّ للعبادة عند المسلمين، وأنّ الصورة هنا مرئية وإن كان جانب منها مختلط بحاسّة اللمس"[1].

والاستعارة كذلك تحضر في قول ابن عميرة الوالي الذكر: "أخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقة، أبقى الله تعالى جلاله محروسا، وربع وفائه لا يخشى دروسا، من رباط الفتح وأنا بحقّه عليم، وعلى عهده مُقيم وشأني توقير له وتعظيم وحب فيه خالص كريم، ووصلني خطابه الخطير المبرور فكنت به كالصائم رأى الهلال، والهائم عاين الماء الزلال."[2]

ففي بداية النّص جعل الدهر في صورة الكاتب، وبهذا جعل التشخيص آلية من آليات تزيين الكلام وإخراجه في أبهى حلّة، هذا النّص ليس الوحيد الذي وجد فيه التشخيص بل وجدناه في رسائل إخوانية أخرى غير هذه، ومن ذلك رسالة المخزومي الوصفية التي وصف فيها رحلته إلى مدينة قسنطينة سنة647هـ، والتي يقول فيها: "ورأينا ذلك البناء وغن كانت صفحة بهجته تربت، والأيام عليه قد أكلت وشربت، عودا بجنبيه جلب، وطودا كلّ أمره عجب."[3]

من خلال هذا النّص يمكننا القول بأنّ ابن عميرة قد جعل من الاستعارة المكنية عنصرا أساسيا في رسائله الوصفية، وهذا راجع إلى أنّها تساعده كثيرا في تشخيص المناظر الطبيعية التي يرغب وصفها والحديث عنها، كجعله هنا للأيم كائنا حيا يأكل ويشرب.

---

[1] – الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج2، ص162.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص311.

[3] – أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص141.

➢ **الصورة التشبيهيّة :**

التّشبيه من أكثر المصطلحات البلاغية شيوعا عند علماء العربية بعامة ونقادها وبلاغييها بخاصة.إذ يدلّ في اللّغة على "مشاركة أمر لآخر في المعنى، فالأمر الأوّل هو المشبّه، والثاني هو المشبّه به، وذلك المعنى هو وجه التّشبيه، ولا بد فيه من آلة التشبيه، وغرضه والمشبّه، وفي اصطلاح علماء البيان : هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصاف الشئ"[1]

فالتّشبيه إذن كلّ كلام وضعه صاحبه لغرض إيراد شخصين أوشيئين أو غيرهما ممّن يشتركان في صفة معيّنة وهو من قول العرب "شبّهه إيّاه وبه مثّله ...ساوى بين شيء وشيء ..."[2]، وهو بهذا الكلام لا يخرج عن معنى المماثلة والمشاركة في أمر ما أو وصف من الأوصاف.

والتّشبيه في اصطلاح المثل السائر هو كلّ كلام ذكر فيه "المنقول والمنقول إليه معا ... فإن ذكر المنقول والمنقول إليه معا كان ذلك تشبيها."[3]

والمنقول هنا هو المشبه أما المنقول إليه فهو المشبّه به، فالتّشبيه إذن يختلف عن الإستعارة في ضرورة وجود وذكر أركانه الأساسية أي المشبّه والمشبّه به، في حين أنّ الإستعارة تكتفي بركن واحد إما المشبّه أو المشبّه به .

التشبيه إذن لون من ألوان التعبير وفن من فنون البلاغة وهو "العقد على أنّ أحد الشّيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسن أو عقل ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النّفس.فأما القول فنحو قولك: زيد شديد كالأسد فالكاف عقدت المشبّه به بالمشبّه وأمّا العقد

[1]- ينظر : الشريف الجرجاني ،التعريفات، ص 52.

[2]- أحمد رضا، متن اللغة ، ج3، ص 271.

[3] – ابن الأثير ،المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، ج 2 ، ص72.

في النّفس فالإعتقاد لمعنى هذا القول"[1]، هذا التعريف لا يبتعد كثيرا عن المعنى اللغوي لمفردة التشبيه ، فالتّشبيه بهذا المفهوم "لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تستوقفها الدواعي إليه"[2] فالتّشبيه إذن لا يذكره المتكلّم عبثا، بل لأنّه آثر إيجاز واختصار المعاني والتأكيد عليها والمبالغة فيها، إضافة إلى تبيين وتوضيح المعنى[3] والبعد عن المألوف المكرر المبتذل .

للتشبيه أوجه ثلاثة "فواحد منها تشبيه شيئين متّفقين من جهة اللّون؛ مثل تشبيه اللّيلة باللّيلة، ....والآخر تشبيه شيئين متّفقين يعرف اتّفاقهما بدليل؛ كتشبيه الجوهر بالجوهر ... والثالث تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه البيان بالسّحر، والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقّة المسلك"[4] هي أوجه ثلاثة للتّشبيه أجمع عليها عدد من النقاد، في حين وجدنا الرّماني في نكته يقول بوجهين فقط للتّشبيه هما "تشبيه شيئين متّفقين بأنفسهما، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما مشترك بينهما. فالأوّل كتشبيه الجوهر بالجوهر ...كتشبيه الشّدة بالموت"[5].

---

[1]- أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني و الخطّابي و عبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية و النقد الأدبي ، تح : محمد خالف الله أحمد ، محمد زغلول سلام، دار المعارف ، القاهرة ، ط 8 ، ص 80 .

[2]- علي الجندي ، فن التشبيه بلاغة أدب نقد ، دار النهضة ، مصر ، ط1 ، 1952 ، ج 1 ، ص 43.

[3]-ينظر :المرجع نفسه، ص 58، 66، 70، 75 .

[4] - أبو هلال العسكري ، الصناعتين الكتابة والشعر ، ص 240 .

[5]- الرّماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ص 81 .

ممّا سبق يتبيّن لنا أنّ صاحب النّص الأوّل- أي العسكري- قد أفاد من رأي الرّماني في هذا المجال، إلا أنّه أضاف وابتكر الوجه الثالث الذي لم يذكره الرّماني، كما نستنتج كذلك بأنّ نقدنا العربي القديم كان نقدا متواصلا. أحدهم يستفيد من الآخر استفادة حسنة فيضيف لها ويكسبها لمسة خاصّة به.

ومن الرسائل التي وجدنا فيها التشبيه رسالة عبد المؤمن بمناسبة مدينة تارودانت[1] يقول فيها: "ثم نزل الموحدون في وسط تارودانت، واستقروا بها ساكنين وهزموها وحرقوها وأطلقوا النار في القصب، إذ لا يقدر عليها من كثرته إلا بالنار، ونحن ننظر إلى الدخان قد علا وارتفع في الهواء، وتألف فصار كالسحاب المتراكم"[2]، ففي هذا النّص يظهر عنصر الخيال بشكل واضح وهذا من خلال تشبيه الدّخان المتصاعد إلى السماء بالسحاب المتراكم.

لقد كان الكاتب الموحدي الموحدي يجنح أحيانا إلى استخدام التشبيه المؤكّد، وهو ما تمّ فيه التمثيل دون أداة للتشبيه، هذا النوع هو الآخر له حضور قوي في الرسائل الموحّدية من ذلك ما كتبه عبد المؤمن بن علي إلى شعب كزولة إحدى القبائل المرابطية ينصحهم فيها بالدخول تحت لواء الدول الموحّدية، يقول فيها: "فإذا وصلكم كتابنا هذا فتأملوه وتفهّموه، فإنّ كلام المهدي —رضي الله عنه- نور وضياء، ورحمة وشفاء لما في الصدور، وهو كلّه حكمة وعلم

[1] - قرية صغيرة من قرى حاضرة السوس (ينظر: أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص51).

[2] - المرجع نفسه، ج 1، ص51-52.

وموعظة فإذا تأمّلتموه ينفعكم الله به"[1]، لقد شبّه عبد المؤمن بن علي كلام المهدي بن تومرت بذلك الصراج الذي ينير من استعان به في دربه، وفي هذا النّص يظهر الولاء والتعظيم لمؤسّس دولتهم من خلال الدعاء له، وحتى جعل كلامه كلاما صائبا، كلّه حكم ومواعظ.

ومن التشبيه كذلك قول ابن عميرة في إحدى رسائله الإخوانية: "أخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقة، أبقى الله تعالى جلاله محروسا، وربع وفائه لا يخشى دروسا، من رباط الفتح وأنا بحقّه عليم، وعلى عهده مُقيم وشأني توقير له وتعظيم وحب فيه خالص كريم، ووصلني خطابه الخطير المبرور فكنت به كالصائم رأى الهلال، والهائم عاين الماء الزلال"[2].

فعندما نلاحظ هذا النّص ونتأمّله، فإنّنا نلاحظ استعمال الكاتب لأداة التشبيه في موضع واحد فقط، وإذا ما رغبنا في تحليل هذه الصورة البيانية التي أُلّفت بواسطة أداة التشبيه الكاف، التي ربطت بين طرفين يشتركان في صورة واحدة، رغبة في توضيح الأفكار وتشخيصها وتأكيدها، أي أنّ الهدف من وراء هذا الجمع التمثيلي هدف توضيحي جمالي.

إنّ الكاتب أراد أن يصف حالته حينما تلقّى مكاتبات صاحبه الغائبة عنه لمدّة من الزمن، كالصائم حينما يرى هلال الإفطار، فيفرح بالعيد، وكالعطشان الذي يرى الماء الزلال أمامه، وهذا التصوير إن دلّ على شيء إنّما يدلنا على فرحته الكبيرة لما وصلته مكاتبات

[1] – قرية صغيرة من قرى حاضرة السوس (ينظر: أحمد عزاوي، رسائل موحّدية ، ج1، ص56.

[2] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص311.

صديقه، وقد وفقت الصورة التشبيهية هنا في سرد الواقعة الشخصية التي حدثت للكاتب مع زملائه، معتمدا في ذلك السرد على الزمن الماضي وهو الزمن المساعد في الحكي والقص.

والتشبيه يكثر في رسائل ابن عميرة الإخوانية، والدليل على ذلك قوله في رسالته الجوابية الإخوانية عن قصيدة كتب بها أبو سليمان الطرانتي[1]: "أيّها الأخ الخالص ودُّه، المتقادم عهدُه، أنسي وأوجه الأيام غرّ، وروضي والفجاج خضر لا غبر، ذكرتني زمنا ما كان أطوع عنانه، وأنظر أفنانه، ودّع توديع المفارق، وقضى كخطفه البارق"[2].

إنّ الملاحظ على هذا النّص وعلى الصورة التشبيهية التي حواها، نجد أنّ هذه الصورة قد عملت على تبسيط المعنى وتجليته، فقد أبرزت سرعة مرور الوقت كسرعة البرق، وفي هذا التشبيه حسرة وألم الفراق عن أصدقائه وأحبّته.

يتّضح لنا من خلال هذه الاستشهادات بأنّ للتّشبيه أثر عظيم في التعبير عن المعاني، ونقل الأفكار، وله أثر فعّال في النّفس البشرية، إذ له "وقع شاج يتغلغل إلى قرارتها ، ويهزّ أعمق أوتارها ، ويلمس مكان الطّرب والاستحسان منها"[3] ويمتع النفوس بالصور والأخيلة وتقريب

[1] – هو أبو سليمان داود بن الحسن الطرانتي نسبة إلى طرنتة حصن من عمل بلنسية، اشتهر بالشعر والتعلق بالأدب، كان من جلساء ومذاكري والد ابن سعيد المغربي (ينظر: أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص219، نقلا عن اختصار القدح، ص184).

[2] – أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص219.

[3] –علي الجندي، فن التّشبيه، ج2 ، ص 160 .

المعاني إلى الأذهان، من خلال توضيحها وتقويتها، لأنّ "الأمثال والتشبيهات إنّما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها، وتكشف عنها، وتصوّرها للأفهام."[1]،

كما يمكننا القول بأنّ الصور البيانية تعتبر واحدة من أهم الأساليب التي اهتمّ بها الكتاب الموحّدون أثناء تدوينهم لرسائلهم، فقد كانت هذه الصور في غالبها مستمدّة من البيئة التي يعيشون فيها، خادمة للغرض العام للرسالة.

وفي آخر هذا الجزء من البحث، نقول بأنّ الكُتاب الموحدون استفادوا أيّما استفادة من علم البيان بفروعه المختلفة في كتاباتهم على إختلاف أضربها، وبالخصوص الاستعارة منها والتشبيه، وما تحملاه من آليات التشخيص والتجسيم المختلفة، وهذا بجعل المعنوي صورة محسوسة مرئية، وبثّ الحركة والنشاط على الجماد.

يجدر بنا الإشارة إلى أمر مهم ألا وهو أنّ الرسائل الديوانية الموحّدية كانت تقلّ فيها الصور البيانية، وهذا راجع ربّما إلى جدّية الأغراض التي يناقشونها، كما أنّ كاتب الديوان الموحدي كان يلزم عليه تصوير الواقع تصويرا حقيقيا، ولهذا وجدناه يعتمد الأسلوب المباشر الحقيقي، ويبتعد كلّ البعد عن الصور البيانية والأخيلة القابلة للتأويل.

أمّا الرسائل الإخوانية فإنّ كُتّابها كانوا كثيرا ما يستعينوا بهذه الصور لتقريب الأفكار إلى الأذهان، ولا عجب في ذلك، لأنّ هذه الرسالة لا تفرض على صاحبها منطقا ولا منهجا دقيقا صارما، فهي رسائل شخصية خاصّة تقبل التخييل كيفما كان، عكس سابقتها.

[1]- الزمخشري، الكشاف، ج2، ص497

كما راح الكُتّاب يركزوا على هذه الصورة، لأنّ التشبيه يجعل من الجماد حيا ومن الحي جمادا، فيكون الكاتب بواسطتها حرّا، صاحب نظر وتفكير طويل، وهذا الأمر يمكّنه من إيصال الفكرة بوضوح إلى المتلقي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالتشبيه يرفع من شاعرية النّص الأدبي، ويزيد النّص جمالا، فيبرز للعيان الجودة الفنّية والصوغ البلاغي الراقي المتّبع من قبل كاتب هذه الرسالة.

المبحث الخامس: الرسالة الموحّدية وعمليتي التضمين والاقتباس:

1/ التضمين:

- **تضمين الأمثال العربية:**

يعتبر المثل فنا من فنون النثر التي عرفها العرب منذ الأزل، فهو قول محكي يدور على الألسنة، يمتاز بقوّة العبارة، وإيجاز اللفظ، وثراء المعاني ودقّة التشبيه، وهو بعبارة أخرى قول موجز يتضمّن فكرة دقيقة صائبة، رائعة التصوير، له مورد ومضرب، أمّا المورد فهو القصة أو الحادثة التي ورد فيها، غير أنّ المضرب فهو الحالة التي يستخدم فيها.

لقد أعجب كتّاب الدولة الموحّدية أيّما إعجاب بالأمثال العربية فراحوا يضمنونها في رسائلهم، وذلك حسب ما يتماشى وغرض الرسالة، وما يتناسب وسياقها وظروفها الخاصّة، فكانوا يقومون بهذا للتدليل والتأكيد على ما يعبّرون عنه من أفكار ومعان هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يبرزوا للمتلقي مقدرتهم اللغوية ومدى إبداعهم وتميّزهم عن غيرهم من الكُتّاب.

ومن الأمثلة على ذلك قول عبد المؤمن بن علي في رسالته الموجّهة إلى الموحدين حتى يطلب منهم تجديد الطاعة له، وهذا بعد الثورة على الماسي وقتله، كما وجّهها لهم ليقدّم إليهم مجموعة من الأوامر من مثيل عدم تطبيق حكم الإعدام دون أخذ شوره، والتي يقول فيها : "من الحضرة العلية بتنملل –حرسها الله تعالى– في السادس من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وقد وصلنا –والحمد لله– وجناح الرّحمة مخفوض، وطرق المكاره مغضوض، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض، وشأن الظلم –بإذن الله تعالى– مكفوف مقبوض، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض"[1]وعبارة "الحق أبلج" مأخوذة من المثل العربي القائل "الحقُّ أَبلَجُ والباطلُ لجَلَجٌ"[2]والذي يعني أنّ الحق واضح منكشف، وأنّه مهما طال ظهوره فإنّه سيتحقّق ذلك لا محالة.

لقد وجد الكُتّاب غايتهم ورغبتهم، فاستغلّوا هذه الأمثال في تركيبهم لرسائلهم، ومن الأدلة على ذلك رسالة ابن عميرة المخزومي الطويلة، ذات البراعة والحسن في التأليف، والتي بعث بها إلى أبي زكرياء الحفصي سنة 646هـ[3]، يقول فيها: "فعرف القوم له صحّة الحجّة، ووضوح المحجّة، وأجمعوا على أنّه لا تشتبه الأقوال والأفعال، ولا تستوي القلانس والنّعال، ومن يشكّ في أنّ السماء محلّ الدّراري، ولبن السّماء هو ابن الحواري، بل من يقرن قوّة الملك لضعف

[1]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص 62.

[2]– أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تح: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج1، ص294.

[3]– ينظر: أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص319.

العواري، ويقوّم الدّيباج بقيمة البواري، والمعالي تلد الرجال والولد للفراش، والحق كالشمس إنّما يخفى على مثل أعين الخفّاش."[1]

يشير في هذا النّص إلى المثل النبوي القائل "الولد للفراش وللعاهر الحجر"[2]والذي يضرب لمن يرجع خائبا باستحقاق.

ومن الرسائل التي وجدنا فيها الأمثال العربية ما جاء في مكتوب ابن عميرة المخزومي الذي وجّهه إلى أبي جعفر بن أمية، حين سقطت بلنسية في أيدي النصارى "عامت من الظلمة في موجها، ثم غلبت الشُهب على أوجها، فقلب العقرب يَجب، وسُهيلُ بداره يحتجب، والطرف غضيضُ، وجناح الطائر مهيض، وصاحب الأخبية يقرض، والذابح من ذبيحته يعرض...إنّ من البيان لسحرا، ويا أيّها الجواد وجدناك بحرا"[3]

وفي هذا تضمين لقول الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– "إنّ من البيان لسحرا"[4]والذي يعني أن بعض الكلام يسحر العقول والألباب، لأنّ البيان يجمع فنون البلاغة والفصاحة، أمّا السحر فيعني إبراز الباطل في صورة الحق[5].

---

[1]– أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية ، ص336.

[2]– الميداني، مجمع الأمثال، دار المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، دط، 1399هـ، ص423.

[3]– المقري، نفح الطيب، تح: إحسان عباس، ج1، ص306.

[4]– أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تح: أحمد عبد السلام، ج1، ص18.

[5]– ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص18-19.

– تضمين الشعر العربي:

تعدّدت وتنوّعت الروافد الأدبية التي استعان بها الكاتب الموحّدي في رسائله، فضمّن المثل، كما ضمّن الأشعار العربية.

إنّ تضمين الأشعار العربية قد برز في الرسالة الموحّدية بشكل لافت للنظر، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّنا على سعة إلمام الكاتب بهذا الإرث العربي الهام.

وحضور الشعر في الرسائل على اختلاف أغراضها أمر طبيعي، لأنّ النقاد القدامى قد جعلوا من الشروط الأساسية للكاتب "حفظ أشعار العرب، ومطالعة شروحها، واستكشاف غوامضها والتوفّر على ما اختاره العلماء منها، كالحماسة، والمفضليات، والأصمعيات، وديوان الهذليين، وما أشبه ذلك، لما في ذلك من غزارة المواد، وصحّة الاستشهاد، والاطلاع على أصول اللغة، ونوادر العربية، فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ ذلك وتدبّر معانيه سهل عليه حلّه، وظهرت له مواضع الاستشهاد به، وساقه الكلام إلى إبراز ما في ذخيرة حفظه منه، ووضعه في مكانه ونقله في الاستشهاد والتضمين إلى ما كأنّه وضع له."[1]

وكان لهذا الأمر أثره الواضح على الرسالة الموحّدية، فبهذه الشروط بلغ الأديب بكتاباته درجة الجودة والإتقان.

[1] – شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي ملحم، دط، دت، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، ص29.

والتضمين قد جاء على عدّة أشكال منها تضمين البيت كاملا ومن الأدلة على ذلك رسالة أبي المطرف يهنئ فيها ابن هود، فيقول في ذلك: "والكريم النسب نسبته يُباهي وتُزهى السيوف:

فـــإن نحـــن سَمَّينـــاك خِلنـــا سُـــيوفُنا مِـــنَ التَّيـــهِ في أَغمَادِهَـــا تَتَبَسَّـــمُ"[1]

هذا البيت مأخوذ من شعر المتنبي.[2]

والطريقة نفسها نجدها في رسالة ابن سعيد لعبد الواحد الموحدي*، حينما هنّئه بالخلافة فيقول:[3]

أتَتـــــه الخلافـــــة مُنقـــــــادةً إليـــــه تجـــــرّرُ أذيـــالهـــــــا

فلَـــــم تـــــكُ تصـــــلح إلّا لـــــهُ ولم يـــــكُ يصـــــلح إلّا لهـــــا

هيأبيات تهنئة، كتب بها الشاعر إلى الخليفة المهدي بمناسبة تولّيه الخلافة،[4] وقد ضمّنها من شعر أبي العتاهية، وهنا يمكننا القول بأنّ ابن سعيد كان ذكيا في تضمينه لهذه الأبيات وفق ما يخدم غرضه ألا وهو التهنئة.

[1] – المقرّي، نفح الطيب، تح: يوسف الشيخ محمّد البقاعي، ج1، ص253

[2] – ديوان المتنبي، دار بيروت للنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص305.

* – ملك المغرب أبي محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب ابن عبد المؤمن، (ينظر: المقري، نفح الطيب، ج2، ص362).

[3] – المقري، نفح الطيب، ج2، ص362.

[4] – يتظر: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965، ص 612.

وقد كان تضمين البيت كاملا حاضرا في الرسائل الجوابية، ومن الأدلّة على ذلك الرسالة الجوابية للمنصور والتي ردّ فيها على الأذفونش الفُنشُ، يقول فيها:[1]

فـــلا كُتـــبٌ إلّا المشـــرفيةُ والقَنـــا ولا رُسُـــلٌ إلا الخمـــيس القَرَمـــرَمُ

وهذا البيت مضمّن من أشعار المتنبي.[2]

لقد جنح هؤلاء الكُتاب إلى تضمين الأشعار في رسائلهم بغية تأكيد الأفكار التي يتناولونها، إضافة إلى رغبتهم الكبيرة في تركيز وتكثيف معانيهم في جمل قليلة، تغنيهم عن التفصيل في القول، وقد كانت ظاهرة تضمين الرسالة بعضا من الشعر "دالة على عزمهم في إبراز فنونهم وتفوقهم على نظرائهم في المشرق، وتدلّ أيضا على تقديرهم لأدب المشارقة على اختلاف عصورهم وأقطارهم، لقد أظهروا براعة في مزجهم الشعر بالنثر لا يقدر عليها إلّا نفوسٌ خُلقت شاعرةٌ بفطرتها."[3]

أما الطريقة الثانية لتضمين الأشعار والتي وجدناها تتكرّر في الرسائل الموحّدية هي؛ تضمين الشطر من البيت فقط، ومن ذلك ما وجدناه في رسالة ابن سعيد السابقة "وأصاخوا لتاليها إصاخة المجدبين لمرتادهم، وأهطعوا لها مُهَللين ومكبرين إهطاع الناس لأعيادهم، وأمّا

[1] – المقري، نفح الطيب، ج3، ص102.

[2] – ديوان المتنبي، ص612.

[3] – رضا عبد الغني الكساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، ص 206-207.

العبد فقد أخذ بحظه، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه: ومن فرح النفس ما يقتل."[1]

فجملة "ومن فرح النفس ما يقتل" هي في الحقيقة مأخوذة من بيت المتنبي القائل:[2]

فَـــلَا تُنكِـــرَنَّ لَهَـــا صَـــرعَةً فمنفـــرح الـــنَّفس مـــا يَقتُـــلُ

ومن النصوص المضمّنة للشعر تضمينا جزئيا ما جاء في رسالة وصفية لمنطقة قرطبة فقال: "فنظرتها قرطبة شرزا وقالت: لقد أكثرت نزرا وبذرت في الصخر الأصم بزرا، كلام العدا ضربٌ من الهذيان"[3] وقد أخذ هذا من قول المتنبي:[4]

ولله ســـــرٌّ في عُـــــلاكَ وإنمـــــا كـــلامُ العِـــدَا ضَـــربٌ مِـــنَ الهَـــذَيَانِ

فزاوج الكاتب بين الشعر والنثر مزاوجة فيها إتقان وبراعة حتى يصعب على القارئ أن يميّز بين الأصلي والنص الوارد إليه المتداخل معه.

من خلال هذه الاستشهادات يمكن لنا أن نرى بأنّ عملية تضمين الأشعار العربية للرسالة الديوانية أو الإخوانية عموما دليل كبير على قدرة كُتّاب هذه الدولة على الجمع بين الأجناس الأدبية، ولا عجب في ذلك إذا كان كِبار كُتّاب الدولة الموحّدية هم أنفسهم من أفضل وأكبر الشعراء كابن الأبار، وصفوان بن إدريس، و ابن عميرة المخزومي، وغيرهم كثار،

[1] – المقري، نفح الطيب، ج2، ص364.

[2] – ديوان المتنبي، ص306.

[3] – المقري، نفح الطيب، ج1، ص171-172.

[4] – ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح: أبي البقاء العَكبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، دط، دت، ج4، ص242.

فقد دوّنت لهم المصادر عدّة قصائد تثبت ذلك، ولعلّ خير شاهد على ذلك رسالة ابن عميرة المخزومي الشعرية في رثاء الفقيه والخطيب المحدّث أبي الربيع بن سالم، وهي رسالة تضمّ تسع وثلاثين بيتا، نختار منها البيتست التاليين:[1]

ألا مسـعدٌ أو ألا صـاحب الـذي نصـبٍ همّـه ناصـبُ
يطارحـه شـجوُ ذي عـبرةٍ لهـا أبـدا عـارض سـاكبُ

أمّا الآلية الأخرى للتضمين، فهي تضمين المعاني الشعرية ومن ذلك ما كتبه ابن عميرة في رسالته إلى ابن الأبار حين اشتكى له سقوط بلنسية في أيدي العدو:[2]

تغـير ذاك العهـدُ بعـدي وأهلـه ومـن ذا علـى الأيـام لا يتغيّـرُ

وقد أخذ معنى هذا البيت من قول الشاعر كثير عزّة:[3]

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عزُّ لا يتغير

كما لا يفوتنا أن نذكر قول ابن عميرة في تهنئة ابن هود، حينما قال: "وشرف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء، وابن عمّ سيّد الرسل وخاتم الأنبياء، والعبيد يهنئون بهذه

[1]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص207-208.

[2]- المقرّي، نفح الطيب، ج5، ص380

[3] - المصدر نفسه، ص ن.

النِّعم، التي لا يستقلُّ بذكرها قَلَم، ولا يُقطع عَلَمٌ من وصفها إلَّا بدا عَلَم"[1]، فقد ضمّن هذا المعنى من قول جرير:[2]

إذا قطعـــن علمًـــا بـــدا علـــم حـــتى تنـــاهين بنـــا إلى الحكـــم

وفي آخر هذا المبحث ما عسانا إلاّ القول بأنّ عملية المزاوجة بين الشعر والنثر في الرسالة الموحّدية، هي محاولة لفت انتباه القارئ، وجعله يركّز فيما يتلقّاه من نصوص، فقد تمكّن كُتّاب الدولة الموحّدية بتضمينهم الشعري تحريك عواطف المتلقي وأحاسيسه، وصيّروا المنظوم خادما لنثرهم، فطوّعوه وجعلوه يتماشى مع أغراضهم ومضامينهم التي يريدون مناقشتها.

كما يمكن القول بأنّ سبب هذا التضمين للأشعار المشرقية، يعود إلى تقدير الكتاب الموحدون للعلماء والشعراء المشارقة، وإعجابهم الكبير بما كتبوا من أشعار هذا من جهة، ومن جهة أخرى رغبتهم في تكثيف وتركيز عواطفهم، فالشعر كان الملاذ لهم للتّعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم.

-تضمين الأحداث التاريخية والأعلام المشهورين في الرسالة الموحّدية:

غلب على الرسالة الموحّدية مجموعة من أساليب التضمين الهامّة، لعلّ من بينها، تضمين التاريخ العربي وما يحويه من أحداث ووقائع هامّة، وكذا الوقوف عند أهمّ الأعلام

[1] - المقرّي، نفح الطيب، ج1، ص253.

[2] - المصدر نفسه، ج1، ص 25.

المشهورين والتلميح لهم، وهذا رغبة من الكاتب في أخذ العبرة، واستنتاج الحكمة من هذه الأحداث المختلفة، وقد يعود اهتمامه بتضمين الأحداث التاريخية إلى الأهمّية الكبيرة التي يحوزها هذا الفنّ—أي فنّ التاريخ–، فهو "للزمان مرآة، وتراجم العلماء للمشاركة في المشاهد مرقاة، وأخبار الماضين لمن عاقر الهموم ملهاة"[1] وفائدة التاريخ لا تخفى على العيان فهو "موعظة وعلما، وهمّةً تُذهب همّا، وثباتا يزيل وهنًا، وصبرا ينعته الناس بمن مضى، واحتسابا يوجب الرضا بما مرّ وحلا من القضا"[2].

يعتبر تضمين التاريخ وما يحويه من أحداث وشخصيات بارزة ورموز دقيقة، صورة من صور التناص والتّداخل النّصي في النقد الحديث، فالكاتب كما نعلم لا يكتب من فراغ بل يكون قد شكّل هذه الأفكار من أرصدة لغوية وفكرية كان قد شكّلها من مطالعاته السّابقة.

فتضمين التاريخ يقصد به عملية "تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النّص الأصلي، وتبدو مناسبة ومنسجمة لدى المؤلّف مع السياق الشعري أو الحدث الذي يرصده ويسرده، وتؤدي غرضا فكريا أو فنّيا أو كليهما."[3]

[1]– جلال الدين السيوطي، نظم العِقيان في أعيان الأعيان، تح: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، دط، دت، ص5.

[2] – جلال الدين السيوطي، نظم العِقيان في أعيان الأعيان ، ص 5.

[3]– ظاهر محمد الزواهرة، التناص في الشعر العربي المعاصر التناص الديني أنموذجا، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص60.

نفهم من خلال هذا النّص بأنّ التضمين التاريخي عملية يشترط فيها أن تكون دالة قدر الإمكان على الفكرة التي يناقشها الكاتب أو الشاعر –على السواء– في أعمالهم الأدبيّة وخادمة لأغراضهم، أو دالّة كذلك على الهيئة التي يصفها ويجسّدها في عمله.

والكاتب الموحدي لجأ إلى هذا الضرب من التضمين ليعطي لنصّه "تمازجا ويخلق تداخلا بين الحركة الزمانية حيث ينسكب الماضي بكلّ إثارته وتحفزاته وأحداثه على الحاضر بكلّ ما له من طزاجة اللحظة الحاضرة، فيما يشبه تواكبًا تاريخيا يومئ الحاضر فيه إلى الماضي، وكأنّ هذا الاستلهام يمثّل صورة احتجاجية على اللحظة الحاضرة التي تعادلها في الموقف اللحظة الغائرة في سراديب الماضي."[1]

فالكاتب لا يضمّن نصّه الأحداث التاريخية كلّها، بل يتخيّر منها ما يخدم غرضه ومضمونه، فيختار منها ما يعطي لنصّه حركة وإشعاعا وحيويّة، فيعيد إدخالها ودمجها في نصّه لتتناسق وتتآلف مع ما يخدم تجربته الأدبية، ليستشرف المستقبل ويتأمّل فيه تأمّلا حدسيا، وفي الوقت نفسه يبرز للمتلقي تمسّكه بماضيه.

إنّ تضمين التاريخ عملية صعبة نوعا ما، تعود صعوبتها إلى كيفية اكساب النّص القديم ثوبا جديدا، وروحا وبعدا دلاليا جديدا، بحيث يصبح والنّص الجديد كأنّهما جسدا واحدا، كما أنّ هذه العمليّة تتطلب من صاحبها ثقافة واسعة، ونضجا لأفكاره، وعمقا لإرثه اللغوي والفكري وتنوّعه.

[1]– رجاء عيد، لغة الشعر قراءة في الشعر العربي المعاصر، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت، ص201.

فمن صور استلهام التاريخ تضمين الكاتب للأحداث التاريخية المشهورة، ومن هذا ما قام به ابن عميرة في رسالته الإخواني إلى أحد أصدقائه، وفيها يقول: "وقد عاد الدين إلى غربته، وشَرِقَ الإسلام بكربته، كأنّ لم يسمع بنصر ابن نُصير، وطَرْق طارق بكل خير، ونهشات حنش وكيف أعيت الرُّقى، وأدالت بليل السّليم يوم الملتقى".[1]

وقد أشار ابن عميرة هنا إلى فتح طارق ابن زياد لبلاد الأندلس، كما لمح كذلك إلى الدور الذي لعبه الخلفاء الأمويين في سبيل منع الزحف النصراني للبلاد العربية وهذا ما أوضحته عبارة "ونهشات حنش وكيف أعيت الرُّقى"[2] فقد كان حنش بن عبد الله الصنعاني من التابعين لعلي بن أبي طالب، وعلما من أعلام الدولة الأموية البارزين.

بعد سقوط دولة الموحدين وتولي الحفصيين للحكم، أصبح ابن عميرة يكتب لهم، لكنّه لم ينس مآثر شيوخه، وانتصارات سلفه من الموحدين على النصارى، كما أنّه لم ينس الدور الكبير الذي لعبه الموحدون في سبيل الحد من زحف النصارى نحو البقاع العربية، وهذه الأحداث راح يضمّنها في إحدى رسائله الموجّهة إلى مؤسّس الدولة الحفصية ببلاد تونس، أبي زكرياء بن عبد الواحد، وفيها يقول:[3]

إنّمـــا آل أبي حفـــص هُـــدًى ... للـــورى مـــن غائِـــبٍ أو شـــاهد
قعدوا فوق النجوم الزُهر عن ... همٍ نبَّهن عزم القاعـــدِ
وعن الإسلام ذادوا عندمـــا ... فلّ طول العهد غَرْبَ الذائِد

1 – المقري، نفح الطيب، ج1، ص307.
2 – المصدر نفسه ، ج1، ص307.
3 – المصدر نفسه، ج1،ص 309.

أيُّ فخرٍ عمريَ المنتـــمي ورِثوه ماجدا عن ماجـــدِ
ما الفتوحُ الغرُّ إلّا لهـــم بين ماضٍ بادىءٍ أو عائـــدِ
في مُحيّا لاحق من سابـــق وعلى المولود سيما الوالـــدِ
وليَحـــيَ راجـــحُ الحِلـــم الـــذي تَـــرَكَ الطَّـــوْدَ بعطفـــي مائـــد

إنّا نلحظ على هذه الأبيات التمجيد والولاء الكبير الذي يكنّه ابن عميرة لشيوخه من الموحدين، لدرجة جعله لأحداثهم عبرة للأمم التي ولتهم وخلفتهم.

ومن أوجه تضمين التاريخ كذلك، ذكر الكاتب للأنساب عند ذكره للمرسل والمرسل إليه في مقدمة رسالته، مثل: "من أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين أيدهم الله وأمدهم بمعونته، إى الشيخ الأجل الأعز الأكرم أبي إسحاق بن سيدنا الإمام أمير المومنين بن سيدنا أدام الله توفيقه وكرامته بتقواه".[1]

وقولهم كذلك "الشيخ الأجل الأعز الأكرم الأسنى الولي الأثير الأود الأخلص الأزكى الأفضل أبو سعيد بن الشيخ الأجل أبي محمد بن الشيخ الأجل المرحوم أبي إسحاق، أدام الله عزته"[2]، واستحضار الأنساب رآه القدماء شرطا ضروريا وجب على الكاتب أن يكون ملما به.

لم تكن عملية تضمين التاريخ تقوم فقط على ذكر الأحداث المشهورة بل تعدتها إلى استلهام الشخصيات المشهورة سواء أكانت سياسية أو أدبية كالشعراء والكتاب كقول ابن عميرة: "ووصلني فيها خطابه الخطير المبرور، فكنت به كالصائم رأى الهلال، والهائم عاين

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص329.
[2]- المرجع نفسه، ج1، ص316.

الماءَ الزُلال، عِلقٌ ليس يوازيه علق، وسحر لكنه حلال طِلق، ونظم لذكر الطائي طاوٍ، وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راوٍ، رمت ابن الروميّ بالخمول، وبَشَرت اسم بَشار من الفحول، وحكمت بأنّ النمريّ في نَمِرَة الهوان مُدرج، والسريّ عن سراوة الإحسان مُخرَج، غادر الصابيَّ وصَباه غير ذات هبوب، والصاحبَ وهو من العجز مع شرّ مصحوب، والميكاليَّ وميكالُه مرفوض، والحريريَّ وحريره في سوق الكساد معروض، فأمّا بحر رئيس أرّجان، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان...ونشرت المقابرَ عن الصَّنوْبري وكُشاجم".[1]

إنّ هذا النّص يعجّ بالشخصيات الأدبية البارزةالحريري والصنوبري ابن الروميّ وبشار بن برد والصاحب بن عبّاد والميكاليّ، فقد نجح صاحبها في دمجها مع نصّه دون أن يحدث به خلل أو شرخ واضح للعيان.

لقد أكثر ابن عميرة من تضمين الشخصيات التاريخية في رسائله، وهذا راجع إلى أنّه كان ممن اهتمّ بالتأليف في هذا الجانب، فمن كتبه "تاريخ ميورقة"، الذي أثبت فيه للعيان عن قدرته الكبيرة في التأريخ، فابن عميرة كان فقيها كاتبا أديبا مؤرخا، ففي إحدى إوانياته وجدناه يقول: "وقد عاد الدين إلى غربته، وشَرِقَ الإسلام بكربته، كأنّ لم يسمع بنصر ابن نُصير، وطَرْق طارق بكل خير، ونهشات حنش وكيف أعيت الرُقى، وأدالت بليل السّليم يوم

[1]- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص311-312.

الملتقى"[1] وقد استلهم هنا شخصية سياسية بارزة لها دورها الكبير في بناء جامع قرطبة والجامع الكبير في سرقسطة، وهو حنش بن عبد الله الصنعاني، كان من التابعين لعلي بن أبي طالب.

لم يتوقف استلهام وتضمين التاريخ عند هذا الحدبل راح بعضهم يستحضر شخصيات دينيّة كاستحضارهم الرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته، والرسول صلى الله عليه وسلم بات من أكثر الشخصيات توظيفا، وهذا راجع إلى رغبتهم في نصح الناس وتوجيههم إلى الطريق الصائب وجعل الرسول صلى الله عليه وسلّم قدوة لهم يلتزمون بالإهتداء بها، أو حتى ليرهّب الناس ويذكرهم بحتمية الموت، وتهويلهم من جهنّم وعذابها.

ومن أمثلة الرسائل التي استلهم الكاتب فيها شخصية الرسول –صلى الله عليه وسلم– قول ابن عميرة في رسالته الوصفية لرحلته من سبتة إلى بجاية سنة 646هـ[2]، وفيها يقول: "نحمد الله على نعم هي بين حاضر مُوات، وغائب لا يُدرى متى هو آت، ثم إذا شاء سبحانه أطلعها والأمل قد نكس رأسا، وانقلب بأسًا، فأطلقت عقلة عنانه، وحلّت عقدة لسانه، ودعمت ما تداعى من بنياته، وصلوات الله التمة على أشرف الخلق محتدا، وأصدقهم موعدا، وأطهرهم مولدا وموردا، محمد رسوله الذي أودعه وحيه".[3]

إنّ الكاتب لا يستحضر التاريخ لمجرّد استحضاره فقط في النّص، بل يذكره من أجل إعطاء نصّه أدلة واقعية تجعل المتلقي يستقبل الكلام ويستسلم له استسلاما تامّا، كما أنّ

[1]– المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص307.

[2]– أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص351.

[3]– المصدر نفسه، ص351.

تضمين الأحداث التاريخيّة وما يحمله هذا التاريخ من شخصيات مميّزة يكسب التجربة الأدبية شمولا وسعة، ودقّة، وبعدا وأصالة.

كما وجدنا الرسائل الوصفية تزخر بمثل هذا التوظيف التاريخي، فرسالة ابن عميرة المخزومي التي وصف فيها مدينة قسنطينة دليل على ذلك، ففيها سرد رحلة ذهابه من ولاية بجاية إلى قسنطينة، ووصف ما وقعت عليه عيناه من مناظر خلابة تسحر العقول، فراح يعتمد على التأريخ في هذا الوصف بغية اكساب نصّه سمة فنّية وجمالية رائعة، كإشارته لعظمة البناء في قسنطينة فراح يشبّه هذه العظمة بإيوان كسرى العظيم، وفي هذا يقول: "وقسنطينة مدينة عتيقة، وعقيلة في قصائر القياصر عريقة، وفيها كلّ آية بنيت بريعها، وصنعة حبيت ببديعها، وكلّ أثر لا يدري أأيدِ بنت الإيوان صنعته، أم جنّ سخّرت لسليمان اخترعته"[1]، وبعدها راح يثبت أقدمية قسنطينة من الهرمين المصريين، هذا حينما قال بأنّ الهرمين بنيا من أنقاض جسور قسنطينة.[2]،

وفي هذا الأمر يقول: "حتّى كأنّ صخر تدمّر من فضلها جُمعَ، وبناء الهرمين على شكلها صُنع، وحتى كأنّ الأيّام وفت لها على خلاف عادتها، وأرادت أن تبلغ بها أوان سعادتها، وذلك لأنّ تبوّأ المولى منزلها مناخا بذي طواه، ومستقرا لإجمام قواه، واختار هواءها الخالص من الأقذاء وماءها المصلح للغذاء" وهذا الحكم خرج به ابن عميرة لإعجابه الشديد

[1]- الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج2، ص154.
[2]- المرجع نفسه، ج2، ص154.

وولعه بما رأت عينه، فإنّ الإعجاب الشديد أحيانا يذهب العقول، فيترك العنان لما تقوله القلوب وهذا حتما ما قام به ابن عميرة في رسالته هذه.

كما راح يشبّه جبالها الشاهقة بجبل أحد وببلاد لبنان، وهذا حينما قال: "وسرنا ذلك اليوم في جبال أبانيّة، وعقاب لبنانية، ومنها واحدة كؤود سمعناهم يذمونها، وبصدر العروسة يسمّونها،...حمدنا الله الذي منها أنجانا، واحتملنا لها ما وجدنا من رجانا، ثم انتهينا إلى ثنية تشرف على جبل على البلد قد احتضنه، وفيه يقال أنجد من رأى حضنه، فعرا الرّكب فرح وجذل، وذكروا قوله عليه السلام أحد جبل".[1]

إنّ هذه الرسالة الوصفية من أهمّ الرسائل التي وصلتنا، ترجع أهميتها إلى ما تحمله من أحداث تاريخية، يستفيد منها الباحث عن تاريخ مدينة قسنطينة، رسالة ذات أسلوب أدبي فني رائع، كما تبرز لنا تلك الثقافة التاريخية الكبيرة التي يحملها ابن عميرة المخزومي.

2/ الإقتباس:

-الإقتباس من القرآن الكريم:

تعدّ الرسالة الموحّدية على اختلاف أضربها صورة واضحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لتلك الدولة، فقد وجدناها تحمل العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ذلك أنّ أساس الدولة كان دينيا محضا ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[1] - أبو عبد الله محمّد اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص143.

فالاقتباس ظاهرة أدبية ذات"أًصل صحيح يدلّ عل صفة من صفات النار"[1]والقبس "شعلة النار "[2]ومنه "أقبست الرجل علما"[3] أي نهلت وأخذت منه واستفدت.

أما في الاصطلاح فهو سمة أسلوبية، تقوم على أخذ أجزاء من القرآن الكريم إلى النص الجديد المبتكر، إما نقلا تاما حرفيا أو ناقصا متصرفا فيه، تصرفا لا يخل بقدسية النّص الديني، بطريقة محكمة مضبوطة، بحيث لا تُترك للقارئ فجوة أو مساحة يشعر فيها بذلك الأخذ، أي أن يندمج النص القرآني مع النص الجديد اندماجا يخدم غرضه ويتناسب ويتآلف معها.

وهو بعبارة أخرى "تضمين الشعر أو النثر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف من غير دلالة على أنّه منهما، مع جواز بعض التغيير غير المخل في الأثر المقتبس"[4]وهنا وجب على الناثر أو الناظم أن لا يذكر ألفاظا تدلّ على ذلك الأخذ، لأنّه إذا ما ذكرها يعدّ النصّ المأخوذ استشهادا وليس اقتباسا.

والاقتباس عند المحدثين وجها من أوجه التناص بلجزءالا يتجزّأ منه، فهو "في أبسط صوره يعني أن يتضمّن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء لدى الأديب، بحيث تندمج

---

[1] – أبو الحسن أحمد بن زكريّا ابن فارس(ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،مصر، د ط ، دت،ج5، ص48.

[2]– المصدر نفسه، ج5، ص 48.

[3]– المصدر نفسه، ج5، ص ن.

[4]– عبد الهادي الفكيكي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، دار النمير، سوريا، ط1، 1996، ص12.

هذه النصوص أو الأفكار مع النّص الأصلي، وتدمج فيه لتشكّل نصّا جديدا واحدا متكاملا"[1]حيث يتعسّر على المتلقيالتفريق والفصل بين النص الجديد والنّص المقتبس، وهذا لا يتأتى إلا للذي يملك زادا لغويا.

وقد طغت ظاهرة الاقتباس على رسائل الموحدين ولا سيما الديوانية منها، من ذلك قول المهدي ابن تومرت[2] في رسالته الموجّهة إلى شعبه والمسماةبالرسالة المنظمة[3]: " فقاتلوا الأعداء على دين الله صابرين على البأساء والضراء محتسبين ما أصابهم في سبيل الله بالأموال والأنفس في جنبة الله لعلمهم بأنّ ذلك كله في موازينهم[كذا]، فصبروا على المكاره وحملوا المشاق، حتى انجلت عنهم ظلمات الجهل والضلال ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُم فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱستَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾"[4] في هذا النّص عددا هائلا من النصائح والتوجيهات التي تنظم حياة الموحدين وتضبط سلوكهم، وقد أكّد كلامه باقتباساته الحرفية من مثيل العبارة الأخيرة والتي أخذها من سورة آل عمران، حتّى يعظّم شأن من صبر وكافح في سبيل الإسلام فدفع عنه كلّ بأس وضرر.

---

[1]- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمّان للنشر والتوزيع، عمّان، ط2 ،د ت، ص11.

[2]- هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن سليمان، ولد سنة 491هـ، المؤسسّ الأول لدولة الموحّدين، عرف بدينه وذكائه وفطنته وشدّته(ينظر:بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي (745هـ) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د ط، 1965، ص3 - 4)

[3]-ينظر: أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص53.

[4]-أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص 46.

وفي نص آخر من الرسالة نفسها يقول "فغرّتهم الدنيا حتى جحدوا ما استيقنته أنفسهم من الحق لينالوا بذلك الحظ العاجل، ويجمعوا به الحرام ﴿ وَلَبِئسَ مَا شَرَواْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُم لَو كَانُواْ يَعلَمُونَ﴾"[1] وهو اقتباس من سورة البقرة، قد ذكره الكاتب رغبة منه في التأثير على المستمعين وشحذ هممهم وإعلامهم بأنّهم على طريق الحقّ سائرين، عكس المرابطين الذين عدلوا عن الحق وزاغوا واتّبعوا الباطل فكانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة -بحسب رأيه-.

وفي رسالة أخرى من رسائل المهدي الموجّهة إلى شعبه في كزولة[2]، نجد فيها العديد من الاقتباسات الحرفية، ومن ذلك ما نصّه: "فكيف بعبوديتهم، والكون تحت أيديهم وفي خدمتهم، وإعانتهم على جورهم وجهادهم وكفرهم وطغيانهم بالأموال والأولاد والأنفس، ولو لم يكن إلّا ترجيح المنافع في الدنيا، واختيار منزلة الحرية عن منزلة العبودية فكيف اختيار خير الدنيا والآخرة والعز الدائم في الدنيا عن الذل والهوان والعذاب الأليم في الآخرة﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلخُسرَانُ ٱلمُبِينُ﴾"[3] وفي هذا اقتباس من سورة الزمر وهو؛ اقتباس ورد على شكل توجيهات وإرشادات من المهدي إلى شعب كزولة يحثهم فيها على التخلي عن المرابطين وأعمالهم الباطلة.

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص 48.

[2]- قرية مساندة للدولة المرابطية، لكنها مع الوقت خضعت لسيطرة الموحدين وحكمهم.

[3] - أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص54.

لم يكن المهدي ابن تومرت الوحيد الذي استعان بالإقتباس في كتاباته، بل ألفينا كُتَّابا غيره يستعملونه بشكل لافت للنظركأبي جعفر ابن عطية[1]، في رسالته المكتوبة عن أبي حفص الهنتاني[2] إلى الخليفة عبد المؤمن، يخبره فيها بانتصاره المنشود على المرابطين، فنجده يقول: "كتابنا هذا من وادي ماسة،بعدما تجدّد من أمر الله الكريم ونصره المعهود المعلوم ﴿وَمَا ٱلنَّصرُ إِلَّا مِن عِندِ ٱللَّهِ ٱلعَزِيزِ ٱلحَكِيمِ١٢٦﴾"[3]وهذا الافتباس جاء خادما للغرض العام للرسالة، ألا وهو الفرحة بالنصر.

ومن بديع الاقتباسات الحرفية ما كتبه ابن عبد الحميد[4]في رسالتهالتي وجّهها إلى ابن تونـدوت[5]: "فياليتك لم تخلق بشرا سويا، فقد صرت للشيطان وليّا، تركت ما كان عليه الشيخ المرحوم، من الاعتباط بهذا الأمر العزيز الذي لم يزل به حفيّا، وقد مهد فيه لعقبه صراطا سويا ﴿فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوفَ يَلقَونَ

[1]– هو كاتب من كتاب الدولة الموحّدية وحتى الدولة المرابطية،اختص هذا الرجل بكتابة الرسائل، عرف أسلوبه ببلاغته الرائعة كما يغلب عليه السّجع المنمّق، والتركيب المتين والرصف الجميل، من مواليد مراكش 517هـ، وافته المنية سنة553هـ، وردت له عشرون رسالة. (ينظر:حكيمة إملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم – العهد الموحدي– أطروحة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي جامعة باتنة، 2009، ص184 وما يليها.)

[2]– من ثوار دولة الموحدين وأهمّ رجالاتها، عرف هو الآخر بترسله الجميل.

[3]– أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص57.

[4]– ابن عبد الحميد؛ أديب وشاعر، وكاتب، اشتهر في العصر الموحّدي فكان من خيرة الكتّاب وأبهاهمّ بيانا (ينظر أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1،ص20.)

[5]– ابن تونـدونت أبو بكر؛ عسكري مرابطي ثائر على الخلافة الموحّدية، قائد ثورة هسكورة ضدّ الموحدين، داعم للدولة المرابطيّة، لكن في أواخر أيامه رجع ودخل ضمن ولاء الإمبراطورية الموحّدية وساندها.

غَيًّا﴾ نكثت بيعة ونقضت عهدا"[1]والملاحظ أن ذوي الترسّل إبان حكم الموحدين وفّقوا في المزاوجة بين المعنيين القرآني ومعنى رسائلهم كما "سعوا جاهدين للوصول إلى سر الجمال الفني في هذا الكتاب العظيم، لهذا وجّهوا عنايتهم إلى إبراز القدرة الفنّية، والإبداع التصويري، والأداء التعبيري في هذا الكتاب الذي سيظل معجزة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعمدوا إلى توظيفها في رسائلهم بأسلوب يعبّر عن قدرات إبداعية "[2] رائعة كان مصدرها ورافدها الأساس هو القرآن الكريم.

هذه الاقتباسات المباشرة ليست إلاّ غيضا من فيض، فإذا ما تصفّحنا تصفّحا دقيقاللرسائل الموحدية نجدها تطفح بمثل هذه السمة الأسلوبية، والمقام لا يسمح لنا بذكر كلّ تلك النصوص.

أمّا الاقتباس غير المباشر، أي الاقتباس المتصرّف فيه هو الآخر وجدنا الرسائل الموحّدية تعجّ به، ومن الأدلّة قولهم: "وتمادوا على الفساد في الأرض وعلى العتو والطغيان...وسفك دمائهم، واستباحوا أكل أموال اليتامى والأرامل...يتمتعون بالسحت حتى اعتادوا الإسراف والتبذير في اللذيذ من الطعام... والخيل المسوّمة وغير ذلك ".[3]

وهنا تستوقفنا العديد من العبارات القرآنية منها تمادوا على الفساد في الأرض، المقتبسة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسعَونَ فِي ٱلأَرضِ فَسَادًا أَن

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، (المرجع نفسه)، ج1، ص75-76.

[2]- كاظم عبد فريح المولى الموسوي، الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة-دراسة أسلوبية-،دد، دط، دت، ص33.

[3]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص53.

يُقَتَّلُواْ أَو يُصَلَّبُواْ أَو تُقَطَّعَ أَيدِيهِم وَأَرجُلُهُم مِّن خِلَٰفٍ أَو يُنفَواْ مِنَ ٱلأَرضِ ذَٰلِكَ لَهُم خِزي فِي ٱلدُّنيَا وَلَهُم فِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إضافة إلى كلمتي الخيل المسوّمة التي اقتبست من قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلبَنِينَ وَٱلقَنَٰطِيرِ ٱلمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلفِضَّةِ وَٱلخَيلِ ٱلمُسَوَّمَةِ وَٱلأَنعَٰمِ وَٱلحَرثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلحَيَوٰةِ ٱلدُّنيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسنُ ٱلمَأَابِ﴾ من سورة آل عمران.

أمّا إذا دقّقنا النظر في افتتاحية الرسائل الديوانية نجدها قد اقترنت باقتباسات لفظية جليّة بديعة؛ منها قول عبد المؤمن إلى أهل كزولة "نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلّي على محمد نبيّه ورسوله، والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكّل عليه".[1]

فجملة "الله الذي لا إله إلا هو" مقتبسة من آية الكرسي، أمّا معنى التوكل على الله فمستنبط من آيات عديدة لعلّ الأقرب إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَولَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَليَتَوَكَّلِ ٱلمُؤمِنُونَ﴾.

أمّا اقتباس المعاني القرآنية فهو من الأساليب السهلة الممتنعة،لأنّ الأخذ من القرآن لا يكون يسيرا لمن" قرأ القرآن وحفظه إنّها عملية مستعصية إلاّ لمن ملك زمام اللغة العربية وأحسن استخدام أدواتها"[2]وأتقن فهم المعاني القرآنية.

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة،ج1، ص ن.

[2]- كاظم عبد فريح المولى الموسوي، الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة-دراسة أسلوبية-(المرجع السابق)، ص36.

ومن بين المعاني المقتبسة من القرآن الكريم تلك المرتبطة بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ودليلنا على ذلك قول المهدي: "أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته وإنّ الدنيا مخلوقة للفنا، والجنّة لمن اتقى والعذاب لمن عصى"[1]وقد أضفى المعنى القرآني على هذا النّصمسحة فنّية زادت الفكرة وضوحا واتّساعا وأصبحت الرسالة أكثر تأثيرا في المتلقي وأشدّ متانة.

لقد كثر الاقتباس في الرسالة المنظمة للمهدي وهذا راجع لميوله الديني؛ فمن ذلك قوله: "كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتصلت بنا أخباركم وقيامكم في نصرة الحق واجتهادكم على إحياء السّنة، وتألّفكم وتعاونكم على إظهار الحق، واجتماعكم على إخماد الباطل والضلال، وجهاد المجسمين والمفسدين فحمدنا الله تعالى على ذلك وشكرناه إذ منّ علينا بالإخوان على إظهار الدين وإحياء السنة"[2]ثمّ يضيف قائلا: "فلمّا كان الحق لا ينصر والدين لا يظهر إلاّ بأنصار الحق والمجاهدين عليه، عظّم الله أمر المجاهدين وبيّن فضلهم، وأخبر أنّ الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تنجي من عذاب أليم"[3] .

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ المترسّل الموحدي استحضر النّص المقدّس بأوجهه المختلفة وفقا لما يخدم فكرته وهدفه، وقد بدت اقتباساتهم جليّة، ولا عجب من هذا كون القرآن كان من أولويات المؤسّسة التعليمية الموحّدية، ممّا أضفى على كتاباتهم متعة دلاليّة، وعليه فإنّ

[1]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1،ص43.

[2]- المرجع نفسه، ج1،ص45.

[3]- المرجع نفسه، ج1، ص45.

المكتوب الموحّدي الديواني بالخصوص تميّز بحسن ربطه بين ما يودّ صاحبه التعبير عنه وما يريد اقتباسه وتضمينه، حتى لا يكاد القارئ غير الحافظ للذكر الحكيم أن يتفطّن ويعي ذلك الدمج، وما هذا إلّا سمة وإمارة من إمارات حسن التّرسّل، والقدرة الكبيرة للكاتب في التلاعب بالصيغ التعبيريّة.

-الإقتباس من الحديث النبوي الشريف:

لم يكن الإقتباس من القرآن الكريم هو الوحيد الحاضر في الرسائل الديوانية والإخوانية الموحّدية، بل وجدنا الكاتب يعتمد على الحديث النبوي كتاباته، لكن هذا الأخير كان أقلّ من القرآن الكريم، وهذا الأمر يبدوا لنا طبيعيا لأنّ المغاربة عموما والدّولة الموحّدية على وجه الخصوص كانت تركّز على القرآن الكريم في مناهجها التربيويّة التعليمية، كما أنّ القرآن الكريم قد طغى اقتباسه عن الحديث النبوي الشريف، وهذا راجع إلى أنّه الأساس الأوّل للتشريع الإسلامي.

ومن الأدلّة على ذلك قول ابن عميرة: "عودوا إلى الصلة فهي أجمل، ودعوا القطيعة، فإنّها لا تحمل، وتكلّفوا الكتب إن لم تنشطوا له"[1] وفي هذا اقتباس من معنى الحديث النبوي الشريف القائل: "صلة الأرحام تزيد في العمر"[2].

[1]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص 215.

[2]- أبو الطّيب القنوجي البُخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، ص212.

ومن الراسائل التي اقتبس أصحابها من الحديث النبوي الشريف، رسالة المهدي بن تومرت الموجّهة لغلى الموحدين، والتي يأمرهم فيها بقتال المرابطين، والجهاد معه في سبيل إعلاء كلمة الحق، وفي هذا يقول: "وهذا الوعد العظيم والعذاب الأليم فيمن ركن إليهم فكيف بمن أعانهم بنفسه وماله على سفك دماء المسلمين، وأخذ أموالهم، ومعونتهم على ظلمهم ولو بدرهم واحد لما رواه كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدي، فمن غشى أبوابهم وصدقهم على كذبهم وأعانهم على كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن لم يغش أبوابهم، ولم يصدقهم على كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وسيرد على الحوض".[1]

وفي هذا اقتباس حرفي من الحديث النبوي الشريف القائل: "أَعيذُكَ باللهِ يا كعبُ بن عجرةَ من أمراءَ يكونون من بعدي، فمن غشي أبوابهم وصدقهم على كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه، ولا يرد على الحوض، ومن غشي أبوابهم، ولم يغش فلم يصدقهم على كذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، وسيرد على الحوض"[2].

ومن الاقتباس من الحديث النبوي الشريف، قول ابن عميرة المخزومي: "فعرف القوم له صحّة الحجّة، ووضوح المحجّة، وأجمعوا على أنّه لا تشتبه الأقوال والأفعال، ولا تستوي

[1] – عبد الله علّام، الدعوة الموحّدية بالمغرب، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1964، ص349.

[2]– أبو العربي المالكي، عارضةُ الأحوذي بشرح صحيح البخاري، تح: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1971، ج3، باب 433، ص75.

القلانس والنّعال، ومن يشكّ في أنّ السماء محلّ الدّراري، ولبن السّماء هو ابن الحواري، بل من يقرن قوّة الملك لضعف العواري، ويقوّم الدّيباج بقيمة البواري، والمعالي تلد الرجال والولد للفراش، والحق كالشمس إنّما يخفى على مثل أعين الخفّاش"[1] يشير في هذا النّص إلى الحديث النبوي القائل: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"[2].

ومن الرسائل الديوانية التي كثر فيها الاقتباس من الحديث النبوي الشريف، رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي كتبها الخليفة عبد المؤمن للموحدين، يقول فيها: "واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان، طورا بالشّدة وتارة باللين، القائِل ولا عدول عن قوله: ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه، تنبيهًا على ترك الشك لليقين؛ وعلى آله أعلام الإسلام باليمين، الذين مكذنهم الله في الأرض"[3] فجملة "ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه" مأخوذة من قوله صلّى الله عليه وسلّم:"إِنَّ الحَلَالَ بَيِّن وإِنَّ الحَرَامَ بَيِّن وبَينَهُمَا مُشتَبِهَاتٌ لا يَعلَمُهُنَّ كثيرٌ من النَّاسِ. فمن اتّقَى الشبهاتِ استبرَأَ لِدِينِهِ وَعِرضِهِ"[4].

ويضيف في الرسالة نفسها قائلا: "وأوّل ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاةُ لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها وشهودُها إطهارًا لشعائر الإيمان في جماعتها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (أحبّ الأعمال إلى الله الصلاة لأوقاتها)، وقال (أول ما يُنظر فيه من

[1]- أبو عبد الله محمد بن هانئ اللّخمي السبتي، رسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، ص336.

[2]- الميداني، مجمع الأمثال، ص423.

[3]- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص382.

[4]- أبو بكر السيوطي، الدّيباج على صحيح مسلم بن الحجّاج، تح: محمّد زكريّا الكاند هلويّ، دار الأرقم، بيروت، مج1، ص138.

أعمال العبد الصلاة)...ويؤخذ بها في جميع الأمصار الصغيرُ والكبير من المسلمين، ونيط في إلزامها قول عليه الصلاة والسلام: (مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر سنين)"[1] والأحاديث النبوية الشريفة في هذا النّص ظاهرة جلية، فهي مقتبسة اقتباسا حرفيا خادما للغرض العام للرسالة، مؤكّدة على معانيها التي تدور في محور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن مبحث الاقتباس عموما، نستنتج بأنّ هذه العملية صعبة، يتمكّن منها فقط الحافظ لكتاب الله عزّ وجل والمطّلع على الحديث النبوي الشريف، كما أنّ هذه الظاهرة تجعلنا نعي المقدرة اللغوية والفكرية للكاتب الموحّدي.

كما يمكننا الإستنتاج بأنّ بعض الرسائل الديوانية الموحّدية ينعدم فيها الاقتباس وهذا راجع إلى عدم تطلّب غرض الرسالة لذلك، أمّا في الرسائل ذات الطابع الديني الوعظي التنظيمي، فوجدناها تعجّ بهذا الأسلوب.

أمّا الرسائل الإخوانية، قد وجدنا ندرة في الاقتباسات الحرفية، بينما اقتباس الألفاظ والمعاني القرآنية أو تلك المأخوذة من الحديث فقد وجناها بصورة لافتة للنظر، وهذا راجع ربّما إلى حفظ كتابها لكتاب الله وسنّة نبيّه الكريم.

بعد هذا المشوار ضمن خصائص الرسالة الموحّدية الفنّية، تبيّن لنا بأنّ الكُتاب اختلفت أساليبهم وتنوّعت سماتهم الفنّية لكنّهم اتّفقوا على نفس العناصر المشكّلة للرسالة

[1]- المرجع السابق، ج1، ص382.

من مقدمة وعرض وختام، حيث وجدنا مقدماتهم تتّفق في الآليات من حيث ذكر المرسل والمرسل إليه والدعاء لهما وحمد الله والتصلية على حبيب الخلق.

كما تتّفق في صيغة التّخلّص، فعبارة 'إنّا كتبناه' وجدناها في كلّ الرسائل، بينما الختام يختلف من رسالة للأخرى، فمنهم من ختم نصّه بعبارة السلام عليكم، ومنهم من ذكر تاريخ كتابته لهذه الرسالة، ومنهم من ترك رسالته دون خاتمة.

كما أنّ الكُتّاب اختلفوا فيما بعضهم بعضا من حيث الإكثار من الأساليب البلاغية أو التقليل منها، فابن عميرة المخزومي مثلا أكثر من الجناس، بينما أبو الحسن بن العياش فلم يستعمل هذا الأسلوب، ربّما لعدم ولعه بالصّنعة اللفظية أو لأنّ موضوعه لم يطلب منه ذلك.

لقد زاوج الكُتّاب الموحدون في رسائلهم بين الشعر والمثل والقرآن والحديث النبوي الشريف، رغبة منهم في إعطاء كلامهم حجة وبرهانا وإثباتا.

إنّ هذه الرسائل جاءتنا طويلة في أغلبها، فيها تكرار وإلحاح على الأفكار، كما فيها حنين وشوق وتهديد ووعيد في أحيان أخرى، وهذه الأغراض حقّقتها الأساليب البلاغية الخبرية أو الإنشائيّة في الرسالة.

فقد بدا لنا واضحا وجليا بأنّ الكُتّاب الموحدين قد أبدعوا في التّأليف، وأبهروا العقول، بما وظّفه من مصطلحات وصيغ ومفردات قمّة في الرّقة والجمال.

خاتمة

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المشوّقة في ثنايا الرسائل الموحّدية، وصلنا إلى نهاية هذا البحث، وهذه النهاية تفرض علينا عدّ أهم النتائج المتوصّل إليها، وهي كالآتي:

أرّخت العديد من المصادر للدولة الموحّدية، فقد اتّفقوا جلّهم على تاريخ تأسيسها إلّا أنهم اختلفوا في نسبها المذهبي، فمنهم من نسب الموحّدين إلى المذهب الشيعي ومنهم من نسبهم إلى المذهب السنني، ومنهم من وقف موقفا وسطا، ونحن نرى أنّ هذه الدولة دولة ثائرة أرادت ترسيخ التعاليم الدينية في المجتمع المغربي الذي زاغ نوعا ما عن طريق الصواب خلال فترة المرابطين.

ارتكزت دولة الموحدين على أساس ديني محض، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يعود أصل تسميتهم بالموحدين إلى فكرة التوحيد التي التزم بها المؤسس الأوّل للدولة (المهدي بن تومرت) خصوصا بعدما اتخذ العصمة والمهدوية شعارا له.

حرص خلفاء الدولة الموحّدية على إقامة العدل وإرسائه بين أبناء المجتمع، فقد كان تعاملهم مع رعيتهم ممزوجا بين الشّدة واللين.

عرفت حضارة الموحّدين تطورا ورقيّا ملحوظا وبالخصوص عمرانها، هذا ما جعلها تتميّز بصبغة خاصة، زادها رونقا بساطتها وطابعها الإسلامي، وبفضل هذا أصبحت هذه الدولة تتميّز عن غيرها من الدول بجمال عمرانها.

خفّفت الدولة الموحّدية الخناق على بعض العلوم التي كانت محظورة خلال حكم المرابطين كالفلسفة، فحفّزت الأدباء على الكتابة في هذا الموضوع، وهذا ما هو إلّا وجها من أوجه نشر الثقافة والعلوم في المغرب العربي.

اعتنت الدولة الموحّدية بنشر دور العلم والكتاتيب فيي مختلف بقاعها، وهذه الخطوة كانت بعد أن فرض المهدي وخلفاؤه الذين جاءوا بعده بضرورة تعليم كلّ الناس.

أسهمت هذه الدولة في تكوين علماء وفقهاء وكتاب لهم زاد لغوي وفكري خصب، من أمثال ابن عميرة، أبو الحسن بن العياش، ابن مغاور الشاطبي وغيرهم الكثير والكثير.

لقد عكست الكتّابات التي اطّلعنا عليها صورة الحضارة الموحّدية المتطوّرة، فقد عكف الكتّاب على تحسين نتاجهم النثري، فخلّفوا لنا الرسائل الديوانية بأغراضها المختلفة، والإخوانية بمواضيعها التي لا تعدّ ولا تحصى، والوصفية ذات المضامين الثّرية الغنية في لغتها، إلّا أنّ هذه الأخيرة قد وجدناها مدمجة دمجا مع نظيرتها الإخوانية.

شكّلت الرسائل الديوانية الجانب الأكبر من الرسائل الموحّدية عموما، هذا راجع إلى مجموعة من الأسباب لعلّ أبرزها الاتّساع الزماني والمكاني لهذه الدولة، فهي أكثر الدول شساعة جغرافية وأطولها مدّة زمانية.

تراوحت الرسالة الموحّدية بين الطول والقصر، لكن غلب عليها الإطناب والاستقصاء هذا لأنّ مراحلها كانت متعدّدة وكان يلتزم فيها الكاتب الدعاء الكثير، ناهيك عن الأوصاف العديدة التي كانت تذكر في حضرة خليفتهم، أمّا الغرض فهو الآخر كان فيه إطناب هذا راجع إلى التفصيل الدقيق للموضوعات ناهيك عن الجمل الاعتراضية التي تخلّللتها.

إنّ مقدمة الرسالة الديوانية مثلا، كانت تختلف عن الإخوانية وعن الوصفية، أمّا السلطانية فكانت مقدّمتها طويلة مقارنة بالأنواع الأخرى، لأنّ الكاتب كان يُفرض عليه ذكر المرسل والمرسل إليه والدعا إليهما. وهذا الأمر كان من الشروط الواجب توافرها في كتب الديوان، أمّا الإخوانية فمقدّمتها تختلف عن الديوانية، ففيها يذكر الكاتب المرسل إليه ويلج صلب موضوعه مباشرة.

إنّ الرسائل الديوانية كلّها لم تتّفق في وضع التاريخ في نهاية الرسالة، فبعضهم من التزم بوضع زمكنية للرسالة، والبعض تجاهل هذا الأمر، ونحن لا نرى أنّ هذا الأمر تجاهلا من

الكُتّاب بل نعزو هذا الغياب ربّما إلى من جمعوا هذه الرسائل ربّما أسقطوها سهوا أو عمدا، أو لأنّ الظروف حالت أمام الحصول على الرسالة كاملة.

ظهرت الرسالة الموحّدية في صورة متّسقة الأفكار منسجمة مع بعضها البعض، كلّ جزء منها يؤدّي إلى الآخر دون شرخ ولا فراغ بين أجزائها، وهذا راجع في الأساس إلى حنكة الكتّاب في استخدا الروابط المناسبة.

كان لثقافة الكتّاب الدينية انعكاس واضح على أسلوبهم، فاكتسبت معانيهم وألفاظهم الصبغة الدينية.

لقد شهد الشعر في العصر الموحّدي تطوّرا ملحوظا، ونظرا لهذا التطوّر وجدنا العديد من الرسائل تبدأ أو تختتم بأبيات شعرية كان قد نظمها كاتب الرسالة، أو حتى ضمّنها لرسالة من إنتاج شعراء أخر، كلّ هذا زاد الرسالة جمالا وبهاء.

شجّع خلفاء الدولة الموحّدية الأدباء وقرّبوهم من دواوينهم، هذا ما فتح باب المنافسة بينهم، فعكف الكتّاب على تجويد كتاباتهم، وتحسين لغتهم ومحاولة السمو بأسلوبهم نحو الأفضل فانتعش بهذا الفعل أدب الرسالةفي عصرهم، وبرهن على علوّ شأن أصحابه فهم نافسوا الكتّاب المشارقة في هذا الفن مع الحفاظ طبعا على وجودهم وحضورهم الخاص.

عكس أسلوب الرسالة الموحّدية شخصية كاتبها، الحافظ للذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، العالم بتفسيره وشروحاته، فإذا ما لاحظنا كتاباتهم نجد الاقتباس يغلب عليها، وإذا ما عدنا لترجمة صاحب الرسالة نجد المؤرخين يثبتون له علمه بالفقه والحديث.

غلب على أسلوبهم في رسائل النصح والإرشاد كثرة الحجج والبراهين، هذا حتى يكون لكلامهم وقعا على القلوب والنفوس ويكون أكثر تأثيرا في المتلقي.

اتسم أسلوب الرسالة الموحّدية بالسبك الجيّد واللغة الفصيحة، إلّا أنّهم اعتمدوا على المحسّنات البديعية بشكل لافت للنظر رغبة منهم في إكساب نصّهم جرسا موسيقيا عذبا، كون الموسيقى الداخلية للنّص لها أثرها الكبير في استمالة العقول والقلوب.

لقد كان للصور البيانية حضور قوي في الرسائل في هذا العهد، وكانت في جلّها مرتبطة ارتباطا وثيقا ببيئتهم المغربية الأندلسيّة، فقد راح الكتّاب بأخيلتهم الواسعة إلى ما يحيط بهم في الواقع ليقتبسوا منه صورهم فجاءت معظمها خادمة للغرض العام للرسالة.

التزم كتّاب الدولة الموحّدية التقليد في بعض الأمور كاعتمادهم طريقة مدرسة الصنعة اللفظية التي كانت شائعة مع كتّاب القرن الرابع في المشرق العربي، لكنّهم خلقوا لأنفسهم أساليب ومصطلحات جعلتهم يتميزون بها عن غيرهم، كالمزاوجة بين النثر والشعر، واعتمادهم أسلوب المناظرة في الرسالة الوصفيّة.

كثر كتّاب الديوان في هذا العصر ذلك أنّ الدولة الموحّدية كانت من أطول الدول زمنا، وأكثرها شساعة جغرافية، فكانت تستخدم هذه الرسائل للتواصل مع ملوك وخلفاء ولاياتها في كلّ حدب وصوب، كما أنّ هذه الدول عرفت أحداثا سياسية عديدة كانت أقوى سبب وراء كثرة كتّاب الديوان.

وفي الأخير لا يسعنا إلّا القول بأنّ هذه النتائج ليست نهاية مغلقة للبحث بل هي بدايات يمكن أن يستفيد منها الباحثون كأبحاث مستقبلية.

ملحق

أعلام الكتابة في العهد الموحّدي

الملحق:

1. أبو جعفر بن عطية:

عرفت الدولة الموحّدية الكتابة الفنية بمختلف أنواعها، وكان لهذا الشأن الفنّي كُتّاب يتولون هذه المهمّة، من بينهم الكاتب والوزير أبو جعفر بن محمد بن عطية، القضاعي المراكشي[1]، من أهل طرطوشة*، ثم انتقل إلى دانية فمراكش**، كان من "أبلغ أهل زمانه كتابة وشعرا"[2]، حافظا –مثله مثل بقية أهل الأندلس والمغرب- للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، على علم باللغة العربية وعلومها، وعلى إطلاع واسع بالخط وفنونه.

ولد ابن عطية بمراكش عام سبع وعشرين بعد الخمسمائة[3]، لكن هذا التاريخ مختلف فيه فليفي بروفنسال يرجّح تاريخ ولادته سنة 517 هـ، هو وابن الأبار إذ يقول هذا الأخير

[1]- ينظر: أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور، الرباط، المغرب، دط، 1973، ص175.

*- طرطوشةtortosa : مدينة أندلسية قديمة في الثغر الأعلى، وتتواجد على مصب نهر إيبرو والواقع جنوب غربي برشلونة (ينظر: شكيب أرسلان، الحُلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص107).

**- دانية denia: مدينة أندلسية قديمة هي الأخرى، كانت قاعدة لإمارة مجاهد العامري المتغلب على جزر البليار الشرقية (ينظر: المرجع نفسه، ص 110-111-115).

[2] – لأبي العباس أحمد بن محمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، ص251.

[3]– لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، د ط، دت،ج1، ص547

ما نصّه "نُكب في صفر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وفيه قُتل هو وأخوه أبو عَقيل بن عطية بمخارج مراكش، ولأبي جعفر إذ ذاك ست وثلاثون سنة".[1]

نشأ أبو جعفر بن عطية في كنف أسرة محبّة للعلم ساعية خلفه، فتلقى فنون الكتابة وأسرارها عن أبيه الذي كان كاتبا بدوره في ديوان الدولة اللمتونية، ليكون هو الآخر كاتبا فيها، فهو "ممّن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة، وعن أبنيه تاشفين وإسحاق"[2]، لكن في هذا الأمر اختلاف واضطراب وشكّ وريب، فإن كان أبو جعفر بن عطية كاتبا ليوسف ابن تاشفين، فأين هي كتاباته؟

ولتوضيح هذه القضية نقول: تكاد جلّ المصادر التي أرّخت لأبي جعفر بن عطية تذكر فقط مراسلاته الموحّدية سواء التي كتبها عنهم أو لهم، ولم نعثر منذ أن بدأنا بحثنا عن رسالة له مرابطية، فهل ضاعت هذه المكاتبات المرابطية التي خطّها بيده بفعل الحرب الدامية التي شهدتها الدولة في أواخر أيامها؟أم أنّ ابن عطية هذا كان مساعدا لولده الذي كان كاتبا في الديوان اللمتوني، ولهذا السبب لم نعثر على رسالة مرابطية له.أم أنّ من قال بأنّ ابن عطية قد كتب ليوسف ربّما التبس عليه الأمر بين الأب وابنه، فربما كان يقصد الأب، بينما أخطأ في ذكر اسمه الصحيح.

[1]- لأبي عبد الله أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تح:حسن مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1985، ج2، ص 238.

[2]- أحمد بن محمّد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مج 5، ص 183.

لقد كان ابن عطيّة من المقربين للبلاط الموحّدي هذا بعد أن سقطت الدولة المرابطية في يد الموحدين فانتقل كاتبا عند حضرة عبد المؤمن بن علي و"أسند إليه وزارته، فنهض بأعبائها، وتحبّب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان فعمت صنائعه، وفشا معروفه وكان محمود السيرة"[1]هذا بعد أن دوّن أوّل رسالة له لأبي حفص الهنتاني حينما انتصر على محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي، وأطاح به في معركة كبيرة.

كانت هذه الرسالة التي كتبها ابن عطية السبب الأوّل والكبير في دخول هذا الرجل إلى ديوان الموحدين. يقول في فصول منها "فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت إليه بوادر منونة، وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه؛ وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه: والنوائب لا تنوبه، ويقول في سواء قولا كثيرا،ويختلق على الله تعالى إفكا وزورا فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه"[2]هي رسالة بليغة جعلت صاحبها يحتلّ المكان الأعلى في ديوان عبد المؤمن بن علي[*].

---

[1]– أحمد بن محمّد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مج 5، ص 183.

[2] – أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص112.

[*]– عبد المؤمن بن علي من خلفاء الدولة الموحّدية، خلف ابن تومرت في الحكم بعد أن وافته المنيّة، فتح هذا الرجل العديد من الدول وأدخلها تحت لواء الموحّدين، منها فاس ومراكش وبجاية وغيرها من الدول، كما شهدت فترة حكمه العديد من الأحداث منها ثورة الماسي ونكبة الوزير ابن عطية. كان عبد المؤمن رجلا حسن الهيئة، عظيم الشأن، فصيحا فقيها، عالما بالأصول والجدل والحديث، مشاركا في الكثير من الأمور الدينية والدنيويّة، سياسي حازم مقدام في الحروب. (ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص145).

كان ابن عطية رجلا خيِّرًا حسن السيرة، فصيح اللسان، بليغ القلم، "سعيد المآخذ، مُيَسَّر المآرب، وكانت وزارته زينا للوقت، كمالا للدولة"[1]وهو من أقرب المقربين من عبد المؤمن، إذ كان يستشيره في جل الأمور السياسية، وكان ممن سعى مع خليفته إلى إخماد نار الفتن التي شهدتها دويلات الدولة الموحّدية. وظلّت هذه العلاقة وطيدة بن الخليفة وابنه. وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة جمع عبد المؤمن عددا من شيوخ إشبيلية الذين كانوا يرغبون في ولاية أبنائه عليهم، وبعث ابنه يعقوب ومعه الكاتب بن عطية حتى يسعوا جاهدين لإصلاح الوضع في إشبيلية.

و وجد مجموعة من الحساد والوشاة الطريق معبدا للإطاحة بأبي جعفر بن عطية فأقدم مروان بن عبد العزيز* يقول:[2]

قـــل للإمـــام أطـــال الله مدتـــه ... قـــولاً تبـــين لـــذي لـــب حقائقـــه

إن الـــزراجين قـــوم قـــد وتـــرتهم ... وطالـــب الثـــأر لم تـــؤمن بوائقـــه

وللـــوزير إلى آرائهـــم ميـــلٌ ... فـــذاك مـــا كثـــرت فـــيهم علائقـــه

فبـــادر الحـــزم في إطفـــاء نـــارهم ... فربمـــا عـــاق عـــن أمـــر عوائقـــه

[1] – لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الأمل، الجزائر، دط، دت، ج1، ص531.

*- مروان بن عبد العزيز، ولد عبد العزيز أخو المهدي بن تومرت، من مشيخة العسكر ووجوه الجيش بإشبيلية.

[2]– أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص132

هـــم العـــدو ومـــن والاهـــم كهـــم ... فاحـــذر عـــدوك واحـــذر مـــن يصـــادقه

الله يـــــتتعلم أني ناصحٌ لـــكم ... والحـــــق أبـــلج لا تخفى طرائـــــتقه

بعد أن سمع عبد المؤمن هذه الأبيات أضمر الشر له وأمر بقتله، ومن هنا وبفعل هذه الوشاية توفى جعفر بن عطية وأخوه عقيل سنة أربعين وخمسمائة[1]، لكن صاحب الإحاطة يقول بأنّ وفاته كانت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة[2]ويتّفق معه في هذا التاريخ ابن الأبار[3].

خلّف ابن عطية من ورائه مجموعة من الرسائل منها ما كتبه مستعطفا عبد المؤمن[4]، ومنها رسالة النصر السابقة الذكر، كما ذكر له ليفي بروفنسال ما يقارب خمس عشرة رسالة.

2-أبو عقيل بن عطية:

هو أبو عقيل بن جعفر بن محمد بن عطيّة، القضاعي المراكشي[5]، أخوه الكاتب المشهور أبو جعفر بن عطية، أصله من طرطوشة شرق الأندلس. ولد أبو عقيل سنة 530 هجري الموافق لـ1135 ميلادي بمراكش[6].

---

[1]- أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، المغرب، دط، ص175.

[2] - لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص547.

[3]- ينظر: أبو عبد الله ابن الأبّار، الحُلَّةِ السِّيَرَاء، ج2، ص 238.

[4]- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج5، ص184-185

[5]- ينظر: ليفي بروفنسال، رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، ص د.

[6] - ينظر: مزوزية حداد، سياسة الدولة الموحّدية من خلال الرسائل الديوانية 515-668هـ/1121-1269م، ص26.

كتب أبو عقيل للسلطان المرابطي أبو يوسف بن تاشفين[1]، وبعد سقوط الدولة اللمتونية، انتقل لمساعدة أخيه للكتابة في الديوان الموحّدي[2].

كما كتب ابن عقيل رسالة ديوانية عن الخليفة عبد المؤمن، والتي بعث بها إلى الطلبة بتلمسان يخبرهم فيها بفتح قسنطينة، يقول فيها: "من أمير المؤمنين –أيّده الله بنصره وأمدّه بمعونته– إلى الطلبة الذين بتلمسان ...أنّ أبا زكرياء يحي بن عبد العزيز بالله بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقرابته وخووله حين أتاهم الذائد الذي لا يكذّب أهله، وانتحاهم القائد المبيح وعر المنتهى وسهله؛ لم يكن لهم بدُّ عن التولي عن قرارهم، والتخلي عن أوطانهم وأقطارهم؛ لأمر قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه...فكان مأمُّهم الذي اعتقدوا منعته وحصانته، واعتمدوا ثقته عليهم وأمانته، بلد قسنطينة –عمّره الله–..."[3].

هي رسالة اعتمد فيها صاحبها الإطالة والإطناب، لأنّ غرض الرسالة يفرض عليه ذلك، مفردات دينية بلاغية فصيحة، رسالة فيها براعة الصَّنعة، ودقّة التصوير، وشَّاها صاحبها بمختلف الصور البيانية والمحسنات البديعية، التي أضافت عليها مسحة جمالية وفنّية راقية.

[1]– ينظر: ليفي بروفنسال، رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، ص د

[2]– ينظر: أحمد عزاوي، مجموعة جديدة، ج1، ص 19.

[3] – المرجع نفسه، ص22–24.

1. ابن محشرة:

هو أبو الفضل بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي بن محشرة[1]، وهو عند المراكشي أبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن مَحشُوَّة[2]، من أخيار مدينة بجاية[3] وهومعروف كذلك بالبجائي، هو "الشيخ الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل الذكي السني القدر، الكاتب البارع"[4] المعروف بابن محشرة والمكنّى بأبي الفضل.

ولد سنة 540هـ[5]، ببجاية ونشأ وشبّ بها، إذ "كان متمكّن المعرفة حسن الشارة، والصفة، له الهمة السنية، والأخلاق المرضية وكان وجيها مكرما، ومشرقا ومعظما"[6].

تتلمذ على يد أبي القاسم القالمي يخدمه إلى أن وافته المنيّة[7]، كما روى عن أبي بكر بن غالب بن عطية، وأبي بكر بن سابق، وعن القاضي أبي عبد الله[8].

انتقل أبو الفضل إلى بجاية طالبا للعلم، غير أن يوسف بن عبد المؤمن استدعاه إلى ديوانه بمراكش "فارتحل إلى بجاية وهو كاره لارتحاله مع علمه أنه استدعاه لمنصب يسمو به

---

[1]– أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ص83.

[2]– عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1، 1949، ص244.

[3]– المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

[4] – أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ص 83.

[5]– المصدر نفسه، ص83.

[6]– المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[7]– ينظر: عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص244.

[8]– ينظر: محمود محمد عبد الرحمن خياري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، أطروحة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة الأردن، 1991، ص186.

أمثاله، ولكن عزة العلم أغنته عن الناس وحصلت له من المزية في الأنفس أزيد مما يقاس"[1]، والسبب في هذا الاستدعاء حسب ما يروي الغبريني عن شيخه أبي محمد بن عبد الحق بن ربيع يعود إلى وفاة سر الخليفة وكاتبه في ذلك الزمان.

ولما جاء ابن محشرة إلى حضرة الخليفة لمس فيه التأني والوقار والحياء، وحسن الهيئة، فوقع في نفسه موقعا حسنا "فاستدعاه وأعجله، فتأنّى وجرى على عاداته، ولما حضر بين يديه عاتبه، وقال له يا فقيه كثيرا ما تبطئ علينا إذ استدعيناك، فما هذا منك؟ فقال يا أمير المؤمنين، أنت إمام المسلمين، وما أحسب أنّ محل الإقامة إلّا كمحل الصلاة، فكمى آتي إلى الصلاة آتي إلى هذا المحل، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم،(إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وآتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا) فاستحسن ذلك منه أمير المؤمنين وزاد في تقريبه"[2].

كتب ابن محشرة بعد وفاة عبد المؤمن عن الخليفة يعقوب المنصور، ثم لابنه محمد الناصر[3]، وخلّف من ورائه مجموعة من الرسائل كتبها عن الخليفة يوسف جمعها ليفي بروفنسال وحقّقها ووضعها من الرقم السادس والعشرين إلى غاية الرسالة رقم أربع وثلاثين،

[1]- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ص83.

[2]- المصدر نفسه، ص84.

[3]- محمود محمد عبد الرحمن خياري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس، ص188.

كما حبّر عن المنصور فكتب رسالة واحدة ذات الرقم خمس وثلاثين في مجموع رسائل موحّدية[1]، إلى أن وافته المنية سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[2].

تندرج رسائل ابن محشرة ضمن تلك المكاتبات التي أبرزت سيطرت الدولة الموحّدية على بلاد المغرب العربي والأندلس، كما كشفت سياستها الحقيقية اتجاه دول الجوار، وثقافتها وقيمتها الفكرية. وجلّ موضوعاتها سياسية تعبّر عن مدى تطور البلاد من ناحيتها السياسية من خلال حديثه عن الفتوحات والحروب التي خاضتها في سبيل الصمود والبقاء.و هي تعبّر كذلك عن تطوّرها من الناحية الفكرية الأدبية، كون هذه الرسائل البجائية ذات ثقافة واسعة تنبيء عبّر عن صاحبها وعن البيئة التي نشأ فيها، تحمل أسلوبا قويا متينا لا يمكن الاستهزاء به، صاحبها أديب وكاتب وعالم بكلّ ما للكلمة من معنى.

ولغة رسائل ابن محشرة في مجملها دينية محضة كقوله حفظك الله، رعاك الله، جملها فصيحة خادمة للمعاني المرغوب التعبير عنها.

[1]- ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، ص149إلى 241.

[2]- أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ص85.

2. ابن عميرة المخزومي:

يعد ابن عميرة المخزومي من أقطاب الفكر والأدب في عصره، إذ اشتهر بفنّ الرسائل، وهو فصيح اللسان، اسمه الكامل؛ أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ويكنّى بأبي المطرّف.[1]

ابن عميرة"قدوة البلغاء وعمدة العلماء، وصدر جلّة الفضلاء، ...مبدع البدائع ...إذ كان ينطق عن ترجمة صحيحة"[2] ولد هذا الرجل بشُقَر[*] في رمضان منذ سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة[**]، لم يكن ابن عميرة رجلا عاديا بل كان وكما يقول الغبريني عنه: "الشيخ الفقيه، وتاج الأدباء، وهو فاق الناس بلاغة، وأربى على من قبله، وله أدب هو فيه فريد عصره، وسابق أهل عصره، وكتابته علمية أدبية، وكتاباته غير مقتصرة على نوع الأدباء وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه وسبق من سواه ورأيت بينه وبن شيخنا الفقيه أبي محمد عبد

[1]- جلال الدين السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة،تح: محمّد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر،1964، ط1، ج1، ص319.

[2]-أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج1، ص213.

[*]- شُقَر: مدينة اسبانية شرق الأندلس،بلدة تتوسط شاطبة وبلنسية (ينظر: المقري، نفح الطيب، ج 1، ص164).

[**]- هذا التاريخ مختلف فيه بين المصادر التي ترجمة لابن عميرة، فصاحب نفح الطيب يحدّد تاريخ مولده بثمانين بعد الخمسمائة هجرية، أمّا صاحب الإحاطة بأخبار غرناطة نجده يتوافق وبغية الوعاة في جعل مولده سنة اثنين وثمانين بعد الخمسمائة (ينظر: جلال الدين السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة، ج1، ص319).

الحق[***] مراسلة قلّ أن يوجد مثلها"[1]، وقول الغبريني بأنّ ابن عميرة شيخ فقيه وتاج الأدباء هو قول مؤسّس "له ما يبرّره من رسائله التي يظهر فيها الجانب الفقهي بكلّ وضوح، بالإضافة إلى الصياغة الممتازة للعبارة والناتجة عن فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى حتّى أنّ القارئ يشعر برونق كلامه وطلاوته"[2].

كان ابن عميرة محبا للعلم باحثا عنه وعن رجالاته، اشتهر بحبه للرواية، فروى عن "أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وأبي نوح والشلوبيني النحوي"[3] وكان موسوعي الفكر كونه كان من حفظة القرآن الكريم ، ومن أكبر فقهاء البلاد المغربية، معروفا لدى القريب والبعيد[4].متفنّنا في العلوم، كثير النظر إلى العلوم العقلية، باحثا مميزا في أصول الفقه، أديبا وشاعرا في الوقت نفسه، وهو فارس الكتابة لا يضاهيه فيها أحد .

[***]– هو أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر: الشيخ الفقيه، كان ابن مقلة زمانه له خطوط جميلة، وهو في كلّ واحد منها ابن مقلة زمانه: وسمع عن الفقيه ابن عميرة أنّه قال: أمّا الكتابة الأدبية فنحن فيها وإيّاه على نسق وأمّا الشرعية فقد انفرد بها عن الناس. (ينظر: الغبريني، عنوان الدراية، ص 90/85).

[1] – الغبريني، عنوان الدراية، ص253/252.

[2]– طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ج1، ص120.

[3]–أحمد بن محمّد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص314.

[4]–ينظر : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، تح: محمّد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص413.

عرفت له قصائد عديدة منها الطويلة والقصيرة،[1] حتى أنّه كتب الرسائل على شكل قصائد شعرية غاية في الجمال، وأحيانا نجده يعتمد في بداية رسائله على الشعر، والدليل على ما نقول:[2]

يا واليا أمر الجمال بسيرة قلَّ الحديثُ بمثـــلها عن وَالي

حتَّى متى قلـــــتبي مـــتيّم وإذا سألت يُقال قلبُك سالي

تتلمذ عل يد كلّ من "الشيخ أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (565-624هـ)، وهو من أكبر أساتذته وأبعدهم أثرا في حياته، والشيخ أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي (537-614هـ) والأستاذ أبو عبد الله محمد بن أيوب السرقسطي (530- 608هـ) والأستاذ ابن حوط الله الأنصاري (552- 621هـ) والشيخ أبو علي بن شلوبين"[3] وغيرهم الكثير من أهل العلم الذين عاصرهم.

اشتهر المخزومي بالكتابة عن الولاة والخلفاء والعديد من السادة الموحدين وأمراء الأندلس كذلك، فكتب عن والي بلنسية أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن سنة (608هـ)، بعدها بمدّة انتقل إلى إشبيلية وكتب عن واليها الموحدي أبي العلاء الكبير سنة (617هـ)، وفي سنة (620هـ) رجع إلى بلنسية وتولّى الكتابة عن أبي يزيد عبد

[1]- أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة ، ص413.

[2]- ابن الأبّار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني/المصري،بيروت-لبنان/القاهرة-مصر، ط3، 1989،مج17، ص197.

[3]- أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، ص5.

الرحمان بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن[1]كما كتب عن الخليفة الرشيد الموحدي، وعن ابن خلاص البلنسي والي بلنسية،كما اشتغل قاضيا في كل من مدينة هيلانة والرباط وسلا ومكناسة بالمغرب الأقصى، وتولى قضاء مدينة قسنطينة وقابس[2].

من المعلوم أنّ ابن عميرة رجل مخضرم عاش حقبتين مختلفتين من التاريخ المغربي، فقد عاصر الحفصيّين، كما عاش مع الموحّدين من قبلُ، هذه المعاصرة لدولتين مختلفتين جعلته يكوّن زادا معرفيا وثقافيا ثريا من تاريخ ولغة ودين ومنطق، علاوة على هذا نجده اشتغل قاضيا لسلا ومكناسة مدّة من الزمن.

توفي الرجل بتونس ليلة الجمعة الموافق ليوم الرابع من شهر ذي الحجّة سنة ثمان وخمسين وستمائة (658هـ)[3]. هذا التاريخ قال به كذلك صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وكذا صاحب عنوان الدراية، غير أنّ محقّق الرحلة العبدرية، وصاحب الإحاطة بأخبار غرناطة اتفقا على أنّ وفاته توافقت وسنة ستة مائة وست وخمسين (656هـ)، لكنّ الأرجح من هذا هو التاريخ الأوّل.

ترك لنا ابن عميرة مؤلفات عدّة نذكر منها:[4]

1. تاريخ ميورقة .

---

[1]- أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، ص ن.

[2]- الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 123-124.

[3]- جلال الدين السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة، ص319.

4- ينظر: أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، ص11-14.

2. كتاب التنبيهات على ما في التبيان من تمويهات، وهو مؤلّف ردّ فيه على كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لأبي محمد الزملكاني.

3. المواعظ .

4. المعالم، كتاب عقّب فيه على فخر الدين الرازي.

5. اقتضاب من تاريخ المريدين.

كما لا ننسى بأنّ الرجل "ترك تأثيرا كبيرا ولا سيما في الأواسط العلمية والأدبية، حيث تتلمذ عليه تلاميذ سبته، وفي سلا، وفي بجاية، و..و...ومن بين هؤلاء أبو جعفر أحمد بن الزبير صاحب كتاب صلة الصلة والذي كان تتلمذ عليه بسلا"[1].

كما ترك مجموعة هامّة من الرسائل الديوانية والإخوانية، جمعت في مصادر عدّة منها نفح الطيب في جزئه الأوّل ، وكذا وجدت بعضها في الذيل والتكملة منثورة هنا وهناك، وكذلك وجد جزء منها في كتاب اختصار القدح المعلى في تاريخ المحلى.

ومن الباحثين المحدثين الذين اهتموا برسائل ابن عميرة المخزومي نذكر أحمد عزاوي الذي أثبت في كتابه رسائل موحدية عددا معتبرا من رسائله، و المستشرق ليفي بروفنسال الذي ذكر مجموعة هائلة من رسائل المخزومي في كتابه مجموع رسائل موحدية، كما جمعت مكاتباته في كتابه المعروف ببغية المستطرف وغنية المتَطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة

[1] – الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ص 124.

أبي المطرّف، والذي أسماه محمد بن معمر برسائل ابن عميرة الديوانية والإخوانية، جمع هذا الكتاب قرابة 278 رسالة باختلاف أضربها[1].

6. أبو القاسم القالمي:

أبو القاسم عبد الرحمن القالمي مفكر وكاتب ورئيس لديوان الإنشاء في دولة الموحدين. نشأ في قالمة، في العهد الحمادي، شهد أحداثا كبيرة وهامّة مرت بها بلاد المغرب العربي آنذاك، إذ عاصر دولتين عذيمتين هما الدولة الحمادية والدولة الموحّدية.

وقد أسندت لأبي القاسم القالمي مهام كثيرة وتقلّد مناصب عديدة، وتلك المناصب كوّنت منه شخصية علمية وسياسية مرموقة.

وتولّى رئاسة ديوان الإنشاء الحمادي، فكتب للأمير يحي بن عبد العزيز آخر أمراء الدولة الحمّادية، ثم تولّى ديوان الإنشاء الموحدي فكتب عن عبد المؤمن، واصطحبه هذا الأخير إلى مراكش، وكان يساعده ابن محشرة ، وكذا كتب معه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش[2].

ظلّ أبو القاسم القالمي كاتبا للدولة الموحّدية حتى بعد وفاة عبد المؤمن فكتب عن ابنه أبي يوسف بن يعقوب[3]، الذي تعلّق به تعلقا كبيرا، إذ وبعد وفاة القالمي وجد أبو يوسف

[1] – ينظر: أبو عبد الله اللخمي السبتي، رسائل ابن عميرة المخزومي، ص28.

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ص242.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

صعوبة فيمن يخلفه، فلم يجد إلا مساعده وتلميذه ابن محشرة خليفة له، ونال هذا الأخير مكانة مرموقة مثله مثل أستاذه.

خلّف القالمي عددا من الرسائل الهامة التي تبرز لنا الأحداث التي شهدتها الدولة الموحدية من حروب وانتصارات وفتوحات، جلها حقّقه ليفي بروفنسال وأثبتة في كتابه مجموع رسائل موحديّة.

ويلاحظ على بعض أبي القاسم القالمي الفكر الواضح الدقيق، والأسلوب الصريح المباشر، واللغة الجزلة الدقيقة، والمضمون الثري، إذ هو شخص عبقري، من نوابغ عصره، وجهابذة زمانه، متمكّن مما يكتب، مخلص في عمله.

7. عبد العزيز ابن المرخي:

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي[1]، وهو عند صاحب المغرب في حلى المغرب، يسمى أبا بكر محمد بن عبد العزيز[2]المشهور بابن المرخي، ويسميه ليفي بروفنسال علي بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الإشبيلي.[3]

[1]- ينظر: الغُنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح: ماهر زهير جَرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص108.

[2]- ينظر: عبد الملك بن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964، ط2، ص307.

[3]- ينظر: ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، من مقدمة كتابه ص هـ.

وهو من بني عبد العزيز، ونسبهم في لَخم، وهم أهل فضل وعلم نبلاء أفاضل[1]، ولد سنة 519هـ، أصله من إشبيلية ثم انتقل إلى قرطبة، كان من حفظة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، متقن للغة العربية وعلومها، تتلمذ على يد كل من الأعلم وأبي بكر المصحفي.

اشتغل أبو القام القالمي كاتبا في البلاط الموحدي، إذ كتب عن الأمير علي بن يوسف، أسلوبه سهل ،دقيق المعاني، واضح الأفكار، توفى بمراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة."[2]

8. أبو الحسن بن العياش:

هو محمّد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش[3] بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأسدي[4]، قرطبي الأصل[5]، سكن مراكش و"عني بالآداب وكان عالما بها رئيسا في صناعة الكتابة خطيبا مصقعا بليغا مفوّهًا ذا حظ صالح من قرض الشعر وكانت له مشاركة في غير ذلك"[6] ومن أشعاره في وصف بلنسية:[7]

1- ينظر: المرجع نفسه، والصفحة عينها.

2- أحمد عزاوي، رسائل موحّدية، ج1، ص25..

3- ينظر:أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، بيروت، لبنان، 1939، الهامش رقم 1، ص94.

4- ينطر:العباس بن ابراهيم السُملالي، الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، تح: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، 2002، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ج8، ص357.

5- ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

6- أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، ص 94.

7- العباس بن ابراهيم السُملالي، الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ، ص 94.

بَلَنسِيَّةُ نهايَةُ كُلِّ حُسنٍ حديثٌ صَحُ في شرقٍ وغَربِ

فإن قالوا محلُّ غَلَاء سِعرٍ وَمَسقَطُ دِيمَتَي طَعنٍ وضَربِ

فَقُل هيَ جَنَّةٌ خُفَّت رُباهَا بِمَكرُوهَين مِن جُوعٍ وحَربِ

روى عن عدد من العلماء أمثال محمد بن مسعود ابن أبي الخصال، وأبي القاسم بن بشكوال، وكان كاتبا بارعا، يقول في بعض مكاتباته الديوانية: "فإنَّا كتبناه إليكم –كتب الله لكم نعرّف الآلاء المستجدّة، وبركة المواهب التي هي من بحر عطائه مستمدّة –من منزل الموحّدين–أظهرهم الله– بظاهر المهديّة– فتحها الله– ووعدُ الله لأوليائه قد فضَّ الإنجاز ختامُه، وبرّز لياليه المخبوءة ..."[1].

وكان كاتبا في البلاط اللمتوني في أواخر أيام هذه الدولة، و "حظي عنده واستخلصه لنفسه لما تقرر عنده من موجبات ذلك"[2]، كما استكتبه السلطان الموحدي عبد المؤمن عنده بالمغرب سنة 586[3]، ونال المكانة السنية.

توفّي بمراكش سنة ثمان وستين وخمسمائة 568[4]، بينما يرى صاحب زاد المسافر، أنّ وفاته كانت سنة 618، ومولده كان سنة 550.

[1]– ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية، ص96.

[2]– العباس بن ابراهيم السُملالي، الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ص357.

[3]– ينطر: أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، ص94

[4]– ينظر: المصدر نفسه، ص 359.

9. ابن مغاور الشاطبي:

كاتب آخر من الكتاب الذين أبرز التاريخ انتماءهم إلى الدولة الموحّدية، ابن مغاور الشاطبي، اسمه الكامل "عبد الرحمن بن مغاور: الفقيه أبو بكر السلمي الشاطبي"[1]، ويكنّى بأبي الحسن ولد بن مغاور الشاطبي سنة اثنتين وخمسمائة (502هـ)[2]، وهذا التاريخ تكاد تتّفق عليه جلّ المصادر.

نشأ هذا الرجل في كنف عائلة عربية تنتمي إلى "أسرة بني سليم، وهو من أسرة نبغ أهلها في العلم"[3] فصار بهذا من أهمّ الكتاب والأدباء الأندلسيين، فكان ثقة فيما يدوّن "بليغا مفوّها، مدركا له حظ وافر من قرض الشعر"[4].

أخذ ابن المغاور الشاطبي العلم عن مجموعة من الرجال أمثال أحمد بن عبد الرحمان بن جحدر الأنصاريّ الشاطبيّ[5]، وأبي علي الحسين بن محمد الصّدفي ابن سكّرة، كم أخذ صحيح البخاري عن أبي جعفر أحمد بن علي بن غزلون[*].

---

[1]- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تَدمُري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج41، 270.

[2]- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح:بشار عوّاد معروف و محيي هلال سرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1984، ط1، ج21، ص151.

[3]- مزوزية حداد، سياسة الدولة الموحّدية من خلال الرسائل الديوانية 515-668هـ/1121-1269م، ص29.

[4]- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، ج41، ص271/270.

[5]- المصدر نفسه، ج41، ص271/270.

[*] - بن غزلون هو أبو جعفر أحمد بن عليّ الأموي التطيلي المتوفى بالمغرب سنة 524، (ينظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص151).

شغل مناصب هامّة أبرزها الكتابة الديوانية، حيث كتب عن ابن مرنديش، كما كتب عن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن رسالة بيعة أهل شاطبة للخليفة، كما كتب رسالة للخليفة يوسف سنة 570هـ[1]، توفي في صفر[2] سنة سبع وثمانين وخمس مئة بالمغرب[3].

10. أبو موسى قاضي الخلافة:

وها نحن الآن ننتقل إلى شخصية أخرى لا تقل أهمّية عن الشخصيات الأخرى وهو أبو موسى قاضي الخلافة، اسمه الكامل عيسى بن عِمرَان بن دافال المكناسيُّ، الوَردَميشيُّ، سكن مراكش وغيرها[4]، ولد سنة 512هـ[5].

هو"الشيخ الفقيه القاضي بحضرة مراكش، الصالح الورع، كان من الفقهاء ومن أهل السخاء والكرم"[6]، تتلمذ في الأندلس على يد العديد من العلماء أمثال أبي القاسم ابن ورد، كما روى عن العديد من أصحاب العقل النّير والفكر الخصب كأبي علي الحسن بن عبد الله ابن الخرّاز، كما سمع وروى عن أبا محمد سبطَ ابن عبد البَرّ.

---

[1]- مزوزية حداد، سياسة الدولة الموحّدية من خلال الرسائل الديوانية، ص29.

[2]- عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 1986، ج6، ص 475.

[3]- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 21، ص151.

[4]- عبد الله بن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس ومحمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012، ط1، مج5، السفر8، ص126.

[5]- المصدر نفسه ، 130.

[6]-أحمد أبي القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ص503.

استغل أبو موسى في ديوان الإنشاء للدولة الموحّدية، فحبّر العديد من الرسائل القيّمة الراقية، حيث تبيّن من خلال كتاباته المتنوّعة بأنّه " فقيها حافظا قائما على الفقه وأصوله، راسخَ القَدَم في فنون من العلم حَسَن التصرُّف فيها، خطيبا مصقّعًا، مستبحرًا في الأدب والذّكر للتواريخ، ذا حظ صالح من قرض الشعر"[1] ومن جملة أشعاره نذكر قوله:[2]

دَع ذكرَ دارٍ مصيرها أن تَخربَا واعمل لدارٍ مقامةٍ لن تذهبَ

وما كنتُ أحسبُ يا عليُّ مَنيّتي تقضي عليَّ مُغربا عن زينبا

ولي أبو موسى قضاء الجماعة "فكان في ولايته القضاء مشكور السيرة، جزلا في تنفيذ الأحكام، معروفا بالعدالة والنزاهة"[3]توفى الرجل بمراكش سنة 578هـ.

11. أبو الحسن بن زيد الإشبيلي:

العلامة الكبير والكاتب الفقيه، أبو الحسن علي بن زيد النجار[4]، من أهل إشبيلية، لا تعرف سنة ولادته، فلم يذكر أحد ممن ترجم له ذلك.

[1]– عبد الله بن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، سفر8، ص127.

[2]– المصدر نفسه، ص ن.

[3]– المصدر نفسه ، ص ن.

[4]– ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري اللبناني والمصري، بيروت، القاهرة، مصر، 1989، ط3، ص108.

كتب أبو الحسن بن زيد الإشبيلي للخليفة يوسف بعد وفاة كاتبه عبد الملك بن عياش[1]، سنة ثمان وستين وخمسمائة[2]، فكتب له رسالتين ديوانيتين حربيّتين، فالأولى حول انتصار فرقة موحّدية على فرسان آبة في معركة فحص هلال، كان قد كتبها من إشبيلية سنة ثمان وستين بعد الخمسمائة، من يوم 24 من شهر شعبان.[3]

والثانية كتبها سنة تسع وستين بعد الخمسمائة من إشبيلية حول عقد هدنة مع بعض المماليك الإسبانية.[4]

وعليه فقد تولّى أبو الحسن بن زيد ديوان الإنشاء عند السطان الموحدي يوسف بن عبد المؤمن، إلّا أنّ هذا الأمر لم يدم لأنّ المنية عاجلته فتوفى بمراكش بالطاعون، وفي صفر من سنة اثنين وسبعين بعد الخمسمائة.[5]

خلّف الرجل عددا من القصائد منها ما ضبطه صاحب المقتضب في ترجمته له، منها قوله:[6]

أَما تَشفي منِّي صُــروفُ زمــاني وهــلّا كفى الأيام أنَّ فاني

وحَسبَ المنايا أن خلعتُ شبيبتي ولولا حِذاريها خلعتُ عناني

1- أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص24.

2- ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص 108

3- المرجعنفسه، ج1، ص24.

4- المرجع نفسه، ص ن.

5- ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص108.

6- ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص108.

12. أبوالحسنالقلنيّ:

هو الكاتب المشهور، الفقيه، العالم، الأديب حسن الحظ[1]، علي بن يحي بن سعيد بن مسعود بن سهل الأنصاري، تلمسينيّ قلنيُّ* الأصل[2]، سكن تلمسان[3] وتجوّل بالمغرب وسكن بمراكش وإشبيلية[4] "روى عن أبي الحسن بن أبي قنّون وأبي عبد الله التُجيبيُّ وتدبّج معه"[5]، درس الرجل بجامع قرطبة، ثم انتقل إلى الاشتغال في ديوان الإنشاء الموحدي فكتب "بمرسية عن السيد أبي محمد بن الخليفة يوسف واليها، ومن ذلك الرسالة التي كتبها عنه من ظاهر يابرة أثناء عودة الحملة الموحدية من حصار تشرين سنة 580"[6]، كما ذهب إلى مراكش فكتب "عن طلبتها (ربما سنة591) جوابا على رسالة المنصور المبشرة بالنصر بالنصر في الأرك."[7]

لا يُعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، لأنّ المصادر وفي أغلبها لم تذكر ذلك.

---

[1]- أبو عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة، كج5، سفر 8، ص75.

*- نسبة إلى قلنة: من الحصون البَطليوسية (ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص373).

[2]- أبو عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة، مج5، سفر8، ص75.

[3]- أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، 484.

[4]- أبو عبد الله المراكشي، الذيل والتكملة، ص75

[5]- المصدر نفسه، ص ن.

[6]- أحمدعزاوي، رسائل موحدية، ج1، ص26.

[7]- المرجع نفسه ص ن.

13.ابن جبير:

من الكتاب الأندلسيين الموحدين، اسمه الكامل أبو الحسين محمد بن جُبير الكناني[1]، ولد ببلنسية سنة 540هـ[2]، تلقّى علومه في شرق الأندلس، كاتب ديوان الحاكم الغرناطي أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحّدي[3]، توفى الرجل سنة 614هـ[4].

خلّف ابن جبير من ورائه أدبا يجمع بين الشعر والنثر ومن ذلك النثر رحلته المسماة؛ "تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار"[5]رحلة ذات أسلوب شيّق سهل ممتنع.

14.ابن الأبّار:

ابن الأبار قطب من أعظم أقطاب علم التاريخ، ومن أكثر المؤلفين في مجال التراجم "علامة متعدّدة الجوانب،فهو فقيه راسخ، وكاتب بلغ ذروة البيان، وشاعر مبدع مبكي، ثم هو بعد ذلك كلّه مؤرّخ محقّق، وكان مولده بثغر بلنسية في سنة 595هـ"[6]اشتهر بالتأليف التاريخي فكتب التكملة، والمطّلع على هذا المصنّف يلحظ عليه براعته في اللغة والأدب، وولعه الكبير بالأخبار وحبّه للارتحال والأخذ عن العلماء المشاهير.

---

[1] – محمد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، ص280.

[2] – المرجع نفسه، الصفحة نفسه.

[3]– المرجع نفسه ، ص ن.

[4] – المرجع نفسه ، ص ن.

[5]– المرجع نفسه ، ص 281.

6– عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ص 705.

ويعدّ أبي عبد الله محمّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (595هـ- 658هـ) من أبرز علماء الأندلس في القرن السابع الهجري، ولد سنة 595هـ الموافق 1199م في بلنسية[1]، نشأ في بيت علم وجاه في كنف أسرة متدينة محافظة، كان حافظ للقرآن وملما بتفاسيره، وكان أيضا على علم بالحديث النبوي الشريف، أديبا، ناقدا، شاعرا، وموسوعي الفكر[2].

تعلّم على يد ثلّة من العلماء نذكر منهم: أبا عبد الله بن نوح وأبا جعفر الحصّار، محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح البلنسي، القاضي أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي الأندلسي.[3]

أخذ الفقه والحديث عن أبي عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطي، وعن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي زاهر، كما أخذ التاريخ عن بن واجب القيسي وكذلك أبي سليمان داوود بن سليمان بن حوط الله الأنصاري، أمّا النحو والأدب فتعلمهما عن محمد بن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري[4] وغيرهم الكثير.

[1]- ينظر: ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص16.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص 17.

[3]- ينظر: المصدر نفسه، ص ن.

[4]- ينظر: المصدر نفسه، ص ن.

توفي ابن الأبار سنة 658هـ[1] مخلفا وراءه العديد من المصنّفات أشهرها: هداية المعترف، درر السمط في خير السبط، أعتاب الكتاب، معادن اللجين في مراثي الحسين، تحفة القادم، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال[2]، وغيرها من المصنّفات. وقد ساعده في غزارة التأليف المهام التي كلّف بالقيام بها وعلى رأسها الكتابة عند السّيد أبي زيد والي بلنسية لمدّة من الزمن.

15.أبو بحر بن صفوان بن إدريس:

الأديب الشاعر الكاتب البليغ، فقيه الموحّدين الأندلسي "صفوان بن إدريس بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس، التجيبي المرسي أبو بحر"[3] ولد سنة 560 بمرسة[4]، فقد كان شاعرا مجيدا، حافظا سريع البديهة، راويا، حيث روي عن "أبيه وخاله وابن عم أبيه القاضي القاسم بن إدريس، وأبي بكر بن مغاور، وأبي رجال ابن غليون، وأبي العباس ابن مضا، سمع عليه صحيح مسلم، وأبي القاسم بن حبيش، وابن حوط الله..."[5] وغيرهم الكثير والكثير.

---

[1]- ينظر: محمد بن محمد بن الحسن الميموني، النصح الأوفى لأهل الصدق والوفا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص302.

[2]- ينظر: ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص23 وما يليها.

[3] - المقري، نفح الطيب، ج5، ص 62.

[4] - أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة، ج1، ص27.

[5] - المصدر نفسه، ج5، ص ن.

خلّف كتبا هامة منها زاد المسافر وكتاب الرحلة والعجالة[1]، وفيهما تظهر مقدرته اللغوية الكبيرة في الكتابة والنظم.

استكتبه والي مرسية عبد الرحمان بن الخليفة يوسف "فكتب عنه رسالة إلى ملك قشتالة مؤرخة بمنتصف ذي القعدة سنة 584 هجرية"[2]، إلّا أنّه لم يدم طويلا على رأس الكتابة الديوانية، فقد وافاه أجله سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ليلة الاثنين من العاشر من شوّال.[3]

[1] –أحمد عزاوي، رسائل موحّدية مجموعة جديدة ، ج5، ص63.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص27.

[3] – المصدرنفسه، ج5، ص70.

قائمة المصادر

والمراجع

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع

قائمة المصادر و المراجع:

1) ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1989، ط3، مج17

2) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى عصر الحاضر، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2000، ج1.

3) إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة،بيروت،لبنان،دط،دت.

4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد محمد الحو في بدوي طبانة،دار نهضة مصر،القاهرة،مصر،دط،دت،القسم الأوّلوالثاني.

5) إحسان عبد المنعم عبد الهادي سماره، مفاهيم أساسية في العقيدة الإسلامية، دار الكتاب الثقافي، عمان، الأردن، دط، دت.

6) أحمد خليل جمعة، نساء من الأندلس، دار اليمامة، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

7) أحمد محمد الشوادفي، شهيد الشعراء ابن الأبار –دراسة في الخيال 595-658هـ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2008.

8) أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، المغرب، دط، 1973.

9) أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، 1996.

10) أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مؤسسة عمّان للنشر والتوزيع، عمّان، ط2 ،د ت.

11) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج 5.

12) أحمد رضا، متن اللغة موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1958، مج1.

13) أحمد عبد العزيز الجوهري، معجم الصّحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مطبعة بولاق، مصر، ط2، 1957، حرف الرّاء.

14) أحمد محمود آل محمود، البيعة في الإسلام تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق، كلية الآداب ، دار الرازي، القاهرة، مصر.

15) أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، ط1، 1989، ج1.

16) أسامة حسين السامرائي، تاريخ الوزارة في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2012.

17) إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصّل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987، مج1.

18) بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تح: عبد القادر محداد، بيروت، لبنان، 1939، الهامش رقم 1.

19) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د ط، 1965.

20) بدر عبد الحميد هميسه، الجمال في براعة الاستهلال، دط، 2011.

21) بسّام الشَنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: سالم مصطفى الردري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1.

22) بشكوال، الصّلة، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ج2.

23) البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب، تح: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر،دط، 1996، القسم الأوّل.

24) أبي بكر الرازي ،مختار الصحاح ، تح : يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية،بيروت ، ط5، 1999.

25) أبو بكر السيوطي، الدّيباج على صحيح مسلم بن الحجّاج، تح: محمّد زكريّا الكاند هلويّ، دار الأرقم، بيروت، مج1.

26) أبو بكر الصولي، أدب الكاتب، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

27) بوفلاقة محمد سيف الإسلام، جهود علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم ابن الخطيب وكتاب الإحاطة أنموذجا، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2014.

28) البيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط، المغرب، دط،1971.

29) الجاحظ، البيان والتبيين، تح: حسن السندوبي، دار هنداوي، ط2، 2004.

30) جاسم ياسين الدرويش، أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

31) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.

32) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، مصر، ط3، دت، ج2.

33) جعفر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1.

34) جلال الدين السيوطي، نظم العِقيان في أعيان الأعيان، تح: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، دط، دت.

35) جلال الدين السيوطي،بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، 1964، ط1، ج1.

36) جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين دراسة سياسية وحضارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2001.

37) جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، دار توبقال، المغرب، ط1، 1996.

38) جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 2006.

39) حجاب محمّد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، دراسة تحليلية نقدية لتطوّر الأساليب، مكتبة الطالب الجامعي، الكويت، ط2، 1986.

40) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980.

41) حسن الرُعينيّ، برنامج شيوخ الرُعيني، تح: ابراهيم شبّوح، مكتبة مروان عطية، دمشق، سوريا، دط، 1962.

42) حسن حسني، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسني عبد الوهاب، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار العربية للكتاب، مصر، 2001، مج3.

43) حسن علي بن عيسى الرّماني ، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّماني و الخطّابي و عبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية و النقد الأدبي ، تح : محمد خالف الله أحمد ، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة ، ط 8 .

44) حسين أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تح: ابراهيم شمس الدّن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1.

45) حسين أحمد أمين، المائة الأعظم في تاريخ الإسلام، دار الكرمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2019.

46) حسين نصّار، نشأة الكتابة الفنّية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2002.

47) حفص عمر الفاسي ومحمد التاودي بن سودة، إحكام أحكام الزكاة للحكام وما ينتظم منه بيت المال، تح: نور الدين بن محمد لرجى، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1971.

48) حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986.

49) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، دط، دت، ج6.

50) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، 1977، ج1 و4.

51) خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002.

52) دنيا ملكاوي، النثر الخيالي في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين التشكيل والتأويل، الآن ناشرون وموزعون، الأردن، دط، 2018.

53) ديوان المتنبي، دار بيروت للنشر، بيروت، لبنان، 1983.

54) ديوان المتنبي، شرح: أبي البقاء العَكبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، دط، دت، ج4.

55) رجاء عيد، لغة الشعر قراءة في الشعر العربي المعاصر، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت.

56) رسائل أبو القاسم القالمي، جمعها: عبد الوهاب بن منصور، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، ط1، 1951.

57) رشيد بورويبة، ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

58) رضا عبد الغني الكساسبة، النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطاته بواقعهم الحضاري، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، دط، 2004.

59) ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني وحكاياته، دط، 2011.

60) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، دط، 1965.

61) الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998، ج2.

62) سعد أمل داعوق، فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

63) ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح: ابراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، دط، 2009، ج1.

64) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج2، وكذلك اعتمدنا على تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، ج2.

65) سمير نور الدين دَردور، ملحمة الجزائر شرح تاريخي لإلياذة الجزائر لشاعر الثورة مفدي زكريا، دار هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، دط، دت.

66) سيّد علي صدر الدين بن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تح: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، بغداد، العراق، ط1، 1968، ج1.

67) ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2000.

68) شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار هنداوي، دط، دت، ج3.

69) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تَدمُري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج41.

70) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح:بشار عوّاد معروف و محيي هلال سرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1984، ط1، ج21.

71) شهاب الدين أحمد بن يحي، مسالك الأبصار في مَمالكِ الأمصارِ، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، د ت، ج18.

72) شهاب الدين عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج7.

73) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر الجاهلي/ عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11.

74) صباح عبيد دراز، أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية،مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1986.

75) صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي المصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج2.

76) طاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2010، ج1.

77) ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005.

78) طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1953.

79) الطّيب القنوجي البُخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7.

80) ظاهر محمد الزواهرة، التناص في الشعر العربي المعاصر التناص الديني أنموذجا، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط1، 2013.

81) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

82) عباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحّدية، ج2، تح: جعفر الناصري ومحمّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1997.

83) عباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1915، ج1.

84) عباس أحمد بن محمد الغُبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

85) عباس بن ابراهيم السُملالي، الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، تح: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، 2002، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ج8.

86) عبد الله الأنصاري المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية للمملكة المغربية، المغرب، السفر الثامن.

87) عبد الحميد حاجيات، ملاحظات حول تطوّر الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين، مجلة الحوار المتوسطي، ع15-16، مارس2017.

88) عبد الله علام، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1971.

89) عبد المحسن طه رمضان، تاريخ المغرب والأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الفكر، عمّان، الأردن، ط1، 2011.

90) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محّمد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1، 1949.

91) عبد الله أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تح:حسن مؤنس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1985، ج2.

92) عبد الله اللخمي السبتي، بغية المستطرف وغنية المتطرف، تح: محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014.

93) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، 1986، ج6.

94) عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، د ت، ج3.

95) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط3، 1992 .

96) عبد الله بن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس ومحمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012، ط1، مج5، السفر8.

97) عبد الله علّام، الدعوة الموحّدية بالمغرب، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1964.

98) عبد المالك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1964.

99) عبد المتعال محمد الجبري، أصالة الدواوين والنقود العربية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1989.

100) عبد المجيد الحُر، ابن زيدون شاعر العشق والحنين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1992، ج6.

101) عبدالملك بن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964، ط2.

102) عبد الهادي الفكيكي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، دار النمير، سوريا، ط1، 1996.

103) عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط1، 1949.

104) أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965.

105) عدنان خلف سرهيد الدراجي، التأثير الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية خلال عصر سلطنة غرناطة 635- 897هـ، دار حميثرا للنشر، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، ط1، دت.

106) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس،ط1، 2013، القسم الثالث.

107) ابن العربي المالكي، عارضةُ الأحوذي بشرح صحيح البخاري، تح: جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، 1971، ج3، باب 433.

108) علي محمد الصّلابي، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2005 .

109) علي بن محمّد التَّمَكْروتي، النفحةُ المِسْكيَّةُ في السفارةِ التُّركيَّة، تح: محمد الصالحي، دار السويدي، أبو ظبي، ط1، 2007.

110) علي بن محمّد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج1.

111) علي الجندي ، فن التشبيه بلاغة أدب نقد ، دار النهضة ، مصر ، ط1 ، 1952 ، ج1

112) عمر فروخ، الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

113) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1985، ط2، ج5.

114) غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع الهجري العراق والمشرق الإسلامي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2011.

115) فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1989.

116) أبو الفتح المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.

117) أبو الفرج ابن الجوزي، آداب الحسن البصري، تح: أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

118) أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، دار المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة، دط، 1399هـ.

119) أبو الفضل بن الطاهر المقدسي، مُسند الحُجَّة على تارك المحجّة، تح: محمد العزازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

120) فوزي سعد عيسي، رسائل ومقامات أندلسية، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، دت.

121) فيروزآبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005، ج2.

122) أبو القاسم محمّد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين، تح: رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1966.

123) القاضي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي و خصومه، تح: أبو الفضل ابراهيم، علي محمد البجاوي، دار عيسى بابي الحلبي، دمشق، سوريا، ط1، 1966..

124) القاضي عياض، الغُنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تح: ماهر زهير جَرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

125) قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: طه حسين وعبد الحميد العبادي، مطبعة الكتب المصريّة، القاهرة، مصر، ط15.

126) القزويني، سراج العقول في منهاج الأصول، تح: عبد المولى هاجل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

127) ابن قطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

128) ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعزّ الحقير، تح: محمد الفاسي وأودولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، دط، دت.

129) ابن القيّم الجوزية، زاد المعاذ في هدى خير العباد، تح: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 3، 1998، ج3.

130) كاظم عبد فريح المولى الموسوي، الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة-دراسة أسلوبية-،دد، دط، دت.

131) لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس 1347-1362، تح: أحمد مختار العبّادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

132) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، د ط، دت، ج1.

133) ليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب، 1941.

134) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2007.

135) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح: عي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1.

136) محمد بن مصطفى ابن الخوجة الجزائري، الإكتراث في حقوق الإناث، تح: زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2007.

137) محمد عبد الله عنّان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الثاني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1964.

138) محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب ، علوم البلاغة ،البديع و البيان و المعاني،المؤسسة الحديثة للكتاب ،طرابلس، لبنان ،ط1 ،2003.

139) محمد بن محمد بن الحسن الميموني، النصح الأوفى لأهل الصدق والوفا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

140) محمد رجب النّجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ط1، 1996.

141) محمّد رضوان الداية، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق، سوريا، دط، 2000.

142) محمد نبيه، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، مكتبة الطالب، السعودية، ط2، 1986.

143) محمود السيد، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دط، 2004.

144) محمود الشرقاوي، المغرب الأقصى مراكش، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، دت.

145) مريم قاسم طويل، مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

146) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ج14.

147) مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1979.

148) أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، تح: محمّد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

149) مناع هاشم صالح، النثر في العصر العباسي وأشهر أعلامه، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دط، 1999.

150) منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002.

151) ابن منظور ، لسان العرب، تح: عَامر أحمد حَيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009، ج5 و ج1.

152) المهدي ابن تومرت، أعز ما يطلب، طباعة الحجر الشرقي، فونتانا، دط.

153) مؤلف أندلسي مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشيّة، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1979.

154) أبو نعيم أحمد بن محمّد الأصفهانيُّ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1.

155) أبو الهلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ، تح : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط 1، 1952.

156) أبو الهلال العسكري، جمهرة الأمثال، تح: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج1.

157) وفاء تقي الدين، كتاب النصوص المختارة مع تطبيقات وتحليلات لغوية نقدية متنوعة، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، دط، 2004.

158) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مكتبة العاني، بغداد، العراق، د ط، 1967.

159) ياسر محمد ياسين البَدري الحسَيْني، أقمارُ في سماء الأندلسيين ابن حزم الظاهري الأندلسي سيرته مذهبُهُ شُيوخه وتلاميذُهُ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، دط، د ت.

160) ياسين النصير، الاستهلال فنّ البدايات في النّص الأدبي، دار نينوى، سوريا، 2009.

الأطاريح والرسائل والمذكّرات الجامعية:

1) ابراهمي صليحة، الرسالة الإخوانية في التراث العربي مقاربة أسلوبية، رسالة ماجستير في الأدب العربي، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2016-2017.

2) بغداد غربي، خطة الكتابة على عهد الموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2006-2007.

3) بن عبد الحفيظ رونق ومجدوب هالة، بنية الرسائل في العصر العباسي الدرة اليتيمة لابن المقفع أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، 2017/2016.

4) حكيمة إيملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم "العهد الموحدي أنموذجا"، رسالة ماجستير في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2008-2009.

5) رشا فخري النّحال، فنّ الرسائل في العصر المملوكي دراسة تحليلية، رسالة ماجستير في الأدب والنقد، كلّية الآداب، غزّة، 2014/2013.

6) ريم صالح الغامدي، توظيف الشعر الجاهلي في الرسائل الديوانية والإخوانية الأندلسية في القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير، تخصص أدب عربي قديم، جامعة أم القرى، السعودية، 2008.

7) سامية جباري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس من فتح الأندلس إلى سقوط غرناطة (92هـ -897هـ)، رسالة ماجستير في الأدب العربي القديم، جامعة الجزائر 1، الجزائر، لا يوجد معلومات أخرى عن الرسالة.

8) شوقي نوارة، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008.

9) طبيش حنينة، صور السخرية في الرسائل الأندلسية عصر ملوك الطوائف والمرابطين، رسالة ماجستير في الأدب الأندلسي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حاج لخضر باتنة، الجزائر، 2009/2008.

10) عبد المجيد النّجار، المهدي ابن تومرت، حياته وآراؤه، وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، مصر، مطبوعة، ط1، 1983.

11) غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبيّة النثرية في القرن الرابع العراق والمشرق، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة العراق، 2005.

12) فايزة سعيدات، الحياة الأدبية والمظاهر الحضارية على عهد الموحدين من القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه في أدب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسّطية، جامعة أبي بكر بلقايد، قسم اللغة العربية وآدابها، تلمسان، الجزائر، 2017-2018، مطبوعة.

13) فهد مفتاح يعيش الفهمي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتّى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير في الأدب والبلاغة، السعوديّة، 2015.

14) فيصل حسين العلي، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2001.

15) مالك محمّد جمال بني عطا، السّجع في العصر الجاهلي، جامعة مؤتة، 2011، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الأردن.

16) محمود محمد عبد الرحمن خياري، أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة الأردن، 1991.

17) مزوزية حداد، سياسة الدولة الموحّدية من خلال الرسائل الديوانية 515-668هـ/1121-1269م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013/2012.

18) نواري بالة، الخطاب النثري في مجلة الشهاب الجزائرية 1929-1939، أطروحة دكتوراه علوم تخصّص الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2016-2017.

الدوريات والمجلات:

1) إيمان عبد الرحمن حسن العثمان، التعايش السلمي للمسلمين مع أهل الذمة في الدولة المرابطية في عصر علي بن يوسف، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، الجزائر، مج8، ع2/15، 2014.

2) سامية جباري، أثر القرآن الكريم في المكاتبات السلطانية الأندلسية،حوليات جامعة الجزائر 1، الجزائر، ع29، ج2.

3) سهيلة مفروش، التكرار ودلالته النفسيّة في أوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي، مجلة دراسات معاصرة، تيسمسيلت، مج5، ع2، 2021.

4) فاطمة دخية، فنّ الرسائل في الأدب الجزائري القديم، مجلة قراءات، جامعة بسكرة، الجزائر، ع10، 2017.

5) كمال الزماني، حجاجية السجع والجناس المقدماتي مقدمة ابن خلدون أنموذجا، مجلة دراسات، مج7، ع3، ديسمبر 2018.

6) محمد نذير الأشهب، فنّ التّرسل الأسبقية الغربية والإبداع العربي، مجلّة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة حمّة لخضر الوادي، مج13، ع1، 2021.

7) نصر الدين إبراهيم أحمد حسين ،علم البديع في ضوء القرآن الكريم ،دراسة بلاغية تحليلية ،مجلة الدراسات اللغوية ،الجامعة الإسلامية العالمية ،ماليزيا ،ديسمبر 2013، ع2.

فهرس الموضوعات

البسملة

إهداء

شكر وعرفان

مقدّمة.....أ

المدخل: لمحة عن الحياة النثرية في العهد الموحدي **2**

تمهيد: 2

النثر في عصر الموحّدين: 3

فنّ الخطابة: 8

المقامة: 11

الرسالة: 15

الفصل الأول: نشأة الرسالة الموحدية و تطورها 17

المبحث الأوّل: مفهوم الرّسالة: 17

لغة: **17**

ب. اصطلاحا: 21

المبحث الثاني: نشأة أدب الرسائل: 24

- **في العصر الجاهلي:** **24**
- **في العصر الإسلامي:** **26**
- **في العصر الأموي:** **29**
- **في العصر العباسي الأوّل والثاني:** **32**
- **نشأته عند الأندلسيين:** **35**
- **في العصر الحديث:** **39**

المبحث الثالث: شروط الكاتب: 41

المبحث الرابع: دور الترسّل ومكانته في المجتمعات: 44

المبحث الخامس: العوامل المساعدة على تطورها: 47

أولا: العامل السياسي 48

ثانيا: العامل الاقتصادي 66

ثالثا: العامل الفكري 69

رابعا: العامل الاجتماعي: 90

–الطبقة الحاكمة*: **94**

–طبقة المتصوّفة **94**

–طبقة العامّة **95**

–المرأة الموحّدية **97**

المنشآت العمرانية الموحّدية: **101**

الفصل الثاني: أنواع الرسائل الموحدية و أغراضها 74

المبحث الأول: الرسالة الديوانية: 74

–تعريفها: **74**

أغراضها..... 119

المبحث الثاني: الرسائل الإخوانية: 126

–تعريفها: **126**

-أغراضها..... 171

المبحث الثالث: الرسالة الوصفية 155

-تعريفها..... **196**

-أغراضها..... **198**

الفصل الثالث: مقاربة فنّية تحليلية للرسالة الموحّدية 213

المبحث الأوّل: البناء الفنّيُّ للرسالة الموحّدية ولغتها: 214

1/ أقسام النّص: البدء والعرض والختام 214

- **البدء: 214**
- **العرض: 224**
- **الختام: 231**

2/ الألفاظ في الرسالة الموحّدية دلالتها ومنبعها: 233

3/ الرسالة الموحّدية وقضيتي التقليد والتجديد: 236

المبحث الثاني: الرسالة الموحّدية وعلم المعاني: 240

1/ مظاهر الاتساق والانسجام في الرسالة الموحّدية: 240

2/ الرسالة الموحّدية والأساليب البلاغية: 242

3/ الرسالة المُوحّدية وأسلوب الاستقصاء والإفاضة في التعبير عن المعاني: 250

4/ الرسالة الموحّدية وظاهرة التّكرار: 253

-تجلياته في الرسالة الموحّدية: 255

- تكرار اللفظ: **255**

- تكرار الجملة: **257**
- تكرار الحرف: **258**

المبحث الثالث: الرسالة الموحّدية وعلم البديع: **261**

1/ دراسة نقدية لمصطلح البديع: 262

- **الجناس:** **264**
- **السجع**: **268**
- **الطباق**: **274**

المبحث الرابع: الرسالة الموحّدية وعلم البيان: 278

1/ دراسة نقديّة لمصطلح البيان: 278

2/تجليات البيان في الرسالة الموحّدية: 280

- **الصورة الاستعارية:** **280**
- **الصورة التشبيهيّة :** **284**

المبحث الخامس: الرسالة الموحّدية وعمليتي التضمين والاقتباس: 290

1/ التضمين: 290

- **تضمين الأمثال العربية:** **290**

– تضمين الشعر العربي: **293**

–تضمين الأحداث التاريخية والأعلام المشهورين في الرسالة الموحّدية: **298**

2/ الإقتباس: **306**

–الإقتباس من القرآن الكريم: **306**

–الإقتباس من الحديث النبوي الشريف: **314**

الخاتمة 320

الملحق: 327

قائمة المصادر والمراجع 355

فهرس الموضوعات 376

الملخّص:

تحاول هذه الدراسة أن تقف على الخصائص الفنّية والسمات الأدبية التي تحويها الرسائل الموحّدية باختلاف أنواعها وأغراضها، كما تهدف إلى نفض الغبار عما غمر من هذه المكاتبات سواء أكانت وصفية أو ديوانية أو إخوانية.

ومهما يكن فإنّ فنّ الرسائل في هذا العهد قد خطا سبل الكمال بفضل الدين والفتوح، فانتقل من السجعات القصيرة المفكّكة، والمعاني العامة المجملة إل الأسلوب المحكم، المختلف الغرض، العميق الأثر.

الكلمات المفتاحية:الرسائل– الإخوانية– الديوانية– الوصفية– السمات الفنّية.

Summary:

This study attempts to identify the artistic characteristics and literary features contained in the Almohad letters of different types and purposes. It also aims to dust off what has been submerged in these correspondences, whether they are descriptive, anecdotal, or Ikhwani.

Whatever the case, the art of letters in this era took the path of perfection thanks to religion and conquests. It moved from short, disjointed rhymes and general, general meanings to a precise style, with a different purpose, and a profound impact.

Keywords: messages - Brotherhood - diwaniyah - descriptive - artistic features.

Résumé:

Cette étude tente d'identifier les caractéristiques artistiques et les traits littéraires contenus dans les lettres almohades de différents types et finalités. Elle vise également à dépoussiérer ce qui a été submergé dans ces correspondances, qu'elles soient descriptives, anecdotiques ou ikhwani.

Quoi qu'il en soit, l'art des lettres à cette époque a pris le chemin de la perfection grâce à la religion et aux conquêtes. Il est passé de rimes courtes et décousues et de sens généraux à un style précis, avec un but différent et un impact profond.

Mots clés : messages - Fraternité - diwaniyah - descriptif - traits artistiques.